فاسيل بيكوف

سوتنيكوف

ولد فاسيل بيكوف عام ١٩٢٤ . وفى عام ١٩٤١ ترك مقعد الدراسة ليتوجه الى الجبهة متطوعا . جرح مرتين ، وشارك فى معارك ضد الهتلريين باوكرانيا ، ورومانيا وهنغاريا . زاول الصحافة بعد تسريحه من الجيش ثم احترف الادب . ويعد الاديب البيلوروسى فاسيل بيكوف من المع الكتاب المعاصرين الذين يكتبون عن الحرب خلال السنوات الاخيرة . وكل كتب المؤلف مكرسة للسنين التى كانت الحرب ابانها حياة الشعب ومأثرته . واشتهرت على نطاق واسع رواياته «صرخة الغرنيق» و«الصاروخ الثالث» و«انشودة الالب» و«سوتنيكوف» و«الذكرى» و«نحيا حتى الفجر» وغيرها . منح بيكوف عام ١٩٧٤ جائزة الدولة السوفييتية للادب .


P5



١

سارا خلل الغابة ، على الطريق المقفرة المهالة بالثلج ، المهجورة حتى من اثار حوافر حصان او اقدام الناس او عجلات عربات . والراجح ان الناس قلما يسيرون عليها فى الصيف ايضا . اما الان ، فى شهر شباط الوافر بتساقطات الثلوج الغزيرة ، فقد طمرت ندفها كل شيء هنا . فكان من الصعب ادراك ان ثمة طريقا امامك ، لو لا اشجار الصنوبر والحور ، المتهدلة الاغصان ، المنشقة يمينا ويسارا بخط متعرج يكشف عن ممر موهته الانواء عن الاعين ، فلا يمكن ملاحظته الا بفضل بياض الثلج المتراكم عليه ، اللامع بقنوط فى غَسَم الليل . ورغم ذلك فهما لم يخطآ . وكان ريباك يتذكر اكثر فاكثر ، وهو ينفذ بصره عبر اعواد الكثبان العارية الممتدة فى الغسق ، ملامح المكان الذى كان قد تعرف عليه فى الخريف . انذاك ، ذات مساء قطع هذه الطريق ايضا ، صحبة اربعة من مجموعة سمولياكوف ، للوصول الى ديرة فلاحية بغية الحصول ايضا على مآكل ما . وها هى تلك الحفرة المعروفة لديه ، حيث جلس ثلاثتهم تحت حافتها يدخنون بانتظار ان يصدر الاثنان اللذان تقدماهم ، الاشارة ليتحرك الجميع . اما الان فلا مجال للنزول الى الحفرة ، فقد تدنى على حافتها افريز من الثلج ، وغدت الاشجار الواقعة على منحدرها مغمورة بالثلج حتى ذؤاباتها .

الهلال رهيف ينزلق فى السماء بنعومة فوق اعالى الصنوبر ، يكاد يعدم نورا ، انما كان ينوس بوهن بين تلاصف النجـــوم البارد ، معه لم يكن الحال شديد التوحد ، فكان مخلوقا حيا ،

خفيف الخطو ، كريم الحضور ، يرافقهما فى هذه الطريق . وآماد الغابة كالحة جهماء بسبب الصنوبر المترهل الداكن ، وثمة ظلال ما مموهة ، تنسل من الاغصان الجامدة المتشابكة ؛ وفى القرب كانت الطريق تبتدى للعيان فى البياض الناصع دون جهد ، ممتدة هنا فى هذا الصقع البكر ، ورغم انها كانت تعيق السير بثلوجها ، الا انها كانت تضمن لهما فى المقابل راحة من المفاجآت: فمن المستبعد ان يعترضهما احد فى هذا المناى . ولكن ريباك كان حذرا ، بخاصة بعد ما حدث لهما فى غلينيانى ، اذ كادا ، قبل ساعتين مضت ، ان يتعثرا بالقرب منها بالالمان . فقد حالفهما الحظ بالالتقاء ، عند مشارف القرية ، بعجوز يحمل حطبا ، حذرهما من الخطر الداهم ، فعادا ادراجهما الى الغابة حيث تقلبا طويلا بين الكثبان حتى عثرا على هذه الطريق .

ولكن الاشتباك مصادفة فى الغابة او فى حقل لم يكن يرعب ريباك كثيرا فقد كان مسلحا . صحيح انه لم يكن معه ما يكفى من الاطلاقات ولكن ما حيلته مع هذا الامر ؛ فاولئك الذين ظلوا عند مستنقع غوريلويه اعطوهما من احتياطيهم النزر جدا ما استطاعوا . فحمل ريباك فى جيبى معطفه النصف ، اضافة الى الخمس اطلاقات فى خزان بندقيته ، ثلاثة امشاط ، قدر ما عند سوتنيكوف وللاسف لم ياخذا معهما قنابل يدوية . ولكن الامر قد لا يقتضى استخدام القنابل ، اذ سيكونان فى المعسكر مع بكرة الصباح ، يتوجب عليهما ذلك فى كل الاحوال . وفى الحقيقة ، فان ريباك شعر ، بعد سوء الحظ الذى قابلاه عند غلينيانى بانهما تاخرا قليلا ، فعليهما الاسراع بعض الشىء الا ان ما يعيق حقا انما هو صاحبه .

كان ريباك يسمع وراء ظهره طيلة وقت مسيرهما فى الغابة سعال صاحبه الجاف الناجم عن البرد ، يدوى قريبا منه حينا ، ويدفدف الى سمعه بعيدا عنه حينا آخر . واذ لم يعد السعال هذا مسموعا بعد تمهل ريباك فى مشيته ، والتفت الى الخلف ، فرأى سوتنيكوف قد تاخر كثيرا عنه يكاد لا يجر قدميه فى غسق الليل . سفّ ريباك النظر دقيقة ، كاتما نفاد صبره ، اليه وهو يخوض فى الثلج تعبا بحذائه اللبادى الاخرق البالى ، حاشرا رأسه بطريقة غريبة فى قلنسوة جندى من الجيش الاحمر ، وقد انسدلت على

اذنيه ، بينما تناهت من بعيد خشخشة تنفسه الثقيل الذى لم يستطع سوتنيكوف ترويضه حتى اثناء توقفه .

– كيف الحال ، لا باس ؟

– امه – همهم سوتنيكوف ولوح بيده بشكل غريب دافعا بندقيته على كتفه الى وضع اكثر راحة – اما زلنا بعيدَيْن ؟

قبل ان يرد ، تباطأ ريباك ونظر مستفهما الى هيكل سوتنيكوف النحيف القصير بمعطفه المحزم جيدا . كان صاحبه قد تناهبه المرض ، ولكنه لن يعترف بهذا ، بل سيحاول التظاهر بالنشاط ، فقد يتخلى الوهن عنه اخيرا ، ويعود لحاله لربما سيفعل هذا ليتجنب عطف ومواساة الاخرين . لسوتنيكوف هذا من الكبرياء والعناد ما يكفى ثلاثة ، بل انه شارك فى المهمة بدفع من حب الذات الى حد ما – مريض ، ولم يرغب الاشارة الى المسالة للأمر عندما كان هذا يختار بالقرب من اللهب صاحبا لريباك . كان قد تم استدعاء شخصين فى البداية : فدوفيتس وغلوشنكو . ولكن فدوفيتس كان قد انتهى لتوه من تفكيك رشاشته وعكف على تنظيفها ، اما غلوشينكو فقد تحجج بقدميه المبللتين ؛ كان يذهب لجلب الماء وقد تنقع منه حتى الركبتين فى المستنقع . ذكر الآمر انذاك اسم سوتنيكوف فنهض هذا بصمت . وعندما اصبحا فى الطريق بعد ذلك ، واخذ سوتنيكوف يطلق سعاله ، ساله ريباك لماذا فضل الصمت عن هذا الامر واثنان قبله امتنعا ، مما دفع سوتنيكوف للرد : «ولهذا لم ارفض ، لان غيرى رفض» . بدا هذا لريباك غير مفهوم تماما ، ولكن بعد فترة فكر انه ليس من داع للقلق على العموم : فالرجل واقف على قدميه ، وهل يستحق الامر ان يوجه المرء انتباهه الى سعال ؟ فى الحرب لا يموتون بسبب نزلة برد ، يصل الى سكن فيتدفا ، ياكل بطاطة حارة فتزول كل الاوصاب .

– لا بأس ، لقد اقتربنا الان – قال ريباك مشجعا ، ثم استدار مواصلا طريقه ، ولكنه لم يفلح بالقيام بخطوة واحدة عندما انفجر سوتنيكوف وراءه بسعال طويل اجوف ، واذ انحنى صاحبه ضاغطا يده على فمه محاولا ضبط نفسه ، لم يفعل ذلك له سوى ان زاد السعال قوة .

– عليك بالثلج ! تناول منه فهو يقطعه ! – اوصاه ريباك بهذا ، فغرف سوتنيكوف حفنة منه ، مختضا بالنوبة التى قطعت صدره محاولا التغلب عليها ، وراح يرتحقه ، فهفت السعال فعلا الى حد ما .

– يا للسعال الشيطان ! آخذ بتلابيبك حتى لو انفجرت !

تجهم ريباك قلقا لاول مرة ، ولكنه حافظ على سكوته ، ثم واصلا طريقهما .

ثمة سلسلة مستقيمة من الاثار تمتد على الطريق بدءا من المسيل ، تفحصها ريباك ففهم ان ذئبا قد مر من هنا قبل فترة غير بعيدة (يبدو انه منجذب ايضا الى سكن لبشر ، وهل يحسد على العيش فى هذا الزمهرير وهذه الغابة ؟) . انحرف كلاهما الى جانب ولم يحيدا فيما بعد عن اثر الذئب ، الذى لم يكن يعين وجهة الطريق فى غسق الليل الضبابى الكالح ، ولكنما كان يشير ايضا الى الاماكن التى يقل فيها الثلج : فقد كان الذئب يعيّن هذا دونما خطا . وما يذكر ان طريقهما كانت تقترب من نهايتها ، وها هى تلك الديرة ، ينبغى ان تظهر امام العيان بين لحظة واخرى ، وهذا ما جعل مزاج ريباك يروق ويحسن .

– لوبكا هناك ، بُنَيّة من نار ! – قال ذلك بصوت غير مرتفع دون ان يلتفت . فسال سوتنيكوف اذ لم يفهمه :

– ماذا ؟

– بُنَيّة ، اقول ، هناك فى الديرة . ما ان تراها حتى يزول وجعك .

– اما تزال ثمة بُنَيّة فى راسك ؟

اسقط سوتنيكوف راسه على صدره مجرجرا نفسه وراءه بمشقة ملحوظة واحدودب اكثر من ذى قبل . يبدو ان جل اهتمامه مركز الان فى ان يظل منتصبا على قدميه ، وان يواصل وطاهما بالوتيرة التى كان قادرا عليها .

– وماذا فى ذلك ! فقط لو ناكل . . .

ولكن حى ذكر هذه السيرة لم يؤثر على سوتنيكوف ، الذى راح يتخلف من جديد ، والتفت ريباك الى ورائه مبطئا السير .

– امس غفوت عند المستنقع ، حلمت بالخبز ، قطعة ضخمة دافئة فى عبى . استيقظت فاذا حماوة النار هى السبب ، اى خيبة امل ! . . .

– لا عجب فى هذا – وافقه سوتنيكوف بصوت اجش – اسبوع ونحن لا ناكل غير حبوب الجودار المسلوقة . . .

– بل حتى هذا نفد . امس وزع غرونسكى البقايا .

قال ريباك ذلك وصمت محاولا ان لا يخوض فى حديث عما كان يشغله فعلا فى هذه المرة .

بل لم يعد الوقت يتسع الكلام ؛ انتهت الغابة ، وخرجت الطريق الى حقل ، الى جانب منها تمتد كثبان صغيرة ، والى جانب المستنقع شجيرات صفصاف . وكانت الطريق تحدودب بحدة على مرتفع حيث كان يجب ان يبين ، وراء حرش الحور ، سقف الزريبة المثقب ، وهناك بعد السياج سوف يكون البيت والسقائف ، والشادوف الشامخ فوق البئر . اذا كان الشادوف مرفوعا ونهايته الى اعلى – فذلك يعنى ان كل شىء على ما يرام ، يمكن الدخول ؛ اما اذا كان معلقا بالخطاف الى خرزة البئر ، فهذا يحتم التقهقر الى الوراء ، ففى البيت اغراب . هذا ما اتفق عليه مرة من باب الاحتياط مع العم رومان . كان ذلك فى الحقيقة منذ زمن بعيد ، وهم منذ الخريف لم يلقوا نظرة هنا ، كانوا يتقلبون فى اماكن اخرى ، فى ذلك الجانب من الطريق العامة ، حتى دفعهم الجوع والجندرمة الى ذلك المكان الذى طردوا منه قبل شهر .

اقترب ريباك من انحناءة الطريق بخطوات سريعة ثم اتجه نحو التلة . هذا ما كان اثر الذئب يقود اليه ، يبدو انه وقد شعر باقترابه من مسكن بشرى راح يخطو بحذر ، وبخطوات قصيرة ، محاذيا الاحراش طيلة الوقت . ولكن ريباك كف عن مراقبة الطريق جل اهتمامه كان مركزا على المكان حيث انتهت الاحراش .

استطاع ريباك اخيرا ان يعتلى على عجل قمة التلة ، وفى نفس الوقت ظن انه اخطا ، فمبانى الديرة على الارجح ، ما تزال على مبعدة . غالبا ما يحدث فى الطرق غير المعروفة جيدا ان تسقط مشاوير منها من الذاكرة ، فتبدو الطريق اجمعها انذاك اقصر مما هى فى واقع الحال . كان نفاد الصبر يستولى على ريباك بقوة

اكبر ، عجل من خطاه ، ولكن سوتنيكوف راح يتخلف وراءه مرة اخرى . وما يذكر ان ريباك كف عن الاهتمام به – بغتة ، وكما لو ان الامر دون سبب على الاطلاق استوفز دفعة واحدة وقد اجتاحه التيقظ .

لم تتبدى زريبة الديرة للعيان فى الغسق الليلى الكالح ، كما لم تكن المبانى الاخرى مرئية امامهما . غير ان دفقات مفاجئة من الريح حملت اليهما رائحة مرة حريفة لاذعة لحروقات . تصور ريباك انما خيل اليه ذلك فى بداية الامر ، وان الرائحة صادرة من مكان ما فى الغابة ، قام بمئة خطوة اخرى جاهدا ان يلمح عبر الكثبان سقوف البيوت المغطاة بالثلج المعروفة لديه . ولكن امله لم يتحقق – لم تكن هناك ديرة مقابل هذا تصاعدت رائحة الحروقات ، رائحة غير طازجة ، لا علاقة لها بنار او دخان ، بلها كريهة نتنة ، برد جمرها ورمادها منذ وقت طويل . واذ فهم ريباك انه لم يخطا القى سبابا مقذعا بصوت مسموع ، جرى تقريبا وسط الطريق ، حتى اصطدم بسياج .

كان السياج فى مكانه فيما نتات ازواج من اوتاده واغصان الصفصاف التى تشدها الى بعض من الثلج كيفما اتفق . هنا ، خلف حقل البطاطا ، كانت تلك الزريبة تنتصب زمنا ما . اما الان فقد تناهض مكانها تل ثلجى ابيض ، برز متحدبا عليه شىء ما غامق فى بضعة اماكن ، اهى جذوات لم تحترق تماما ؟ والى جانب غير بعيد ، بالقرب من اغراس شجيرات التفاح الفتية ، حيث كانت ثمة تكعيبات ، تكومت ايضا تحدبات مهالة بالثلج يتوسطها موقد نصف مهدم مستباح بخراقة . وحيث كانت السقائف منتصبة هناك لم يكن مفهوما اذ لم يبق ثمة قيامة لقائم .

ظل ريباك لحظة واقفا بالقرب من السياج ، والسباب الذى لم يفصح عنه بعد جامد فى روحه ، دون ان يستطيع تصور فورا ماذا جرى هناك . ومن دون وعى برزت امام ناظريه صورة هذا المسكن البشرى قبل فترة وجيزة ، بطيب العيش الفلاحى البسيط فيه : كان ثمة البيت ، المدخل ، الموقد الكبير المتسخم الذى كانت العجوز ميلانيا تطبخ فيه الفطائر من البطاطا . اما هم فقد جلسوا بعد غداء جيد على سطح الموقد ، وقد نزعوا جزمهم

وراحوا يلاطفون الضحاكة لوبكا التى ضيفتهم بندق غابة – وها هى امامهما الان بقايا البيت المحروق .

– اوغاد !

تغلب ريباك على تسلبه ، تخطى عارضة للسياج وسار عبر الباحة نحو الموقد ، الذى غطته قبعة من الثلج الطرى ، كان ذلك غريبا جدا ، ان يرى ثلجا يغطى موقدا ، بهذه الطبقة السميكة التى رزحت عليه حتى ختمت فوهته . لم تكن ثمة مدخنة له بعد ، يبدو انها انهارت وقت الحريق ، ولم يبق الان سوى اكوام شعثاء تناثرت مع الحطام الذى اكلته النيران ، مقبقبة تحت الثلج .

خلال هذا الوقت اقترب سوتنيكوف خلفه ، وقف قليلا بصمت ، ثم ابتعد على الثلج الناصع للباحة الخالية الى خرزة البئر ، كان البئر هو الوحيد هنا على ما بدا مما لم يصبه اذى من الاجتياح المتصرم منذ وقت قصير . كان الشادوف غير محطم هو الاخر ، خطافه المرفوع الى اعلى اهتز فى الريح الباردة بهدوء . ضرب ريباك غضبا بجزمته سطلا مثقبا خاليا ، دار حول عربة محطمة بلا عجلات ، كاد الثلج ان يخفيها تحته ، لم يعد ثمة شىء هنا يعين على الحياة ، وما لم تبتلعه النيران ، تلاقفته ايدى الناس ربما منذ زمن بعيد . لقد احترقت الديرة ولم يبق فيها احد ، بل لم تبق اثار لقدم انسان ، غير ما خلفه الذئب ، وراء السياج . . . لعل الذئب ايضا كانت له نواياه فيما تسلل بدوره الى هذه الديرة المشؤومة .

قال ريباك باسف وهو يعود الى البئر :

– واذن جئنا نتمون !

– احد ما خان .

اعقب سوتنيكوف ، عند البئر ، ببحة . كان يختض من البرد بشكل ملحوظ متكئا بجنبه على البئر ، وعندما كان السعال ينقطع يُسمع صدره يخشخش بهدوء ، وكان ايقاعه لم يضبط جيدا . سكت ريباك ، ثم دفع يده فى جيبه ، وجمع من بين الاطلاقات حفنة من حبوب الجودار المسلوقة – بقايا وجبة اليوم .

– هل تريد ؟

مد صاحبه يده له دون اهتمام كبير ، فأهال له فيها مما لديه . ثم راح كلاهما يمضغان بصمت ، الذرات الناعمة الباردة .

يبدو ان سوء الحظ بدا يطاردهما بجد ، وفكر ريباك ان سوء الحظ هذا كف عن ان يكون مجرد مصادفة . بل ان الالمان كما يبدو قد ضيقوا الخناق ، على فصيلتهم كما ينبغى . لم يكن مهمّا ان ظلّا هما جائعين ، فما اقلقه اكثر فكره حول اولئك الذين يتجمدون الان فى المستنقع . لقد انهك الناس اسبوع من المعارك والهرب فى الغابات ، واضناهم العيش على البطاطة وحدها دون خبز ، علاوة على اربعة مجروحين ، حُمل اثنان منهم على نقالات وراءهم والانكى ان الشرطة والجندرمة احاطت بهم مطوقة بشكل لا منفذ فيه . وفى الوقت الذى كانوا يخترقون فيه الغابة فكر ريباك ان هذا الجانب من المستنقع قد يكون ما يزال مفتوحا ، فيفلحون بالمرور الى القرية ، وفى اسوا حال الى الديرة . الا ان املهم بهذه الديرة قد انهار ، واما بعد فكانت هنالك بلدة على مبعدة كيلومترات ثلاثة تضم حامية للشرطة تحيطها الحقول والبرارى . فليس لهم طريق الى هناك .

بعد ان انتهى ريباك من مضغ ذرات الجودار التفت نحو سوتنيكوف قلقا .

– واذن ، كيف حالك ! اذا لم تكن على ما يرام عد الى الجماعة . اما انا فلعلى اعرج على القرية الاخرى .

– وحدك ؟

– وحدى ، وماذا ؟ لا يمكن الرجوع بيدين خاليتين .

كان سوتنيكوف يقضقض من البرد الذى راح يلذع بشدة اكثر مع تزايد هبات الريح . ولكى يحتفظ ببقايا الدفء كان يحشر يديه المتجمدتين فى ردنى معطفه العريضين عميقا .

قال ريباك لائما :

– ماذا دهاك لم تحصل لك على قبعة دافئة ، ايمكن لهذه القلنسوة ان تغنى عن برد ؟

– القبعات لا تنمو فى الغابة .

– ولكن الرجال لهم قبعاتهم فى القرية .

اجاب سوتنيكوف بعد برهة :

– وماذا ؟ هل انتزعها من احدهم ؟

– وليس بالتاكيد ان تضطر لانتزاعها ، يمكن الحصول عليها بطريقة اخرى .

– حسنا ، هيا لنذهب .

قطع سوتنيكوف الحديث .

تسللا عبر السياج فاصبحا فى الحقل فى الحال . واحدودب سوتنيكوف ودفن راسه ، وقد بدت صغيرة داخل القلنسوة ، فى الياقة ، ومضى محاولا صد الريح بظهره فى مشيته . اخرج ريباك من مكان ما فى عبه منشفة قذرة الى حد انها بدت خرقة قدم ، نفضها ، والتفت الى سوتنيكوف :

– خذ ، لف بها رقبتك ، ستشعر بدفء اكثر .

– لا داع . . .

– خذ ، خذ ! والا فستتجمد وتموت !

توقف سوتنيكوف دون ارادة ، ضغط بندقيته بين ركبتيه ، ولف باصابعه المتجمدة الملتوية المنشفة كيفما اتفق حول رقبته . فقال ريباك مرتاحا :

– عظيم ! اما الآن فهيا بنا الى غوزاكى . امامنا زوج من الكيلومترات لا اكثر . سوف نحصل على شىء ما ، لا بد من ذلك . . .

٢

كان البرد فى الحقل اكثر شدة مما فى الغابة ، هبت فى وجهيهما ريح غير قوية ، لكنها قارسة مهذارة ، تلسع الايدى المتصلبة الخالية من القفازات حتى الالم . ومهما حاول سوتنيكوف اخفاء يديه ، مرة فى جيبيه ، مرة فى ردنيه ، واخرى فى عبه ، فقد كانتا تتصلبان بردا . وكان من الممكن ان يتجمد الوجه ، بخاصة الاذنان ، اللتان قام سوتنيكوف بدعكهما بجوخ ردن المعطف وتغضن وجهه الما ، بينما لم يكن يخشى شيئا على قدميه ، فهما يتدفآن فى الحركة ، وفى الحقيقة فقد فقَدَ الاحساس اصبعان فى

يمناه ؛ ولكنهما كانا يفقدانه في البرد دائما وفي الدفء كانا يوجعانه عادة . الا ان كامل بدنه المضروب بنزلة برد في هذا الزمهرير المعذب كان يئن عليه ، واليوم بدأت الحمى عنده تتصاعد اضافة لكل هذا .

حسن ان الثلج في الحقل كان صلبا كفاية ، ولم يكن عميقا جدا . كانا يسيران على سطح الثلج دائما تقريبا ، الا في بعض الاماكن حيث كانت تهوى هذه القدم او تلك فتكسر قشرة الثلج التي صلبها الزمهرير . حافظا بعد ذلك على سيرهما بمحاذاة حشائش طفيلية نمت على التخوم متوجهين مع المنحدر الى اسفل ؛ وقد خلفا صفين غير منسجمين من الاثار امتدا في الغسق وراءهما . كان الحقل اكثر نورا من الغابة ، وقد تباعد الغسق الكالح الى آفاق ابعد ، وكانت سيقان الاعشاب الطفيلية المتجمدة الجافة ترتعش من الريح حولهما على الثلج . وعلى الجانبين كانت شجيرات متوحدة تبين هنا وهناك . وبعد مضى ربع ساعة ظهر حرش ما امامهما في الوهدة ، لعله اشجار صفصاف او حور رومي بحذاء نهر .

شعر سوتنيكوف بنفسه على اتعس حال : رأسه يدور ، بين حين وحين يغيب عن وعيه . فكان ينسى لوهلة اين هو ، ومن معه ، لربما كان الافضل ان يعود حقا ، بل ان يبقى على العموم في الغابة ولا يغادرها بهذه الحال ، ولكنه لم يفكر اطلاقا باحتمال ان يمرض بجد ، اى مرض ورحى الحرب تدور ، ومن مرض بشكل اعفى معه عن مهمته ؟ وعلى الاخص عن مهمة بسيطة كهذه . سعلوا ، اصابهم البرد ، ولكن الاصابة بالبرد لم تكن لتعتبر في الغابة مرضا يقعد . وعندما نادى الآمر عليه هناك ، عند النيران في المستنقع ، بلقبه ، لم يفكر سوتنيكوف بالمرض . وبعد دقيقة ، اذ عرف ان عليهما الذهاب للحصول على تموين ، شعر حتى بشيء من الفرح ، لانه كان جائعا طيلة هذه الايام ، علاوة على ان امكانية التدفؤ ساعة في بيت من البيوت كانت قد اغرته ايضا . وها هو يتدفأ .

في الغابة كان حاله افضل رغم كل شيء ، اما هنا في الريح فقد شعر بنفسه ليس كما يرام ، بل انه خشى ان تخونه

قدماه ؛ ما اشد دوران الراس ، وبسبب الوهن فهو يتارجح من جانب الى اخر .

– ها ، كيف الحال ؟

التفت ريباك متوقفا ، منتظرا اياه ، وقد شعر سوتنيكوف لهذا السؤال البسيط ، الذي لم يكن ضروريا الاجابة عليه ، بدفء بين جوانحه . اكثر ما كان يخشاه ان يتحول الى عبء على صاحبه ، رغم انه كان يعرف انه اذا ما حدث ما لا تحمد عقباه ، فانه وحده كفيل بنفسه . ولا عليه ان يوقر على غيره ، حتى على ريباك ، الذى بدا وكان بالامكان التعويل عليه . بعد عبور الطريق العامة المنصرم قبل فترة وجيزة ، وعندما كان يغطيان بقايا مجموعتهما ، شعرا بقربهما الى بعض بطريقة ما ، فظلا طيلة الايام الصعبة الاخيرة قريبين الى بعض ، ولعلهما لهذا السبب بالذات اختيرا لتنكب هذه المهمة دون غيرهما .

– ها نحن نجتاز هذه الوهدة . وهناك ، خلف التلة ، سوف نجد تلك القرية . لم يبق الكثير .

حاول ريباك بذلك تشجيع سوتنيكوف ، مبطئا خطوه كي يسير الى جانب صاحبه .

لحق سوتنيكوف به ، وسارا سوية على المنحدر . الثلج هنا اكثر عمقا مما على التلة فكانت اقدامهما تهوى اكثر فاكثر في قشرته الجامدة الخفيفة . الهلال ينير الان خلف ظهريهما . الريح تتجول بهبات قوية في الحقل المغمور بالثلج ، رفارف معطف سوتنيكوف القصيرة تهفهف على ركبتيه المثلجتين .

التفت ريباك فجاة نحو رفيقه وساله :

– طوال الوقت كنت راغبا ان اسالك : اى رتبة كنت تحمل في الجيش ؟ يبدو لي انك لم تكن جنديا عاديا ، ها ؟

– قائد بطارية .

– واذن فقد مشيت قليلا ايها المدفعي . اما انا فطوال الوقت في المشاة اسير .

– وهل سرت بعيدا ؟

سال سوتنيكوف متذكرا طريقه نحو الشرق . ولكن ريباك فهم ذلك بطريقة اخرى .

- كما ترى . من رئيس عرفاء الى جندى عادى وهل انت من كوادر الجيش ؟
- ليس تماما . حتى عام تسعة وثلاثين عملت فى مدرسة .
- يعنى ، متخرج من معهد ؟
- مدرسة المعلمين .
- اما انا ، فلم انهِ غير خمسة صفوف . . . و . . .

لم يكمل ريباك كلامهَ ، فقد زلت قدماه فجأة وغرقتـــا فى الثلج ، لعن بصوت غير مرتفع ، وتنحى الى جانب قليلا . بدات هنا احراش الصفصاف والقصب فى الامتداد ، اصبح الثلج اكثر هشاشة ، ولم يعد ساندآ تقريبا ؛ لكأن مستنقعا يترجرج تحت القدمين . توقف سوتنيكوف مترددا ، يختار موضعا لقدمه .

- ورائى ، سر . ورائى ، على اثارى ، هكذا اسهل .

قال ريباك ذلك على مبعدة وتحرك شاقا الكثبان ببدنه بعزم .

ظلا يجتازان الوهدة العريضة بين الشجيرات زمنا . ثم خرجا من كثيب القصب المتجمد ، كان يخشخش حولهما بصخب شديد ، واجتازا جدولا مهالا بالثلج ، ثم ســارا على المرج من جديـــد مخوضين باقدامهما فى الثلج الهش العميق . كان سوتنيكوف قد استنفد قواه تماما وراح يتنفس بصعوبة ، وقد كاد ييأس من امكانية انتهاء هذه الوهدة الضحضاحة وظهور الحقل من جديد . واخيرا ، خلفا الكثيب وراءهما ، وامتد امامهما منحدر غير حاد ، الثلج اصبح اقل ثمة ، ولكن السير صعدا لم يكن سهلا كمـــا اتضح ، والتعب راح يتغلب على سوتنيكـــوف اكثر فاكثر ، وتنامت فى نفسه لامبالاة غريبة تجاه كل ما فى الدنيا ، وليس الا التصميم الشديد جعله يتحرك ، ولا يسقط ارضا ، وفى اذنيه طنين ملحاح مبعثه الريح او الوهن ربما .

اصبح الحال سيئا تماما فى منتصف المنحدر الطويل ، لقد بدات ساقاه تخاذلانه . حســـن ان الثلج هنا كان قليلا ، وفى بعض الاماكن كانت الريح قد كنسته ، فكان سوتنيكوف يشعر انذاك تحت قدميه ، بطين وتراب الارض العارية . وكان ريباك قد تقدم الى الامام بعيدا ، يبدو انه يحاول الوصول الى القمـــة لالقاء نظرة حوله . ولعل القريـــة ستظهر عما قريب ، هذا ما

ينتظر . ولكن ، وقبل ان يصل القمة ، توقف . بدا لسوتنيكوف ان صاحبه قد راى هناك شيئا ما ، ولكن لم يكن يستطيع ان يتبين ذلك جيدا من هنا ، كان التل المغطى بالثلج يرتفع نحو السماء المتلاصفة بالنجوم ، ويذوب فى مكان ما هناك ، مختفيا فى زرقة الليل الباهتة . وكان السهـــل الرمادى الكالح ينداح وراءهما الآن عريضا واسعا بصف متقطع من الكثبان ، وثمة بقع داكنة لظلال سابحة ، وبعيدا هناك غرقت تلك الغابة التى خرجا منها ، فى العتمة حيث تكاد لا تبين من هنا . لقد اضحت تلـــك الغابة بعيدة حقا ، وما حولهما حقل ليلى جامد تعرى فى الزمهرير ، فاذا نبّ حادث لا يمكن التعويل على شىء .

كان ريباك ما يزال واقفا ، مشيحا بوجهه عن الريح ، عندما اقترب سوتنيكوف منه بطريقة ما . وكان قد تخلى عن اقتفاء اثر صاحبه ، وسار حيثما اتيح له ، محاذرا من السقوط ، واذ اصبح على مقربة منه راى فجأة : ريباك ينتصب على اديم الطريق .

لم يقل احدهما للاخر شيئا ، فقط راحا يتنصتان ، ويتفحصان ما حولهما ، ثم صعدا ببطء احدهما على الحافة اليمنى ، والاخر على الحافة اليسرى للطريق ، يبدو انها كانت تؤدى الى القرية . واذن ، لعل الوصول اليها قبل الخور على الطريق ما يزال ممكنا . حولهما ، ذلك الفضاء الليلى الغامض ، الحقل الرمادى ، الثلج ، الغسق وكل ما فيه من ظلال وبقع عديدة تارة داكنة وفاتحة تارة اخرى ، وليس فى اى مكان ، ثمة بصيص من نور ، او نامة متحركة . فقد اخرسَت الارض ، وجمدت ، وتسترت فى نفسها ما امكن .

- قف !

قطع سوتنيكوف خطوه وجمد ؛ صر الثلج تحت جزمتيه لحظة ثم هدا . جمد ريباك الى جانبه دون حراك . تناهى صوت مبهـــم اليهما من مكان ما تؤدى اليه الطريق ، مقطع من نداء مكتوم ، انقذف فى الليل القارس ، وتاه فيه . قلبّـــا النظر فى العتمـــة مستوفَزين ؛ غير بعيد ، فى منخفض ، ثمة ما يشبه قرية ، شريط مشرشب لاشياء جسيمة يهفت لونه قليلا فى الغسق الكامد ، الا انه لم يكن هناك ما يمكن التأكد منه تماما .

امعنا النظر دقيقة متخشبين على الطريق ، لم يكن فى وسعهما

فهم ما اذا كان الصوت او الصيحة حقيقة ام وهما تراءى لهمـــا ، وكانت الريح توشوش حولهما بين الاعشاب الجافة وتصفر ، والليل يهيمن على الكائنات بقرسه وخرسه . وفجاة ، تناهت ، من جديد ، صيحة آدمية ، اوضح من ذى قبل ، امر او شتيمة . ثم نبا طلق نارى محق كل شكوكهما دفعة واحدة ، تردد من البعد وتصادى فى الافق ، وجعجع عبر الحقل .

زفر ريباك متخففا وقد فهم شيئا ما كما يبدو . اما سوتنيكوف فقد بدأ يسعل فجأة لامساكه بانفاسه ربما فترة طويلة .

ظل السعال ممسكا بتلابيبه بعض الوقت رغم محاولاته اخماده ، مواصلا التنصّت ما اذا كانت اصوات جديدة تتناهى اليهما ، وفى الحقيقة فقد اصبح مفهوما من غيرها مصدر تلك الفرقعة ، فمن يجرؤ فى هذا الوقت على اطلاق النار فى القرية غير الالمان او خدمهم ؟ واذن فطريقهما فى هذا الاتجاه مسدودة ، وعليهما التراجع الى الخلف .

الا انه لم يكن ثمة مزيد من اطلاق النار ، دفدفت الريح مرتين اختلاجة ما شبيهة باصوات آدميـــة . كلام ، شتائم ، لم يكن ذلك واضحا . بصق ريباك خلل اسنانـــــه على الثلج لاعنا ، وطرح انتظاره :

– ينهبون الاوغاد ! من اجل المانيا العظمى .

وقفا برهة اخرى يتنصتان لحفيف الريح وقد اقلقهما سؤال : ما العمل بعد ؟ الى اين يوليان وجهيهما ؟ وكان هناك مـــا يعول عليه استأنف ريباك النظر نحو ذلك الجانب الذى اختفت فيـــه الطريق فى العتمة ؛ اما سوتنيكوف الذى استدار عن الريح فقد المت به البرداء وراح يختض قليلا .

– واذن فليس عندنا ما نفعله هنالك ايضا – قرر ريباك ذلك وراوح مرتبكا على الثلج الذى يصرّ تحت قدميه – كيف حالك ، لا باس ؟ لعلنا نقطع هذه الوحدة ، ماذا تقول ؟ فى مكان ما هناك ، يتخطر لى ثمة قرية صغيرة اخرى .

– هيا .

وافق سوتنيكوف بايجاز ، ونفض كتفيه بردا ، كان لا يهمه الى اين المضى فقط الا يظلا واقفين فى هذه الريح الجفول الخارمة . كانت حواسه قد تبلدت تماما كأنه غارق فى النعاس وراسه دائخا

11*

كما من قبل . وكل قواه يصرفها الآن لكى يجنب نفســـه التعثر والسقوط والا فانه ما كان بمستطاعه انذاك ان ينهض .

تحولا عن الطريق واتجهـــا على الارض المغطاة بالثلـــج الى هناك ، حيث دكنت بقع الكثبان العريضة . وكان الثلـــج على المنحدر ناعما فى البداية يصل حتى الرسغين ، ولكنه سرعان ما كان يزداد عمقا ، بخاصة فى منخفض الوهدة . ولحسن الحظ فهذه لم تكن واسعة جدا ، فاجتازاها بفترة وجيزة ، الكثبان الغابية ، ولكنهما لم يقتربا منها كثيرا . كان سوتنيكوف لا يفقه شيئا فى اماكن هذه المنطقة ولذلك اعتمد كليا على ريبـــاك الذى خبرها منذ الخريف عندما لم يكن الثلج يغطيها وعندما كانت مفرزتهم تجمع قواها عند مستنقع غوريلويه . كانت المفرزة قد بدات نشاطاتها بهجمات على الطريق ، ثم تحولت الى عمليات اكبر فيما بعد ، كتفجير جسر على نهر ايسليانكا ، وحرق معمل للكتان فى البلدة ، الا ان الذعر اصاب المحتلين عندما قتل موظف المانى كبير . وفى نهاية نوفمبر احاطت ثلاثة فصائل جندرمة بمستنقع غوريلويه وبدات التمشيط ، بحيث كادت المفرزة ان لا تفلح فى الافلات ، واللجوء الى غابة بوركوفسكى المجاورة .

كان سوتنيكوف انذاك بعيدا عن هنا ، ومن المستبعد انه كان يفكر بالانصار ، وقد قام بالمحاولة الثالثة للنفاذ عبر خط الجبهة للحاق بالجيش الاحمر دون ان يخطر بباله احتمال بقائه خارج صفوف الجيش . اثنا عشر يوما قطعها من مشارف سلونيم نحـــو الشرق ، بصحبة مجموعة صغيرة من المدفعيين ، تبقت من الفرقة المدفعية التى كانت حينا ما جد قوية . الا ان الجميع تقريبا اصابتهم نيران الكمين اثناء عبور نهر بيريزينا ، اما من سلم ولم يغرق فقد وقع فى اسر الالمان . ومن بين هؤلاء الاخيرين كان سوتنيكوف ، لحسن حظه او سوئه .

نعم كانوا شبابا ممتازين ، مدفعيو بطاريتـــه ، وكذلـــك الاستطلاعيون القناصون ، المراسلون . لم يكن يحصل معهم طيلة العام الا على درجة «ممتاز جدا» وتشكرات الرآسة على استعدادهم الحربى ، ودقة اصابتهم للاهداف ومهارتهم اثناء التمارين للفرقة والجيش والتمارين الاستعراضية . يتوقعون انهم فى حال نشوب الحرب

سيحققون الانتصارات الباهرة ، وسيمنحوهم الاوسمة وستكتب الصحف عنهم ... هذا ما كانوا يستعدون له وينتظرونه ويستحقونه بكل التاكيد اكثر من غيرهم .

اما فى الحرب فقد كان الامر مختلفا تماما ، حدث للبطارية ان لم يتوفر لها من الوقت الا لحظات معدودات ، فكان الفلاح يصيب ذلك الذى استطاع ان يحدد هدفه اسرع ، يعمر سلاحه اسرع ، اى من تبدى عن فراهة ببساطة ، ولم يرتبك ، وقت كانت يداه هو نفسه ، ترتعشان .

كان ريباك يسير امامه واثقا بمحاذاة طرف الغاب . وتأخر سوتنيكوف من جديد وجزمتاه القديمتان المصنوعتان من الجوخ ، اللتان حصل عليهما قبل فترة وجيزة من احد الانصار المحليين المقتولين ، كانتا تخشخشان بانتظام فى عصيدة الثلج . كان طريقهما يمتد نزلا الى اسفل ، والريح تدفعهما فى ظهريهما ، والهلال يلمع بقنوط وارتخاء فى قبة السماء . والبرد والعصف ما زالا كما كانا من قبل ، فتخشب داخل سوتنيكوف وقرقف بسبب القرس ، وبدا وكأنه لم يمر ابدا فى حياته بمثل هذا البرد الماحق لهذه الليلة من ليالى شباط . لقد ملأ التعب ورتابة هذر الريح الراس بالضجيج ، واحابيل الافكار العابرة ومقاطع مبهمة من عبارات واحاديث غابرة . وكان شيء ما من ماضيه يطل احيانا بوضوح خلل الافكار القنوطة الكدرة .

الأسوا من كل هذا بالنسبة الى سوتنيكوف ، ان هذه المعركة كانت الاولى والاخيرة فى الجبهة استعد لها خلال كل خدمته فى الجيش . وللاسف ، فان هذه المعركة المشؤومة قد برهنت مرة اخرى على صحة الواقع الدامغ ، الذى غالبا ما يجرى تجاهله ، وهو ان استيعاب خبرة الحرب الماضية لا يشكل مصدر قوة الجيش وحسب ، وانما يشكل ايضا ، اغلب الظن ، مصدر ضعفه . فلعل طابع كل حرب تالية لا يتشكل من الخصائص النموذجية الملازمة للحرب السابقة بقدر ما يتشكل من مفاجآتها واستثناآتها التى تجاهلوها او لم يلحظوها ، وذلك ما يسفر عن الانتصارات وعن الهزائم على حد سواء . وللاسف ، فقد فهم سوتنيكوف هذا بوقت جد متاخر بالنسبة اليه ، حيث اصبحت دروس علم الجبهة القصير غير

نافعة له ، وغدت قوة بطاريته حطاما من المعدن تكوم على الطريق العامة المرصوفة بالحجارة قرب سلونيم .

كل هذا يبدو له الان كابوسا قظيعا ، ورغم مرور سوتنيكوف بمحن قاسية اخرى فيما بعد ، الا ان هذه المعركة الاولى لن تمحى من ذاكرته ابدا .

. . . قافلة الفرقة الصاخبة تجرجر نفسها على الطرق الغابية والقروية اليوم الرابع نحو الغرب ، انعطفت نحو الجنوب فيما بعد . ولم تقطع القافلة عشرة كيلومترات حتى اداروها الى الشمال . كانت جراراتهم بهديرها الصاخب المتواصل تغطى على كل ما عداها ، ومن الاحتراق غلت المياه فى الرادياتيرات ، فيما تناهب الغبار والعرق وجوه المقاتلين . ومن الصباح الباكر حتى العتمة تخاطفت الطائرات الالمانية السماء فوقهم ، واهالت الـ«يونكرس» * على القافلة القنابل دون انقطاع . كل شىء كان مختلطا على الطريق بالرمل والتراب . الساحبات تشتعل وتصدر دخانا نتنا ، وما سلم منها تتجاوزها دون توقف ، لم تكف القافلة عن الحركة . والمقاتلون يصوبون من مساند المدافع نيران بنادقهم الى اعلى دون انتظام . ولم تكن ثمة فائدة ترجى من اطلاقهم النار بهذا الشكل . فهم لم يستطيعوا حتى اجبار الطائرات على التحليق عاليا ، وكانت هذه تغير فوق الطريق ، تكاد تهرس باجرامها اعالى الاغراس .

كان سوتنيكوف يجلس فى الجرار الامامى قاطرا به ، منتظرا صدور الامر بالتحرك عن هذه الطريق الملعونة وكان فى ذلك خلاصا او سعادة كبرى له وذلك للاستدارة باى اتجاه . كان يمكن لسوتنيكوف ان يصب على رأس العدو من النيران ما لم يره حتى فى احلامه الجحيمية ولكن لم يكن هنالك حتى امر بالتوقف ، والفرقة تمضى ، وتمضى ، وكل ساعتين تظهر فوقهم الـ«يونكرس» والـ«هاينكل» الداعرات ، وتحتها كل هذه القوة النارية عاجزة .

هكذا بدات آخر ليلة لتيههم على طرق بيلوروسيا الغربية . لم تعد الفرقة مقتدرة كما كانت فى البدء فقد استشهد عدد من الطواقم ، واصابت احدى القنابل تماما مدفعا من مدافع بطاريته وحطمته كليا

* «يونكرس» و«هاينكل» نوعان من قاذفات القنابل الالمانية . **المترجم** .

على الطريق . كانت هناك ثلاثة مدافع فى الحقيقة ما تزال سليمة ، فما هو شأن انبعاجات على الابدان وتمزقات فى العجلات والعديد من الخدوش الخشنة على السبطانات والمساند . اربعة من شهداء البطارية على صناديق الذخيرة فى شاحنة نقلوا ، واحيل سبعة من الجرحى الى المؤخرة . ولكن كل هذا لم يكن اكبر خسارة تعرضوا لها . ففى بطاريات اخرى كان الحال اسوأ . وكادت قافلة الفرقة ان تختصر الى النصف تقريبا ، بينا ظلت بعض المدافع على الطريق ، فالجرارات المتضررة لم تستطع سحبها ، ولم يكن ثمة احتياطى من الجرارات . اما الان فقد راحوا يتحركون طيلة الليل تقريبا نحو الشرق ، وكان فى هذا علامة شؤم : اثناء تدخين رئيس اركان الفوج سيكارة من علبته لمح الى التطويق ، وكان ذلك شبيها فعلا بهذا الامر . لم ينم المقاتلون الليلة الرابعة ، وغفى بعضهم جلوسا على مساند المدافع فى بكرة الصباح ، كان الليل اهدأ الفترات لولا هذا الوضع الغامض الذى تعلق كنطع اسود فوق الرؤوس . سمحوا قبيل الفجر بتوقف قصير فى قرية ما . كان المشاة قادمين من الاتجاه المعاكس ؛ غير بعيد ، تراءى فى الليل ، ساطعا ، بين اللهب المالئة السماء ، شىء ما احرقته الطائرات ، قيل انها محطة . لم يوضح لهم احـــد شيئا ، يبدو ان رئاسة الفوج كانت لا تعرف اكثر مما يعرفـــه المحاربون . ولكن الناس تحسسوا بالغريزة ان الالمان على مقربة شديدة . سرعان ما حرف قائد الفرقة الميجر باراخنيفيتش القافلة الى جانب الطريق المحاطة بالصفصاف . وقطروا بمعداتهم الى مكان ما فى الجنوب . كان الليل هادئا من غير طائرات ، ولكنهم كانوا عميان طرشين ؛ اذ لم يكن بالامكان سمـــاع شىء وراء هديـــر الجرارات ، وفى عتمة ليل الصيف لا يمكن رؤية الكثير . لم يستطع سوتنيكوف قبيل الفجر التحامل على نفسه بعـــد فغفى فى مقعده ، لينتزعه من نومه انفجار داو على حافة الطريق . انهمرت الاتربة وموجة الانفجار الساخنة على سوتنيكوف ، وهب فى الحال لان جراره مال يمينا بشدة اذ اصيب جنزيره الايمن وهنا انفثـــأ غضب السماء . . .

كان الفجر ينبثق وازرقت حافة السماء بشدة خلف الصفصاف ، وارمد حقل الشوفان . ومن مكان ما فى المقدمة ، عند راس القافلة ،

بدات الدبابات الالمانية تطلق نيرانها عليهم . لم يكد سوتنيكوف يفلح بالقفز من الجرار ، حتى اضطرمت النار بساحبة البطاريـــة الثالثة ، وتداعى مدفع هوتزر فى حفرة قذيفة . فاصدر امرا للبطارية بالتوزع الى اليمين واليسار وقد اصمّه دوى الانفجارات القريبة ، ولكنه لم يكن من السهل الاستدارة فى طريق ضيقة مع المعدات الثقيلة . اما الطاقم الثانى فقد ارتمى عبر الساقية الى حقـــل الشوفان ، فتلقى فى الحال قذيفتين على الجرار ، وانقذف الهوتزر رافعا عجلاته الى اعلى . انير الصباح باللهب الساطعـــة للجرارات المشتعلة ، وغطى الاغراس الدخان الاسخم . كانت الدبابات الالمانية تطلق النيران نحو الفوج على الطريق .

كان هذا اسوأ ما يمكن ان يحدث – ان يهلكوا ، فيما تظل كل قوتهم النارية دون استعمال تقريبا . واذ فهم سوتنيكوف ان ثوانى معدودات اتيحت لهم ، ادار مع الطاقم وسط الطريق آخر هوتـــزر سلم من النيران كيفما اتفق ، واطلق قذيفة ثقيلة ما ان افلـــح بانتزاع غطاء السبطانة الواقى دون ان يثبت المساند . لم يكن ممكنا فى البدء تخمين مكان تلك الدبابات : المعدات الاماميـــة فى راس القافلة كانت تحترق والمحاربون الذين سلموا راحوا يجرون منها الى الخلف : الدخان والجرارات المعطوبة على الطريق ، كانت تعيق الرؤية والتصويب . الا انه استطاع بعد نصف دقيقة ان يرى رغم ذلك بين اشجار الصفصاف اول دبابة المانية ، كانت تزحف ببطء خلف الساقية ، ادارت سبطانتها وراحت تفرقع الاطلاقات بالقافلة . ازاح سوتنيكوف المُنَشّن (كان المدفع معبأ من قبل) وامال كيفما اتفق سبطانة الهوتزر السمينة بيديه المرتجفتين حتى واسط اخيرا ذلك الوحش الباهت اللون فى الضباب الخفيف الصباحى فى مركز تقاطع شبكة التصويب .

هدرت اطلاقته كانفجار الرعد ، وارتد مدفع الهوتزر بقوة الى الوراء فضرب جهاز التصويب وجنة سوتنيكوف بشدة ؛ بينا تطاير الشرر من الاحجار تحت دعائم المدفع غير المثبتة بعد ، فيما انخلع احد المساند عميقا وانقذف الى جانب الساقية ، وظل الاخر عـــلى الطريق . لم يكن قد افلح بعد برؤية شىء وسط الغبار الذى اثاره الاطلاق ، ولكنه سمع كيف صاح المنشن بفرح ، ففهم انه قد اصاب الهدف . تحول مرة اخرى فى الحال الى شبكة التصويب ، فوجد دبابة

ثانية تتحرك جنب الطريق ، تكاد بهيكلها تملأ كل شبكة التصويب . فسدد سوتنيكوف سبطانة الهوتزر فى جبهتها الرمادية الكالحة - كانت قريبة كانها تلامس شبكة التصويب . - وصاح : «نار !» . استطاع الجندى القفّال ان يتدارك امره فى الوقت اللازم ، واصمّ الاطلاق اذنيه ثانية ، الا انه افلح هذه المرة بالتنحى قليلا عن شبكة التصويب فراى عبر الغبار ، امام السبطانة ، ما كان دبابة قبل لحظة قد قرقع كقشرة بيضة ، ومن الانفجار الداخلى العنيف ، تطايرت اشلاء الدبابة الضخمة فى كل الاتجاهات . لقد حول الهوتزر الرصيف ، الثقيل ، المخصص للرمى من المؤخرة البعيدة ، بضربته الماحقة ، الدبابة الى شذر مذر .

واستولت عليهم فجاة حمية النجاح فى المعركة ، ومن دون الالتفات الى الخسائر والقتلى ، والجرحى النازفين دما ، المحتضرين المتشنجين على ارضية الطريق المرصوفة بالحجارة ، الغارقة فى الغبار ، والى النيران الملتهمة معداتهم ، وكذا وابل الرصاص المنهمر من هناك ، من الدبابات الالمانية ، بدات عدة طواقم المدافع السليمة فى خوض معركة غير متكافئة مع دبابات العدو . وخلال هذا الوقت كان الفجر قد انبلج تماما واصبح من الممكن رؤية الاهداف التى ينبغى التصويب عليها ، وشوهدت حرائق تلتهب عبر الطريق داخنة ، انها معدات المانية .

اطلق سوتنيكوف ست قذائف ثقيلة ، وحول دبابتين اخريين الى شذر مذر الا ان احساسا بالخطر تفاقم فى لاوعيه واشعره بان حسن الحظ على وشك مفارقته ، وان اللحظات التى منحها له القدر او الصدفة قد استنفدها تماما ، وان القذيفة الثانية او الثالثة الصادرة من الدبابات الالمانية ستكون من نصيبه . يبدو انه لم يعد ثمة احياء فى المقدمة ، اخرهم كان قائد الفوج ، جرجر نفسه من هناك ، وسقط مضرجا بدمه من سطح المسند ؛ فيما اطلق بعض المقاتلين النار من بنادقهم فى جانب الساقية مصوبيها على فتحات الدبابات . ودفن اللاقم كوغاتكوف راسه فى الارض الى جانب الصناديق ، وفى الخلف لم يبق احد . القى سوتنيكوف آنذاك بنفسه ، على اربع ، الى صندوق الذخائر ، ولكنه لم يكن قد افلح بعد بالوصول اليه ، عندما دوى خلفه انفجار مصم . القته موجة

الانفجار الشديدة الى احجار الطريق ، وغطت الطريق تماما ملاءة سوداء خانقة عدة لحظات طويلة . كان التراب والغبار قد كتما انفاسه ، الا انه شعر ، بما تبقى له من وعى ، بنفسه حيا رغم كل شىء . وفى الحال نزع الى المدفع وهو ما يزال تحت سيل نثار الارض المنهمر من اعلى ، ولكن الهوتزر كان متمددا على جنبه بلا حول عند حافة حفرة خلفتها احدى القذائف ، وقد مالت سبطانته الى جانب بفعل انفجار ، واحترق مطاط اطار عجلته ناشرا رائحة خانقة . وفهم انذاك انها - النهاية . ولكن وعيه كان ما يزال قاصرا عن فهم ما يحدث له فلم يتأكد مما اذا كان قد سلم حقا ام لا . الا انه شعر فقط : انه اصم ، لم تنفذ اصوات الانفجارات حوله اليه عبر جدران سميكة صلدة ، واختفت اصوات اخرى دفعة واحدة ، وهيمن على الراس طنين مستمر مؤلم . انبجس الدم من انفه ، خالطة القذارة على وجهه . زحف سوتنيكوف من الطريق الى الساقية فى الجانب الآخر من الطريق خلف اشجار الصفصاف . سارت ، على ما يبدو ، تلك الدبابة بالذات التى اصابت مدفعه ، متمايلة بتثاقل على جنازيرها . فرشت ريح الصباح البليلة ضفائر الدخان السوداء المرسلة من الجرارات المحترقة ، وعمت الجو رائحة الانفجارات الحادة اللاذعة ، فيما تصاعد الدخان من قمصلة آمر الفوج الذى لم يعد حيا الان ...

ظل سوتنيكوف ، ماخوذا بالهزيمة المباغتة ، ينظر بعض اللحظات الى الدبابات الالمانية تزحف عبر الطريق ، الى ارقامها وصلبانها ، بالابيض والاسود ، المرسومة على نمط واحد ، حتى جره احدهم من ردنه ، التفت ، فرأى وجه عريف بطاريته منتهبا بالسخام والدم ، صاح بشىء ما ، واشار بيده الى المؤخرة ، حيث كان المقاتلون يجرون بمحاذاة الساقية .

قفزا وهربا بدورهما فى ذلك الاتجاه ، منحنين ، راكضين خلل الدخان الجاثف على الطريق .

٣

حاذى ريباك راس الغابة حيث الاشجار غير المرتفعة ، وتوقف . امامه ، على المنحدر ، عتمت مبانى القرية بقنوط فى

فضاء الليل الاغبش . لم يعد ريباك يتذكر كيف كان منظرها من هنا : حينا ما ، فى بداية الخريف ، كانوا قد مروا ها هنا على الطريق ، ولكنهم لم يدخلوا الى القرية . ولكن هذا لم يعد يهمه كثيرا الان . الاهم ان يحزر ما اذا كان هناك المان او شرطة ، كى لا يجعل من نفسه صيدا لفخهم .

وقف دقيقة الى جانب الكثيب ، وارهف سمعه ، لم يكن هناك فى القرية ما يمكن ان يثير الريب كما بدا ، بينا تناهت بعض الاصوات الليلية الخامدة المتفرقة ، عوى كلب بكسل ، وهبت الريح كسابق عهدها بعناد والحاح ، فكان لهـا صريف هادئ فى الاغصان المتجمدة القريبة ، وضاعت رائحة دخان فى الجو فلرب احدهم يشعل موقده ، وفى هذا الوقت اقترب سوتنيكوف من الخلف ، توقف ، وقلب ايضا ناظريه فى الغلس .

– ما رايك ؟

– يبدو ان الهدوء سائد – قال ريباك بصوت واطئ – هيا لنقترب .

كان من الافضل والاقصر ان يذهبا الى البيت القريب منهما والغارق فى الثلج حتى النوافذ حيث يبتدئ الشارع ، ولكن البيت فى بداية الشارع وثمة يكمن عادة خطر كبير واحتمال بالاصطدام بمنغصات ، فالمعتاد ان ينهى الحراس والدوريات مشوارهم فى نهاية الشارع ، وهناك تقيم الشرطة كمائنها . فانحرف ريباك الى جانب عبر الثلج ، واجتازا وهدة بمحاذاة اسيجة سلكية متوجهين الى مبان غير بعيدة ، محتشدة الى بعض على طرف حقل للخضر ، متفردة عن غيرها . كان ذلك جرنا . توقفا هناك ايضا دقيقة ، وراء زاوية متصدعة لزريبة او بيدر له سقف منقب ، وتنصتا ، ثم خرج ريباك بحذر الى باحة الجرن . قام بخطوتين على الممشى الذى داست الاقدام ثلجه ، والمؤدى الى بيت صغير له حظيرة واحدة ، مائل بيتم ، ثم انحرف عنه الى الثلج فى الحال فقد انبعث صرير فاضح من الممشى تحت جزمتيه ، وتحول سوتنيكوف الى جانب فى اثره ، وسارا بمحاذاة الممشى الى البيت .

كانا ما يزالان على مبعدة من الحظيرة ، عندما تناهى طرق الى سمعيهما بوضوح وكان احدا يقتطع حطبا ، وكما لو انه يفعل ذلك

دون رغبة . قبعا فى مكانيهما فيما شعر ريباك بالفرح ، فما داموا يقتطعون حطبا فذلك يعنى الهدوء ربما يسود القرية ، واذن فليس فيها اغراب . علاوة على انه ليس بالضرورة يحتم عليهما الان قرع النافذة ، والتماس الدخول ، اذ يمكن الاستفسار عن كل شئ من قاطع الحطب . وفى الحقيقة ، فقد فكر ريبـاك فى الحال ، ان ظهوره المفاجئ قد يخيف ذلك الانسان واذا راى اغرابا ، اغلق الباب على نفسه ، وحاول انذاك جره من البيت . التف ريباك حول الحظيرة باكثر هدوء ممكن ، ثم تجاوز رؤوس الالواح الخشبية الملقاة على الثلج ، وخرج من العطفة .

قرب السياج ثمة من انشغل بحطبة فى نور الباحة الرمادى القاتم ، لم يفهم فى الحال انها امراة . ما ان سمعت وراءها وقع الاقدام حتى هتفت مذعورة .

– لا تخافى يا ام * .

ارتبكت المراة ، ووقفت امامه بقامتها القصيرة ، فبـدت متقدمة فى السن ، لفت راسها بمنديل خشن دون اناقة سميك الخيط ، لم تستطع التفوه بكلمة واحدة . نظر ريباك تحوطا الى الباب المؤدى الى الداخل ، كان مغلقا ، ولم يكن ثمة احد آخر فى الباحة كما بدا . وما يذكر انه لم يكن متهيبا جدا ، فقد كان قد استخلص مما حوله ان الهدوء متوفر فى هذه القرية . اما الشرطة فقد التفوا على الارجح حول زجاجة عرق محلى فى مكان ما ، واما الجنود الالمان فمن المستبعد ان يتواجدوا هنا .

– اواه ربى وانا التى فزعت فزعا شديدا ، اواه ربى . . .

– حسنا ، كفى رسما لعلامة الصليب ، هل الشرطة كثيرون فى القرية ؟

– ولكنهم غير موجودين ، كان هنالك واحد منهم ، انتقل الى البلدة قبل فترة . ولا احد غيره .

– هكذا – خطا ريباك فى الباحة والقى نظرة خلف العطفة – وما هو اسم هذه القرية ؟

---

* فى القرى الروسية يستعملون كلمة «ام» لمخاطبة النساء كبيرات السن احتراما . **المترجم** .

– لياسينى ، قرية لياسينى .

اجابت المراة بكامل الاستعداد والانتباه دون ان يغادرها الخوف بعد . وكانت بلطتها قد استقرت عميقا فى جذع حور محتطب ، حاولت كما يبدو جاهدة شقه نصفين .

فكر ريباك انه سيكون من الحسن ان يحصلا على الماكولات لجماعتهما فى هذه القرية ، ان المدخل والمخرج مناسبان . فى الطريق جرن ، غابة ، واذا حدث امر ، يغطيهما كل هذا عن الاعين الغريبة .

– من هناك فى البيت بعد ؟

– ليس فيه غيرى .

اجابت المراة وكانها دهشى لقصر نظر محدثها .

– لا احد غيرك فيه اذن ؟

– لا احد . اعيش وحيدة . . . رشح صوتها بنبرة شاكية مفاجئة ولم تزحزح عنه نظرتها المنتظرة القلقة ، محاولة تخمين سر زيارتهما الليلية الغامضة . الا ان هذه النبرة المذعنة المستعطفة لم تؤثر كثيرا بريباك ، فقد كان قد اكتشف لنفسه من قبل كنه هذا التصرف المتساذج من قبل نساء القرى ، فكان من الصعب استدرار عطفه . اما الان فقد راح يتدارس الموقف فى الباحة ، القى نظرة عبر بوابة الخظيرة المفتوحة على عتمتها الكالحة المشبعة برائحة الخثى .

– ماذا الحظيرة خالية ؟

– خالية .

اكدت المراة بصوت ذاو ، غير مبتعدة عن البلطة – اخذوا كل شيء .

– من اخذه ؟

– معروف من ، اخذوا منى كل شيء لاننى من امهات الجنود الحمر ، ليحل سما فى بطونهم .

نظر ريباك الى المراة هنا بتعاطف عابر سريع – ما دامت المراة قد تحولت الى اللعن فهى لا تكذب ، يمكن الثقة بها – وحمحم بينه وبين نفسه ممتعضا ، فقد فهم انه لن ينال شيئا هنا ايضا ، اذ لا يمكن قلب جيوبها على البطانة ، ذلك ما فعله الالمان بها ، وهكذا يتحتم عليهما مواصلة البحث اذن .

كان سوتنيكوف ينتظر قانطا مقوس الظهر ، عند الجدار ، خطا ريباك الى المراة :

– ماذا ، لم تستطيعى شقه ؟

خمنت المراة انه سوف يساعدها ، فاطرحت عن نفسها الحذر المتهيب فى الحال ، واعتراها السرور بشكل ملحوظ :

– اشبعته ضربا ولا ينفلق ، منذ امس وانا خائفة ان يظل هذا الجذع مستعصيا علي .

– هيا ، ساحاول !

دفع ريباك بندقيته وراء ظهره وتناول مقبض البلطة الجاف الاملس بكلتا يديه . حمّ ، وزمّ شفتيه ، وهبط بالجذع على جذع اخر بشدة ثم كرر الضربة . وكانت اصابتاه حاذقتين ، شعر بالقوة فى يديه راضيا ، والحماس المالوف منذ الطفولة ، عندما كان يقطّع الحطب هكذا لأجل الصباح ، فى امسيات الشتاء الغابرة ، لم يكن يحب نشر الاخشاب ، اما التقطيع فكان مستعدا للقيام به ، فكانه كان يجد فى هذا العمل الشاق ، غير الخالي من عطاء الرجولة ، متعة ابدية .

امتد الشق معوجا على الجذع بالضربة الرابعة ، وانهد منفلقة نصفين . ثم قام ريباك بعد ذلك بتقطيع النصفين ايضا .

– لك الشكر يا بني . ليمنحك الرب الصحة والعافية .

شكرته المراة دون ظل من تحرجها الذى سيطر عليها للتو .

– الشكر لا يغني ولا يسمن يا ام . اعندك ما يؤكل ؟

– ما يؤكل ؟ يوجد بطاطا ، حقا انها صغيرة . فاذا رغبتما ، ادخلا لاسلق لكما شيئا من البطاطا .

– هذا لا يهمنا ! نحن بحاجة الى ما ناخذه معنا ، دابة مثلا .

– اما ، دابة ! ومن اين يحصل عليها الآن . . .

– من يعيش هناك ؟

اشار ريباك بيده عبر حقل الخضر ، حيث ابيضّ ، عبر رؤوس اعواد السياج المدببة ، سقف البيت المجاور المهال بالثلج ، يبدو انهم يشعلون الموقد هناك : فقد حملت الريح الى الباحة رائحة دخان وطعام . اخبرته المراة بقلب مفتوح :

– بيوتر كاشان . المختار الآن .

— نعم ؟ مختار القرية ؟ أسمعت ؟

التفت ريباك الى سوتنيكوف الذى اتكأ على الالواح الخشبية ، واقفا بصبر عند الجدار .

— واذن ، فقد عينوه مختارا .

— فهو من الاوغاد ، ها ؟

— لا يمكن قول هذا ، انه من رجال ديرتنا .

تمهل ريباك لحظة ، وقرر :

— حسنا ، لنذهب الى المختار . فلعله اغنى منك .

لم يبحثا عن ممر الى بيته . تسللا تحت الواح السياج ، وعبرا حقل خضروات ممتلئ بقشور البطاطا والرماد ، ثم نفذا عبر فتحة فى سور قديم الى باحة المختار .

كان النظام هنا اكثر مما فى الباحة المجاورة ، وعناية المالك تتبدى فى كل شىء ، الباحة محاطة من ثلاث جهات بمنشآت : بيت ، زريبة ، وسقيفة ما بسيطة ؛ وعند المدخل تنتصب عربة زالقة فيها بقايا قش — شاهد موثوق على وجود صاحب البيت فى ملكه ، تحت سقيفة الزريبة اكوام من اخشاب مشذبة منجورة ، مرصوصة ، معدة للاستعمال .

عندما عبرا حقل الخضروات لاحظ ريباك فى النافذة المغطاة بالجَمَد ذوب نور شاحب ، ثمة نفطية ربما ، والآن راح ريباك يخطو بثقة على درجات العتبة المصرصرة تحت قدميه .

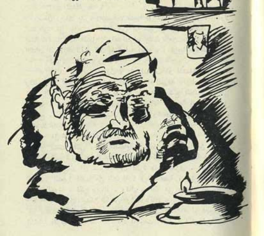
لم يطرق الباب — لم يكن مقفلا — وكان من السهل عليه ، هو ساكن القرية ، معالجته ببساطة ، ادار اكرته ربع دورة ، فصرّ الباب بهدوء ، وفتحه . عبر الى المدخل المظلم وشم الرائحة الفلاحية الكثيفة الراسخة ، نصف المنسية ، ومرر يده على الجدار بحذر ، اصطدمت اصابعه بملابس تصلبت بسبب القرَس ، ثم توقفت عند شريحة الباب . تحسس بالقرب منها المفصلة الباردة ، وعثر بسهولة على الرزة المتشابهة فى جميع البيوت القروية . اتضح ان هذا الباب غير موصد ايضا ، سحبه اليه ، وعبر العتبة العالية ، مسلما الرزة ليد سوتنيكوف الباردة .

ارتعشت بذعر لهبة النفطية المنتصبة فى السلطانية المنقلبة وسط المائدة بهبة الهواء البارد القادمة مع الرجلين ،



بينما رفع راسه الاشيب كهل ، ذو لحية قصيرة مشذبة ، جالس الى المائدة ، وقد القى فروته على كتفيه . التمعت نظرة ممتعضة برهة قصيرة فى وجهه العريض المضاء من اسفل بطريقة غريبة ، ثم انطفأت فى الحال تحت حاجبيه الاشيبين اللذين انزلهما عميقا .

— مساء الخير !



القى ريباك تحيته باحترام وتحفظ .

كان ممكنا بالطبع الدخول على خادم للفاشست حتى دون هذه التحية ، ولكن ريباك لم يرغب البدء مباشرة بحديث كريه لديه . الا ان الكهل لم يرد ، بل ولم يحرك ساكنا فى مكانه ، سوى انه القى نظرة اخرى عليهما ، خالية من الفضول .

جاءت موجة من الهواء البارد من الخلف . فقد دفع سوتنيكوف الباب بخراقة ، محاولا سده باحكام ، بينا التفت ريباك واوصده بالطقة المعتادة . اعتدل صاحب البيت وراء المائدة اخيرا ببطء ، دون ان يغير ملامح وجهه المحايدة ، كأنه لم يحزر من هما ، ضيفا الليل غير المدعوين هذان .

– انت المختار هنا ؟

سال ريباك بنبرة رسمية ، متجها الى المائدة مترنحا ، محاولا السيطرة على جزمتيه المغتنمتين الزلقتين بسبب الجليد العالق بهما . فيما تنهد الكهل ، وقد فهم ما ينتظره من حديث ، واغلق الكتاب السميك الذى كان يقرا فيه امامه ، ، قريبا من النفطية .

– نعم . المختار . وبعد ؟

قال ذلك بصوت متوازن لا اثر للخوف او للتملق فيه . وتناهى فى هذا الوقت حفيف قصير وراء الموقد ، وظهرت من خلف الستارة امراة قمينة ضعيفة ، تعدل وضع المنديل على راسها ، يبدو من هيئتها انها جد حرِكة ، وربة البيت على الارجح . نزع ريباك بندقيته عن كتفه ووضعها الى جانب ساقه ، مواصلا حديثه :

– هل خمنت من نحن ؟

– لست اعمى ، ارى الكفاية . ولكن ان جئتما من اجل الفودكا فهى غير متوفرة عندى . اخذوا كل ما كان منها هنا .

وجّه ريباك الى سوتنيكوف نظرة ذات مغزى . اظنّ هذا الجذمور العجوز انهما من الشرطة ؟ وبالمناسبة ، لعل هذا الظن فى صالحهما ، فكر ريباك ، وقال محافظا على هدوئه السمح :

– ما العمل ، يمكن العيش دون فودكا .

صمت الكهل ، كمن يعالج امرا ما فى ذهنه ، ثم دفع قدح النفطية اقرب الى حافة المائدة . اصبحت الارضية اكثر نورا .

– اجلسا اذن ما دام الامر هكذا .

– بلى ، اجلسا ، اجلسا يا اولاد – فرحت ربة البيت بالدعوة ، فسحبت كرسيا من المائدة وقربته الى الموقد ، الذى بان الحطب فيه متوقدا لبقية الليل – هنا ادفا . لعلكما تتجمدان . . . ما اشد البرد اليوم . . .

– لا مانع من الجلوس – وافق ريباك ولكنه لم يجلس نفسه ، بل اشار لسوتنيكوف – اجلس ، تدفأ .

لم يكن سوتنيكوف بحاجة الى اقناع ، انهد فى الحال على المقعد ، واتكا بظهره على جنب الموقد المبيّض ، ممسكا بالبندقية بيديه كانه يعتمد عليها ، دون ان يعدل حتى من وضع قلنسوته على راسه ، التى كانت نازلة حتى اذنيه المجمدتين . فيما شعر ريباك خلال ذلك الوقت بالدفء ، فحرر اعلى ازرار معطفه النصف ، ودفع قبعته الى قذاله . فيما ظل صاحب البيت عند المائدة غير مبال ، اما ربة البيت فقد راحت ترقب كل حركة من حركاتهما بحذر وتوتر ، شابكة يديها الى بطنها . «انها خائفة» – فكر ريباك . وذرع البيت مشيا ، مقتفيا عادة الانصار ، قبل ان يجلس ، فنظر الى خلف الموقد بعفوية ، ثم توقف عند دولاب خشب معاكس احمر ، يعزل سريرا فى الزاوية ، فتراجعت ربة البيت احتراما الى جانب .

– ليس هنالك احد يا اولاد ، ليس هنالك احد .

– اتعيشان لوحدكما ؟

– لوحدنا . انا والعجوز . بلا افراح وامراح – اجابت ربة البيت ذلك باكتئاب ملحوظ ، وفجأة قالت بنبرة راجية :

– لربما تاكلان شيئا ؟ انتما جوعانان ، ها ؟ ساقدم لكما شيئا بالطبع ، اذ لا يمكن البقاء دون اكل ساخن فى مثل هذا البرد . . .

ارتسمت على وجه ريباك ابتسامة خفيفة ، وفرك اصابعه المتجمدة مرتاحا .

– لعلنا ناكل ، ها ، ماذا تقول ؟ – توجه بالسؤال لسوتنيكوف بلهجة مترددة مصطنعة – لناكل قليلا ما دامت زوجة المختار تضيفنا . . .

فرحت المراة :
– حسنا جدا . لحظة واحدة . حساء الكرنب ما يزال دافئا ربما . لعلي اسلق لكما شيئا من البطاطا ؟
– لا ، لا داعي للبطاطا . لا وقت لدينا . . . – اعترض ريباك بحزم ونظر شزرا الى الكهل ، الذى ارتفق المائدة ، وجلس فى الزاوية دون حراك . وكانت ثلاث ايقونات قديمة محاطة بمناشف مزركشة تغرق فى العتمة فوقه . طبطب ريباك قدميه بتثاقل نحو الجدار بين النافذتين ، وتوقف امام اطار مزجج كبير يحيط بصور فوتوغرافية ، حوّل ريباك ناظريه عن الكهل متعمدا ، وقد شعر انه لم ينقطع عن متابعته وتفحصه خفية .
– واذن فانت تخدم الالمان ؟
– مضطرون – تنهد الكهل – ما العمل !
– وهل يدفعون الكثير ؟
لم يستطع الكهل الا ان يشعر بالسخرية الواضحة فى نبرة هذا السؤال ، ولكنه اجاب بهدوء ، وبعزة :
– لم اسالهم عن هذا ، ولا اريد ان اعرف ، ادبر حالي بما عندى .
«يا له من كهل ! يبدو انه ذو طبع حرون» – فكر ريباك فى نفسه وميز بين الصور الست المختلفة المحصورة فى اطار خشب الباتولا على الجدار ، فتى له شبه بعيد بهذا الكهل ، شاب بقصلة ، علامات المدفعية على كتفيه ، وثلاث شارات معدنية على صدره ، فى عينيه هدوء سادر ، وفى ذات الوقت يبدو واثقا من نفسه بسذاجة صبيانية .
– من هذا ؟ ابنكما ؟
– ابننا ، توليك .
اكدت ربة البيت ذلك برقة ، متوقفة ، ناظرة الى الصورة من وراء كتف ريباك .
– واين هو الآن ؟ الا يشتغل مع الشرطة مصادفة ؟
رفع الكهل وجها متجهما :
– وما ادرانا نحن ؟ كان فى الجبهة . . .

– اواه ربى ، ذهب عام ٣٩ ولم يعد حتى الآن . منذ الصيف لا روح ولا رائحة . آه لو عرفنا : حى ؟ عفنت عظامه ؟ . . .
افصحت بذلك ربة البيت وهى تضع على المائدة صحنا بحساء الكرنب .
– هكذا ، هكذا . . .
قال ريباك ذلك دون تعاطف مع ابتهالها الحنون . واذ انتظر حتى انتهت العجوز مما بين يديها ، اعلن امام الكهل مؤكدا على مقاطع كلماته :
– لقد جلبت العار لابنك !
– وماذا غير ذلك ! هذا ما اقوله له ليل نهار – تناولت العجوز طرف الحديث بحمية قرب الموقد – وليس لابننا وحسب بل للجميع ايضا . .
لم يكن هذا منتظرا ، وعلى الاخص لان العجوز نطقت بذلك وقد خالط صوتها الم صادق ، الا ان المختار لم يرد بشىء على كلماتها ، جلس دون حراك بهيئة ماتمية ، وبدا لريباك ان هذا الكهل مختل العقل الى حد ما ، ولكن وجه الكهل المتجهم ازداد تجهما ما ان فكر ريباك بهذا .
– ليس هذا من اختصاصك !
سكتت المراة فى الحال مبتلعة نصف كلماتها . اما الكهل فقد طعن ريباك بنظرة لائمة :
– وهو ، الم يكللنى بالعار ؟ لقد سمح للالمان ان يسيطروا على . . . فهل هذا ليس من العار ؟
– ذلك ما حصل ، وليس له فيه اى ذنب .
– ذنب مَنْ اذن ! ذنبى ربما ؟ – تساءل العجوز بصرامة دون ظل لتحرج او خوف ، وراح يطرق على المائدة بمغزى – ذنبك .
– بلى . . . – نبر ريباك فى تردد ناكصا عن مواصلة الحديث فى موضوع غير مسر بالنسبة اليه ، غير بسيط ، ولا نهاية له فى مثل هذا الحين .
فرشت العجوز سفرة طعام على نصف المائدة ، ثم وضعت صحن حساء الكرنب عليها ، فقطعت رائحة اللحم على كل حواس ريباك الاخرى ، فيما تفاقم شعوره بالجوع فى الحال . لم يكن ريباك

يشعر باى نوع من الاحترام لهذا الشخص ، ولم يكن يهمه ابدا لِمَ اصبح مختارا ، كما لم يهمه الاسباب والحجج التى دفعته الى هذا الطريق وافكاره العامة حول هذا المسلك . كانت حقيقة انه يخدم الالمان تحدد كل شيء بالنسبة الى ريباك . اما الآن فقد كان راغبا جدا بالاكل ، فقرر ان يؤجل ايضاح علاقة الكهل بالالمان حتى النهاية الى وقت آخر . ودعتهما ربة البيت بترحيب ولطف :

– اجلسا ، كلا قليلا . ها هو الخبز .

دلف ريباك الى المائدة دون خلع قبعته . وقال لسوتنيكوف :

– هيا ، لنقم بواجبنا !

فهز سوتنيكوف راسه ذاويا ، وقال :

– كل . لن آكل انا .

نظر ريباك نحو صاحبه باهتمام ، وكان هذا ينكمش على نفسه فى مقعده فيما سيطرت نوبة من السعال عليه ، مقرقفا احيانا كما لو انه اسير البرداء . بينما دهشت ربة البيت وقد بدت قليلة الفهم بحالة ضيفها :

– لماذا لا تريد تأكل ؟ لعلك تستنكف من أكلنا ؟ ام لعلك ترغب بشيء آخر ؟

– كلا ، شكرا . لا اريد شيئا .

قال سوتنيكوف ذلك بعزم ، حاشرا رسغى يديه النحيفين فى ردنيه بحركة انسان يعذبه البرد ، فاستثار عطف ربة البيت حقا :

– رباه ، لعلى لم افهم المرام ، المعذرة اذن . . .

جلس ريباك كما ينبغى على المقعد العريض امام المائدة ، ضاغطا البندقية بين ركبتيه ، واكتسح الصحن بصمت كامل . فيما ظل الكهل جالسا فى الزاوية بهيئته الجهمة دون حراك ، ووقفت ربة البيت على مقربة من المائدة مستعدة لخدمة الضيف بطيب خاطر .

– حسنا ، سوف آخذ الخبز ، ليكن هذا نصيبه .

قال ريباك واشار براسه نحو سوتنيكوف .

– خذه ، خذه ، يا ولدى .

بدا العجوز كانه ينتظر شيئا ما بصمت ، كلمة ما ، او بداية حديث عن القصد من مجيئهما . وكانت يداه الخشنتان الكبيرتـــان

تستقران بهدوء على غلاف الكتاب الاسود . وضع ريباك بقية الخبز فى عبه ، ثم قال بنكد :

– تقرا كتابا ؟

– وماذا ، القراءة لا تضر ابدا .

– سوفييتى ام المانى ؟

– الانجيل .

– هاه ! اول مرة ارى انجيلا .

دون ان يقف تحرك ريباك الى الكتاب المطروح على المائدة ، وتناوله بفضول . قلب الغلاف ، ولكنه شعر فى الحال انه اخطأ فى فعلته هذه ، فقد يدل الكشف عن اهتمامه ، بهذا الكتاب الغريب ، الالمانى الطبع ربما ، الى ما لا ينبغى الاشارة اليه .

ودمدم الكهل :

– اسئت صنعا ، فقراءته لا تبهظ .

اطبق ريباك الانجيل بحزم :

– ليس هذا واجبك ، ولا من شانك التبشير بتعاليمنا . انت تخدم الالمان ، ولذلك فانت عدو لنا – قال ريباك هذا شاعرا برضى خفى لانه وجد حجة للتخلص من واجب تقديم الشكر على استضافتهما لهما ، وتحول الى نبرة تناسب الوضع . ترك المائدة الى وسط الغرفة ، وعدل من الحزام الذى ضاق قليلا الآن حول معطفه النصف ، فاتاح له هذا التغيير فى علاقتهما امكانية الاقتراب الحثيث مـــن المسالة ، رغم ان التحول اليها كان يتطلب فى حد ذاتـــه بعض الوقت .

– انتَ عدو . فهل تعرف اى حديث لنا مع الاعداء ؟

– عدو لِمَنْ ، هذا هو المهم ...

اعترض الكهل بثبات وهدوء وكان شكا فى حراجة موقفه لم يساوره .

– لقومك ، للروس .

– لست عدوا لقومى .

اثار عناد المختار حفيظة ريباك . لم يكن ينوى ان يثبت لهذا الخادم انه خان الدولة السوفييتية شاء ذلك ام ابى ، دع عنك ان

اجراء مثل هذا الحديث معه لم يكن فى رغبة ريباك ابدا ، فسأله بنبرة فشل فى اخفاء السخرية منها :

– لعلهم ارغموك على هذا اذن ، فاصبحت مختارا ضد ارادتك ؟

– كلا . لم يرغمونى .

– طوعا اذن ؟

– شىء من هذا القبيل ربما .

«كل شىء واضح – فكر ريباك – ليس بيننا ما يمكن التحدث عنه» . اخذ الاشمئزاز من هذا الانسان الخائن يتصاعد فى داخله ، فاسف للوقت المهدور فى حديث فارغ ، لقد كان كل شىء واضحا منذ البداية من غير كل هذا . قال بقسوة :

– واذن ، هيا !

ارتمت العجوز على ريباك فاتحة ذراعيها :

– اوى ، يا ولدى ، الى اين ؟ لا داعى ، رافة باحمق . انه كهل ، حماقته دفعته . . .

الا ان المختار لم يضطره الى تكرار الامر ، فقد نهض عن المائدة برباطة جاش ، دون تعجل ، وارتدى فروته . كان شائبا تماما ، ورغم السنوات التى على كاهله فقد كان عريض المنكبين ، جسيم البنيان ، سد بجثمانه الزاوية ذات الايقونات كلها ، بينما امر زوجته :

– اخرسى ، اتسمعيننى !

يبدو ان العجوز قد ألفت الاذعان ، فاجهشت بآخر ما تبقى لها من دموع ، ولجات الى خلف الستارة . تنحى المختار عن المائدة بحذر كانه يخشى الارتطام بشىء .

– لك الحول . اطلق النار ! ان لم تكن انت فسيأتى آخر – واشار براسه الى الحائط بحركة سريعة – هيا اوقفنى هناك لاطلاق النار على !

نظر ريباك رغما عنه حيث اشار صاحب البيت . حقا ، لقد اسودت بضعة ثقوب فى الجدار الابيض جنب النافذة ، اشبه باطلاقات .

– من اطلق النار ؟

وقف الكهل دون حراك وسط الغرفة مستعدا لكل شىء .

– البعض من امثالكما . طلبوا فودكا .

شىء ما هز ريباك فى داخله ، لم يرغب ان يكون شبيها بأحد . كان يعتقد ان نيته عادلة ، ولكنه اذ اكتشف اخرى شبيهة بها ، راى خاصته تتخذ لونا آخر . وفى نفس الوقت لم يصدق ان الكهل قد خدعه ، مثل هذه النبرات لا تكذب . كانت العجوز تنشج وتلقى نظرة بين آن وآن من وراء الستارة . وانحنى سوتنيكوف على المقعد ساعلا من غير ان يتدخل بكلمة فى الحديث الدائر بينه وبين صاحب البيت ، يبدو ان صاحبه كان مشغولا بامره .

– واذن ، اتملك دابة ؟

– املك . . . حتى الآن – اجاب المختار بلامبالاة دون اى اهتمام بالانعطاف الجديد للحديث . بينما كفت العجوز عن البكاء ، وهدات متنصتة للحوار . فكر ريباك لحظة : كان مغريا جدا سوق دابة الى الغابة ، ولكن الطريق الى هناك بعيد الى حد ما ، ولن يفلحا فى الوصول حتى الصباح .

– واذن ، هيا !

دفع بندقيته على كتفه . وتناول المختار قبعته عن المسمار ووضعها على راسه مذعنا ، ودفع الباب بصمت . تبعه ريباك قائلا لسوتنيكوف :

– انتظرنى .

٤

ما ان اغلق الباب وراءهما حتى هرعت ربة البيت الى العتبة .

– اواه يا ربى ، الى اين ياخذه ؟ اواه ، ما الذى فعله !

– ارجعى !

اجبر سوتنيكوف نفسه ، بصوت اجش ، على اصدار هذا الامر ، ومد ساقه ، دون ان ينهض ، ليحيل بين المرأة والباب . توقفت المرأة فزعة . وكانت تنشج تارة ، وتصمت تارة اخرى ، متنصتة بتوتر الى الاصوات فى الخارج . لم يفهم سوتنيكوف جوهر الحديث الذى دار هنا قبل قليل جيدا ، ولكن ما وصل منه الى وعيه

الغائم بالسخونة ، جعله يعتقد ان ريباك قد يصفى المختار باطلاق النار عليه .

الا ان الوقت مر ، ولم يسمع اطلاق النار . وكانت المرأة تسد فمها بزاوية المنديل ، تتأوه ، تنتحب ، اما سوتنيكوف فقد ظل جالسا على المقعد يحيل بينها وبين الجرى الى الباحة ، حيث قد تطلق الصياح عاليا . شعر بحالته تسوء ، السعال يتفاقم ، الرأس يوجعه جدا ، واحساسه قرب الموقد يتقلب بين الحر والبرد .

– بنى ، دعنى اخرج ! دعنى القى نظرة ، ماذا يفعلان هناك . . .

– لا داع للنظر .

كانت المرأة تحوم فى غبث البيت بعمى ، منتحبة ، مولولة ، لعلها تستدر عطفه ربما ، فتنال الباب اخيرا ، ولكن جهودها جميعا ذهبت ادراج الرياح فهو لم يستجب ابدا لولولتها . كان يتذكر جيدا ، من الصيف الماضى ، كيف كادت ثقته المتناهية بامرأة مثل هذه ان تكلفه حياته . كانت مثلها ايضا ، ذات هيئة بسيطة ، ووجه سمح ، بمنديل ابيض على الرأس .

انتبه لها حال الخروج من الغابة ، وسط اوراق البنجر فى حقل للخضر ، وفكر : ما ابدع هذا ! سوف تدله على الممشى عبر مستنقع جورنى فيغورى ، الذى كما قيل له فى اليوم البارح ، لا يمكن العثور عليه الا بايجاد المدخل الوحيد اليه ، الذى تقع بدايته فى هذه القرية .

خرج من الكثبان البليلة ، واقترب بمحاذاة شرائط احراش القنب العالية اليها دون ان يلحظه احد ، كانت منشغلة تماما بحوض الزرع ، تتذكر عيناه حتى الآن تنورتها الغامقة المشمرة الاطراف ، سمانتى ساقيها البيضاوين غير الملوحتين بالشمس ، وقمصلتها المستهلكة المرقوعة عند الكتف . كانت تقتطع اوراق البنجر فلم تنتبه اليه مباشرة ، القى تحيته حذرا ، وادهشه انها لم تجفل ، انما تمعنته بالحاح ، مستمعة اليه كانها لم تفهم طلبه البسيط ذلك .

ثم اوضحت له كل شىء فيما بعد بالتفصيل ، كيف يقع على اثر الممر ، كيف يتجاوز الالواح الخشبية الموضوعة على الممر ، اى جانب يترك عند سيره اجمة اشجار الصنوبر ، كى لا يسقط فى

منقع . شكرها عازما على المضى فى سبيله ، بينما قالت ملتفتة الى الوراء : «انتظر ، لعلك جائعا» . احتضنت اوراق البنجر باذيال تنورتها بعجلة ، ثم قادته بين النباتات الى البيت ، تابعا اياها دون تفكير ، وهو الذى كان جائعا حقا كذئب فى الربيع ، فرحا ، يمنى نفسه بتذوق فطور فلاحى مشبع . وكم كان سخيفا ان يمشى معها !

ظلت تخاطبه برقة عندما كانا سائرين ونادته بـ«يا بنى» ، ويتذكر انها دعته مرتين بـ«ابن البلايا» ، لم يكن حليق الوجه ، كما هو شانه الآن ، ولم يكن قد اغتسل منذ زمن بعيد ، بل كان مبللا حتى ركبتيه بقطر الندى ، وبمظهر بائس تماما ، على العموم . كما انه لم يستطع التحدث بلكنة ذلك المكان ، ولم يتمكن من اخفاء انتمائه الى الجيش الاحمر ، فكان واضحا فى الحال مَنْ هو ، ومن اين جاء ، لم يكن بصحبته انذاك اى سلاح . ولم يفلح فى النجاة من الموت الا بمعجزة عند العشية ، عندما لم يبق بصيص للامل فى الخلاص . . .

لم تهدأ زوجة المختار الضامرة خلال ذلك الوقت ، وظلت تحوم فى البيت وتبكى :

– يا بنى ، ما العمل ؟ سوف يطلق النار عليه .

– كان يجب التفكير بهذا الامر من قبل .

قال سوتنيكوف ذلك ببرود محاولا الاستماع لما يحدث فى الخارج .

– وهل كلمته ورجوته قليلا ! اى سخام للوجه هذا الذى سعى اليه ! كانوا هناك من هم اصغر منه ، ولكن الطيبين رفضوا ، اما سود القلوب فقد خاف الناس منهم .

– وهو ، لم يخف الناس منه ؟

– من ؟ بيوتر ؟ آه ، يعرفه الجميع هنا ، نحن نعيش هنا حياتنا كلها . نصف القرية اقرباؤنا ، يريد الشائب حل الامور مع الجميع بالحسنى .

– مع الجميع بالحسنى !

– لعل الصواب الى جانبك يا بنى . لا يمكن حل الامور بالحسنى مع الجميع . كانوا يجبرونه : هات لنا حبوبا ، اجمع لنا

ملابس ، سق من ينظف لنا الطريق من الثلج . وماذا يستطيع هو ان يفعل ! ولتنضيد هذه الاوامر على المرء ان يجبر الناس ، ويجبى المراد حتى من اقاربه .

– وهل كنت تعتقدين غير ذلك ؟ من الجباية بالذات يعيش المحتلون .

– من الجباية ، ومن اين ؟ جبى الله ارواحهم ! جاؤا بالسيارات صادروا الخنازير ، اخذوا عجلا من عندنا ، وقالوا لنا : عندكم ابن فى الجيش الاحمر ، فالعجل ضرورى لغسل ذنبكما امام المانيا . لتحترق المانيا هذه بكل نيران جهنم !

«العنى ، ولكننى لن اصدقك تماما» – فكر سوتنيكوف وسنا دون ان يسحب ساقه الممدودة . تذكر ايضـــا ان مرأة اوراق البنجر تلك قالت ايضا كلاما ما شبيها بهذا عن المانيا وهى تعد له الاكل وتقتطع الخبز . هرعت عدة مرات الى الخارج ، متحججة بالسعى لجلب شحمة خنزير مرة ، وقليل من الحليب مرة اخرى ، وكان هو الاحمق جالسا الى المائدة ، يبتلع بريقه ، ينتظر الزاد . وفى الحقيقة فقد هدهد له مرة انه سمع احدا ما يرد بهدوء على نداء ، ثم تطاير اليه همس قصير ، ولكنه ميز فيه فى الحال صوت طفل نائم فهدأ ، بل وعادت المرأة الى البيت هادئة ، عطوفة كما من قبل ، وصبت له الحليب فى القدح ، واقتطعت شريحة من شحمة الخنزير ، ويتذكر ان طيبتها هذه قد مست قلبه . ثم طفق فيما بعد يأكل الخبز وشريحة شحمة الخنزير بنهم ، شاربا الحليب بين آن وآخر ، حياته تكاد تضيع هدرا ، لو لا ان اجبره خـــوف غريزى ، دون سبب ظاهر ، على النظر الى النافذة المواراة بالازهار ، ليشله لحظة الذهول : فقد سار مسلحان يحملان بندقيتين عـــلى الشارع بسرعة ، وقد ابيض ردناهما بشارة الشرطـــة * والى جانبهما فتاة صغيرة ، تبلغ الثمانية اعوام من عمرها ربما ، تجرى بمحاذاتهما شارحة لهما شيئا ما .

هرب منه الكلام فى تلك اللحظة للاسف ، فلم يستطع قـــول زوجا من الكلمات الطيبة لتلك المرأة العطوفة ، لم يفعل سوى ان

* كان المتطوعون للشرطة من السكان المحليين يحملون اشرطـــة بيضاء على اليد . **المترجم** .

دفعها عن الباب ، ورمح عبر الخضرة الى السياج هائجا ، قفز منه الى المرعى ، ثم الى الوهدة . وراءه كانوا يطلقون النار ، يصيحون ، يشتمون . وآنذاك ، فى المنخفض ، استطاع ان يسمع بين الاصوات الاخرى صوت تلك المرأة الحاد الصاخب ، لا يشبه ابدا صوتها من قبل ، كانت تبين لرجال الشرطة اين يختفى فى الاحراش .

واما الآن فها هى زوجة المختار تكرر : «يا بنى . . . يـــا ولدى . . .» . . .

لم تسمع العجوز زوجة المختار ما يثير فزعها من الباحة ، فهدأت قليلا ، وجلست امامه على طرف المقعد .

– يا بنى ، ليس صحيحا انه اصبح مختارا طوعا . لقد طلب الرجال منه ذلك . آه ، كيف حرن ولم يوافق هو فى البداية ! ثم جاءت ورقة فى هذا الوقت من مركز الناحية تطلب حضور المختار للاجتماع . ولم يكن عندنا مختار فى قريتنا لياسينى حتى ذلـــك الحين . فقال له الرجال : «كن مختارا انت يا بيترو ، فقد كنت من قبل فى الاسر» . وكان هو قد قضى عامين فى الاسر اثناء الحرب مع المانيا فى عهد القيصر نيقولاى . وقالوا له : «انك تعرف طباعهم ، فتحمل شهر شهرين حتى ترجع جماعتنا . والا فانهم سينصبون بوديلا ولا دافع لنا عن بلاه آنذاك» . بوديلا هذا من لياسينى ايضا ، رجل سيىء جدا . عمل قبل الحرب مديرا ما ، يتنقل بين القرى ، ومنذ ذلك الحين والرجال يخشونه . اما الآن فقد وجد له مكانا عنـــد الشرطة ، فحشر نفسه كخنزير فى قذارة .

– سوف يتلقى جزاءه .

– ولن يترحم عليه احد ! . . وهكذا اقنعـــوا الاحمق بيتر فشغل هذا المنصب ، لما فيه سواد قسمته ، وتعاسة نصيبه . اما الآن فهل تراه راغبا ان يكون سميرا للالمان ؟ كل يوم والمصائب نازلة على راسه يشتمونه ، يصيحون عليه ، ويهددون باطلاق النار عليه ، يطلبون منه اما فودكا ، اما شيئا اخر . اما هو فيتألـــم ويعانى . . .

كان سوتنيكوف يتدفأ ، جالسا بالقرب من الموقـــد ، باذلا اقصى الجهد كى لا يغفو . والحقيقة فقد كان السعال يعينه فى صراعه مع النوم ، يتركه دقيقة ، ويعاوده الضرب ثانية ، يكاد يفجـــر

دماغه . وكان يستمع ولا يستمع الى زوجة المختار دون ان تكون لديه رغبة للاقتراب من شكواها ، اذ لم يستطع التعاطف مع شخص وافق على الخدمة عند الالمان ، منفذا بهذا الشكل او ذاك تبعات هذه الخدمة . اما ان تكون عنده بعض المبررات لهذا الفعل فهذا ما لم يقم سوتنيكوف له وزنا اذ كان يعرف مقدما قيمة مثل هــذه التبريرات . ففي الصراع الضاري مع الفاشست لا يجب ان يؤخذ بنظر الاعتبار اى نوع من التبريرات حتى اكثرها جدية ، اذ لا يمكن تحقيق النصر الا بالتغاضي عن كل هذه التبريرات . لقد فهم هذا منذ اول معركة خاضها ، وظل دائما متمسكا بهذا الاعتقاد بالذات ، الذى ساعده كثيرا بدوره فى الحفاظ على صلابة آرائــه فى كل تعقيدات هذه الحرب .

حاول سوتنيكوف النهوض وقد التقط نفسه من وهدة الاغفاء ، ولكنه ترنح فى الغرفة حتى كاد يرتطم بالجدار . فاعانته ربـة البيت على الوقوف بطريقة ما وقد فزعت نفسها ، بينما انحنى على الارضية ليرفع بندقيته .

— تفو ، يا للشيطان !

— ماذا بك يا بنى ؟ انت مريض . اواه يا ربى ! السخونة تسلقك ! انت بحاجة للاضطجاع ، آه ما اشد حشرجــة صدرك ! انتظر ، اجلس ، سوف اغلى لك فى الحال منقوعا . . .

شملتها رغبة صادقة فى مساعدته فاسرعت الى ما وراء الموقد وبدات تعمل هناك شيئا ما بصحبة ضجة شديدة . فكر سوتنيكوف ان حاله سيىء جدا حقا والا لماذا قلقت المراة الى هذا الحد ؟

— لا تقلقى ، لا احتاج شيئا .

لم يعد سوتنيكوف يرغب بشىء فعلا ، لا بطعام ولا بشراب . لا شىء ، سوى الدفء والهدوء .

— كيف لا شىء يا بنى ؟ انت محموم ، الا ترى هذا ؟ لاحظت ذلك منذ فترة طويلة . واذا كان الوقت الآن لا يسمح فخذ ثمارا جافة من التوت العليق واشربها بماء ساخن فى مكان ما . اما هذا فهو . . .

— لست بحاجة لشىء .

قدمت له شيئا اخذته من اكياس صغيرة سحبتها من سطــح

الموقد ، ولكنه لم يرغب بتناوله . لم يكن يتمنى لهذه المراة اى خير ، ولذلك لم يستطع التجاوب مع تعاطفها واعانتها له . الا انه سمع فى هذا الوقت طبطبة عند المدخل ، وتناهى صوت ريباك ، فيما مد المختار راسه عبر الباب .

— تعال ، صاحبك يناديك .

نهض والدوى يملؤ راسه ، متارجحا من الوهن ، وتوجه الى المدخل البارد المعتم . بدا ريباك خلال الباب المفتوح واقفا فى الباحة المغمورة ، بالثلج ، ووضع عند قدميه على الثلج خروفا داكنا مذبوحا ، منتويا كما يبدو دفعه الى كتفه .

— هيا ، امض انت . رد الباب ، ولا تلق نظرة . . .

قال ريباك ذلك للمختار بصوت محايد ، خال من الاشمئزاز الذى كان عالقا به قبل فترة قريبة .

اراد المختار ان يقول شيئا كما بدا ، ولكنه نكص عــلى الارجح ، فاستدار صامتا نحو البيت . اغلق باب المدخــل وراءه باحكام ، ثم سمع صوت الباب الداخلى يغلق فى البيت .

— لماذا تركته ؟

سال سوتنيكوف صاحبه لائما بصوت اجش عندما اصبحـــا وسط الباحة .

— آآ ، لياخذه الشيطان .

دفع ريباك الخروف على كتفه بنترة قوية ، وخطا خلف زاوية الحظيرة . ومن هناك ، انحرف فى الخلاء الثلجى الى البيدر المعروف لناظريه ، وكانت معالمه المائلة القاتمة تبرز غير بعيد عــلى الثلج .

وجرجر سوتنيكوف نفسه فى اثره .

٥

سارا صامتين على اثارهما السابقة ، عبر البيدر ، بمحـــاذاة المزارع المسيجة بالاسلاك ، وطلعا الى المنحدر المغطى بالشجيرات . كانت القرية هادئة . لا يلوح اى بصيص لنور فى النافذة . وكانت

السقوف والجدران والاسيجة والاشجار فى الحدائق ، المهالة جميعها بالثلج ، تكتسب لونا رماديا وانيا فى الغبث الليلى . غذ ريباك خطاه فى المقدمة ، حاملا الخروف على ظهره ، وراس الذبيحة ذو الطرة البيضاء المدلى على كتفه يتارجح كيفما اتفق . يبدو ان الوقت قد تجاوز الآن منتصف الليل ، فالهلال ارتفع الى قبة السماء ، وراح يتألق هناك بهدوء فى دارته الشفافة الغائمة . وسطعت الكواكب بلمعان اشد مما فى المساء ، وارسل الثلج تحت اقدامهما صريرا اعلى ، لقد اعلن البرد عن ذروته . وفكر ريباك باسف بانهما مكثا عند المختار اكثر من اللازم ، ولكنه حمد الظروف لعدم ضياع ذلك عبثا ، فقد اخذا لهما نصيبا من الراحة ، وتدفآ ، والاهم : انهما لم يرجعا بوفاض خال . الخروف لن يتخم بالطبع سبعة عشر رجــلا ينتظرونهما هناك ، ولكنه سيكفل لهم جميعا قطعة من اللحم . ورغم ان طريقهما طويل ، ولكنهما حصلا على ما يؤكل ، والآن عليهما ان يفلحا بايصاله قبل الفجر .

لقد سار ريباك بخطى حامية تحت حمله ، ولم يعد فائق الحذر على الطريق المالوفة الممتدة تحت ستار ظلام الحقل . ولو لم يكن سوتنيكوف ، الذى لا يمكن تركه وحيدا ، معه ، لقطع ربما الآن شوطا اطول . ولعلها المرة الاولى فى هذه الليلة التى شعر ريباك فيها بالامتعاض من صاحبه . ولكن ما العمل ، وهل سوتنيكوف مذنب فى امره ؟ وعلى كل حال لو استطاع ان يحصل فى مكان ما على ملابس ادفأ لكان الآن فى صحة جيدة وساعده فى حمل الغنيمة . لقد تصور ريباك فى البداية ان حمله جد خفيف ، ولكن ها هو يثقل مع مرور الوقت ، ضاغطا على كتفه اكثر فاكثر ، مضطرا اياه امالة راسه ، بحيث لم يعد مريحا النظر الى امام . واخذ ريبــاك يتناوب حمل الخروف بين كتف وآخر .

وشعر ريباك بالدفء اثناء السير فى معطفه النصف السميك الاسود ، الذى ما يزال جديدا ، يخدمه كما يرام فى هذا القرس . لولاه لكان امره زفتا ربما . اما معه فقد وجد الدفء والراحة ، يلبسه ويلف به نفسه حيث قدر له ان يهجع – شكرا للعــم اخريم ، لم يضن به ، اعطاه اياه . رغم ان لآخريم اسبابه فى هذا الامر ، واهمها بلا شك يكمن فى زوسيا ، التى علق قلبها الرؤوم

به بقوة – هذا ما يعرفه جيدا – ، هو المنشود ، ولكن العابر ايضا فى زمن الحرب .

كان بامكان ذلك اللقاء ان يصبح اكثر جدوى لولا الحرب ! ولكن اين كان يمكنه الالتقاء بزوسيا هذه لولا الحرب ؟ واى امر غير الحرب كان بامكانه ان يرمى عريف سرية الرماة ريباك الى قريتهم كورجيفكا ، تلك القرية المهجورة الصغيرة عند مشــارف الغابة ؟ لعله ، من غير الحرب ، ما كان يتاح له حتى القاء نظرة عليها طيلة حياته . ولربما مر على الطريق العامة غير البعيــدة اوقات تدريبات الخريف ، وحسب . اما فى هذه الحال فقد قدر له جر نفسه بساق مجروحة ملفوفة بعدة لفات بقميص قذر مدمى ، فطلب اللجوء الى البيت وقد خاف ان يبدأ الالمان فى النهار الانتقال بحافلاتهم . فاذا ظل حيا عثروا عليه على الطريق . وقد بدأوا مــع الفجر فعلا بتفتيش ميدان المعركة الغاص بجثث القتلى راكبيــن دراجاتهم البخارية وخيولهم . ولكنه كان فى هذا الوقت مخبوءً بشكل جيد فى الزريبة تحت اكوام من القش .

تناوب الحراسة عليه آخريم وزوسيا طيلة النهار والليل ، حافظا عليه ، ولم يشيا به . اما فيما بعد . . . اما فيما بعد فقد هدأ كل ما حولهم ، حلت سلطة المانية جديدة ، ولم يعد هدير المدافع يسمع فى الليل ؛ كان ذلك مكربا جدا . فكأن كل ما كان قــد عاش من اجله فى السابق قد انهار الى الابد . وكان ذلك وقتا عصيبا مرا بالنسبة اليه ، ولم يكن له من سلوان آنذاك فى حياة التخفى بين الفلاحين سوى زوسيا الممتلئة الرقيقة ، وحتى هذا لم يدم طويلا .

لم يشك ريباك يوما بصحته ، والحليب والقشطة كانــا متوفرين ، الجرح فى ساقه التام بطريقة ما خلال شهر ، فلم يؤلمه الا قليلا عند المشى . ظل طيلة الوقت يفكر فيما يتوجب عليه عمله بعد ، بخاصة عندما عرف ان الالمان توقفوا فجأة عند مشارف موسكو بعد انتصارات الصيف ، ورغم انهم كانوا يجعجعون ان عاصمة البلاشفة على وشك السقوط بين وقت وآخر ، فان ريباك فكر : لعلهــا تصمد ، فموسكو ليست قرية كورجيفكا ، وسيجدون من القوة ما يدافعون بها عنها .

وهنا ظهر عدد من الاصحاب ، من المحاصرين امثاله ، منهم من شفيت جروحه ، ومنهم من افاق بعد العيش فى القرى والديار من هزة الهزيمة الاولى ، بدأوا يتجمعون ، يتفقون ، يخرجون الاسلحة المخفية . ثم قرروا اللجوء الى الغابة ، الى متى يبقون جالسين مخفيين فى السقائف الفلاحية بالقرب من زوجاتهم الجديدات طيبات القلوب غير المسجلات بعقود ، وهكذا فعلوا .

كان وداعه مع قرية كورجيفكا حزينا . وفى الحقيقة فهو لم يعمد الى الخداع كما فعل البعض ، او يفعل ما هو اسوأ من ذلك فيتسلل خفية منها ، انما بين لها كل شىء كما كان ففهم يا للدهشة ، ولم يزعلوا عليه ، ولم يحاولوا اقناعه بالنكوص عن المغادرة . والواقع فقد بكت زوسيا ، بينما قال آخريم العجوز : «الواجب واجب ، والحرب هى الحرب» . ثم مضى العجوز آخريم وزوجته غانوليا ، يعدان ريباك للمغادرة ، كما لو كان ابنا لهما . فوعدهما ريباك ان لا يقطع حبل الوصل بينه وبينهم ، وانه سيمر عليهم ان حانت فرصة . وفى احد الايام زارهم فعلا ، فى نهاية الخريف ، ثم بَعُدَ عنهم فيما بعد ، والمهم انه لم يشتق لزيارة زوسيا ، لعله سلاها ، ولربما لم يكن بينه وبينها تلك العلاقة الجادة التى يمكن ان تثمر شيئا ما فترة طويلة ، وهكذا فقد ترعرعت تلك الرابطة ، احتدمت ، ثم خمدت . ولم يأسف على ذلك ، كان راضيا مع نفسه ، فهو لم يخدع احدا ، ولم يكذب ، تصرف بصدق ونزاهة . فليقل الناس ما شاؤا اما ضميره امام زوسيا فخالص تقريبا .

لم يحب ان يسبب اذى للناس ، او يزعل احدا عن عمد او عن غير عمد . لم يكن يحتمل ان يضمروا ضغينة تجاهه . وفى الحقيقة ، كان من الصعب العيش فى الجيش دون ذلك . لقد حدث ما كدّر صفو الامور ، ولكنه سعى الى تسويتها بما فيه صالح الخدمة . والآن يلومه سوتنيكوف الغاضب المتعب المريض بسبب تركه المختار دون عقاب ، ولكن عملية انزال العقاب اصبحت مكروهة لدى ريباك ، ليكن معه الشيطان ، وليعش فى هذه الدنيا . وبالطبع فلو كان من الاعداء لتوجب التصرف معه دون رافة ، ولكن بيوتر هذا

بدا له مسالما جدا ، مالوفا لريباك الذى كان هو نفسه من الفلاحين . اما اذا كان غير ذلك فليعاقبه غيره .

وفى البيت ، عندما جرى ذلك الحديث المقرف ، كان ريباك ما يزال راغبا فى ان يعاقب المختار ، ولكن هذه الرغبة تلاشت شيئا فشيئا عندما بدآ فى ذبح الخروف . كانت الحظيرة تضوع برائحة القش المعتادة ، والخثى ، والدواب . وثلاثة خراف تراكضت فزعة من زاوية الى زاوية ؛ احدها بطرة بيضاء على الجبهة ، امسك به بيوتر من صوفه ، فقبض ريباك آنذاك على عنقه بمهارة وقوة ، وقد شعر لحظة بفرح الوقوع على طريدة ، هذا الشعور الذى كاد ينساه . اما فيما بعد ، عندما كان ممسكا بالخروف ، وصاحب البيت يحتز رقبته ، والحيوان يدحص بقوائمه فى القش ، بينما سال عليه دمه الطازج ، فقد تصاعد الى شعوره احساس قديم ، من طفولته ، بفرح مذعور ، عندما كان والده يذبح فى نهاية الخريف خروفا او خروفين ، ثم وهو مراهق يعين والده بهذا العمل . كل شىء كان مثلما الآن : الروائح فى حظيرة الدواب ، ذعر الخراف المتراكضة قبل الموت ، ورائحة الدم اللاذعة فى البرد . . .

اتضح ان الحقل ، الذى انعطف ريباك نحوه عند الاحراش ، عريض طويل مما لم يكن يتوقعه ؛ ساعة كاملة ربما سارا على ثلجه . لم يكن ريباك يعرف موقعهما بالضبط ، ولكنه كان يشعر ، ان ثمة طريق تمر عبر هذا الحقل ويعترض سبيلهما ، كانا قد سلكاها مدة غير طويلة عند مجيئهما الى هنا ، يبدأ بعدها منحدر يقود الى نهير . ولكن وقتا طويلا قد مر ، قطعا خلاله كيلومترين ، ان لم يكن اكثر ، والطريق لم تصادفهما بعد . فأخذ ريباك يتهيب انهما مرا بها دون ان يلحظاها . وقد يحتمل آنذاك ان يكونا قد اضاعا اتجاههما ، فلم ينعطفا فى الوقت المناسب الى اليسار ، لينحدرا الى اسفل . شىء سيئ ان يكون هذا المكان غير معروف له جيدا ، بل ولم يستفسر عنه من انصار هذه المنطقة فى الغابة . وفى الحقيقة فهو لم يكن يتوقع آنذاك ان يتوغلا بعيدا هكذا .

توقف ريباك بانتظار سوتنيكوف ، الذى تأخر عنه يجرجر نفسه بصعوبة فى الغَلَس ، وكانت العتمة الكثيفة المزرقة قد غشّت على الهلال ، واكفهر الليل ، فلم يكن بالامكان تمييز شىء

فى المدى . انزل الذبيحة على الثلج ، وضع بندقيته على جنبها ، ومطّى كتفيه المثقلين متخففا . بعد دقيقة جاء سوتنيكوف ساحبا نفسه بخطوات متهالكة .

– كيف حالك ، لا باس ؟

– اسمع . . . دبر امر الحمل من غيرى بطريقة ما . لست اليوم بحال يسمح لى ان اكون مساعدا لاحد .

– لا عليك ، ساحملها لوحدى .

قال ذلك ريباك ناشقا ، وحوّل الحديث الى موضوع اخر :

– اتعتقد اننا نسير فى الاتجاه الصحيح ؟

القى سوتنيكوف نظرة الى المدى متنفسا بصعوبة :

– هذا ما يبدو . الغابة هناك .

– والطريق ؟

– فى مكان ما هنا توجد الطريق ، اذا لم نكن قد انعطفنا عنها .

وراح كلاهما يقلبان النظر بصمت فى الاماد الثلجية الغارقة فى الغَلَس ، بينا اصطاد سمعهما المرهف فى هذا الوقت ، فى مهب الريح الصاخب ، صوتا ما بعيدا غير واضح . وفى اللحظة التالية اصبح مفهوما : ذلك وقع حوافر جياد . التفتا سوية مرة واحدة باتجاه معاكس للريح فاتيح لهما الى حد ما ان يريا ، تخمينا فى غدراء الليل ، حركة غير واضحة . تصور ريباك فى البداية ان ثمة من يطاردهما ولكنه فهم فى الحال ، ان اولئك لا يقتفون اثرهما بل يقطعون على الارجح الدرب عليهما ربما ، على نفس تلك الطريق التى لم يعثرا عليها . واذ شعر ريباك بوجيب قلبه يضطرم دفع بندقيته الى كتفه بسرعة . الا ان غريزته انبأته فى ذات الوقت ان هنالك من يسير لحاله ولا يقصدهما ، وعلى مسافة بعيدة منهما ، الا انه ظل عاجزا ان يحدد ما اذا كانا سيبقيان مواريين عن الانظار . فانحنى والتقط الذبيحة الشعثاء بجرة قوية ، ووضعها على ظهره . كان الحقل يرتفع الى تل غير مرتفع ، فكان عليهما الاسراع لتجاوزه ، فانذاك قد يستطيعان التخفى عن الاعين .

هتف ريباك لسوتنيكوف بصوت واطئ ، وقد بدا الجرى :

– هيا ، هيا ، لنركض !

اكتسبت ساقاه مرونة ضافية مباشرة ، واصبح بدنه خفيفا قويا كما هو الحال فى الاوقات العصيبة الحرجة . وفجاة ، رأى على مبعدة خطوات خمس عنه : الطريق ، ممتدة ، مطروقة ، الى جانب منهما . بات مفهوما الآن ، انها نفس الطريق التى مر هؤلاء المجهولون عليها . نظر فى امتدادها فراى بوضوح فى المدى بقعة قاتمة متحركة ، وكان مسموعا بوهن رنين عُدّة جواد ، وكانت ثمة عربات زالقة تقترب بثقة . عبر ريباك ، وقد تلبسته البلبلة لحظة ، تلك الطريق الملعونة وكانه اجتاز حقلا مزروعا بالالغام ، بعد ان ظهرت امامه دون توقع وفى غير الاوان ، وفى الحال احس بوضوح انه لم يفعل ما ينبغى عليه فعله . كان يتوجب التراجع الى الخلف ربما ، فى ذلك الجانب من الطريق ، ولكن حتى وقت التفكير فى هذا قد فات . تكسّر الجليد تحت جزمتيه ، وجرى الى التل ، ثم راح ينتظر بقلب واجف صيحة آمرة توجه اليهما .

قبل ان يصل ريباك قمة التل الذى جرى اليه ، حيث ينحدر بعدها سفح ، نظر مرة اخرى الى الوراء فوجد ان العربات الزالقة قد اصبحت مرئية على الطريق ، واتضح ان عددها اثنان ، الثانية تكاد تكون لاصقة بالاولى . الا ان عدد الجالسين فيهما لم يكن واضحا بعد فى الغَبْشة * ، وكذلك لم تُسمع بعد صيحات ، ففكر وقد راوده امل ضعيف ، تشبث به الآن بقوة ، ان يكون اولئك ربما من الفلاحين ، ان لم ينادوا عليهما كانوا فلاحين فعلا على الارجح ، تاخروا لسبب ما فى الليل ها هم يعودون الآن لقريتهم ، فخوفه هذا سيكون آنذاك عبثا اذن . واذ انعشته هذه الفكرة المفاجئة تنفس بحرية اكبر مرتين والتفت اثناء ركضه نحو سوتنيكوف . الا ان هذا كان يطبطب بجزمتيه بخراقة غير بعيد عنه ، وكانه يتعمد ذلك ، وقد اصبح بحال لم يعد معه قادرا على شد العزم لقطع بضع عشرات اخرى من الخطو حتى قمة التل .

* لون بياض ضارب الى سواد . **المترجم** .

وفى تلك اللمحة ، شقت صيحة هادرة متوعدة سكون الليل :

– هـهـهـهاى ! قفا !

«لن اتوقف . . . ليأخذكم الشيطان !» فكر ريباك بذلك واندفع بقوة جديدة الى امام على الثلج . بقيت له مسافة صغيرة كى يتخفى خلف كتف التل ، بعدها يبدأ المنحدر كما يخمن ، ولعلهما سيتخلصان هناك من المطاردة . الا ان العربتين الزالقتين توقفتا فى هذه اللحظة بالذات ، وانهمر عليهما من هناك عدد من الاصوات الصارخة بعنف فى اثرهما :

– قفا ! قفا ! والا اطلقنا عليكما النار ! قفا !

وثبت افقطع فكرة الى وعى ريباك : «لقد وقعنا !» ثم اصبح كل شىء بسيطا ، مالوفا حتى الالم المُمرض ، فيما ظل ريباك يركض مستنفد القوى على صهوة التل الواسعة ، واعيا بعذاب ان المهم الآن ان يبتعد اكثر ما يستطيع عن مصدر الصراخ . لم يكن محتملا مطاردتهما على الجياد ، اما اطلاق النار ، فليطلقوا . من الصعب ان يصيب المرء هدفه فى الليل . لم يلق عن كاهله جثة الخروف التى تمددت الآن بثقلها على كتفه لا فى الوقت المناسب ابدا ، غير راغب بمفارقة امله الواهن بالتخلص من اشباح مطارديه .

سرعان ما عبر ذؤابة التل وقفز على منحدره الى اسفل ، وقد حملته قدماه بسرعة تهيب معها السقوط بحمله . وكانت بندقيته الالمانية وراء ظهره تصطفق على وركه بالم ، والخراطيش فى جيبيه تطقطق بوهن . ولاحظ فى المدى البعيد امامه شيئا ما داكنا غير واضح المعالم ، لعله حرش ، فتوجه اليه . همد الصياح خلفه حينا ما ، ولم تُسمع فرقعات الاطلاقات ، بدا له انهما استطاعا اخيرا التخفى عن اعين مطارديهم على الطريق .

ولكن ها هو منحدر التل ينتهى ، والثلج يصبح اكثر عمقا . فنظر ريباك الى الخلف وقد استولى عليه هم جديد . لقد تلبث سوتنيكوف عنه بعيدا بحيث خُيّل اليه كأنهم على وشك القبض عليه حيا . ورغم ذلك فقد بدا ، حتى فى هذا الوضع ، وكانه لم يحاول الاسراع ، بل ظل يجرجر نفسه فى الغبش الثلجى ،

والاكثر فظاعة ان ريباك لم يستطع مد يد العون لصاحبه ، كان يتقدم الى الامام دون توقف ، كأنه يدعو صاحبه ان يقتفى اثره . كان يجب مواصلة الجرى حتى الحرش الذى لاح مسودا غير بعيد .

– قفا ، يا قاطعى الطريق ! قفا !

ترددت الصيحة المتوعدة من الخلف مرة اخرى ، مصحوبة بصرخة لاعنة .

واذن فما زالوا يطاردونهما . ومن غير ان يلتفت ريباك – كان الالتفات ، والذبيحة على كتفه ، صعبا – قدّر من مصدر الصرخة ، ان مطارديهما قد تسنموا التل الآن ، فاستطاعوا رؤيتهما ربما . لقد اتضح له الآن ان موقفهما جد حرج ، بخاصة وما تزال امام سوتنيكوف حتى الحرش مسافة طويلة . ولكن ، ما العمل ؟ . . وكما هو الحال دائما فى لحظات الخطورة القصوى ، على كل امرىء تدارك امر نفسه ، وامساك قدره بيديه . اما ما يتعلق بريباك فقد استطاعت قدماه ان تنقذاه اكثر من مرة فى الحرب .

اتضح ان الحرش فى الواقع ابعد بكثير مما بدا فى الليل ، ولم يكن ريباك قد قطع بعد نصف المسافة اليه عندما دوّت الاطلاقات فى الخلف . وضح ان مطارديهما كانوا من اسوأ الرماة ، وقد فهم ذلك دون ان يتلفت الى الوراء من مرور الرصاصات الجامح فوق رأسه ، على ارتفاع عال اكثر من اللازم ، وهكذا راح يركض متحاملا على نفسه تحت تلك الرصاصات حتى الحرش .

يبدو ان مستنقعا معشوشبا يبدأ ها هنا ، فقد تَفَتّت اغصان الحور عارية على السهل الثلجى ، وتحدبت نتآت صغيرة تحت القدمين فى الثلج الهش . سقط ريباك عند بداية الحرش تماما ، فاوقع الذبيحة عن ظهره . كان عليه ان يجرى ابعد ، الا انه لم يبق له فضلة من قوة . وكان تبادل فى اطلاق النار قد اندلع وراءه ، ففهم ان سوتنيكوف يحتجزهم . وفرح ريباك فى البداية ؛ فهذا يعنى انه استطاع التملص ، وبالامكان الآن اضاعة آثاره فى الحرش ، والمضى قدما . الا انه يجب القاء نظرة اولا . نهض

على ركبتيه حاملا بندقيته بيديه فرأى بعيدا سوتنيكوف ، يتحرك بوهن عند منحدر التل تماما . الا انه كان من الصعب رؤية وجهة حركته من هنا خلل الغبش الليلى الكدر ، او ما اذا كان واقفا فى مكان واحد طيلة الوقت . بعد ثلاث اربع اطلاقات من المنحدر . انفجرت آخرى قريبا – عرف ريباك بدقة انها صادرة عن سوتنيكوف ، ولكنه لم يفهم جدوى الاشتباك مع الشرطة ، فى وضعهما هذا . كان يجب الانسحاب باسرع وقت ، فقد كان بمستطاع الحرش ان يضللهما عن اعين المطاردين . ولكن سوتنيكوف يبدو انه لم يفهم هذا ، فقد تمدد على الثلج كما يظهر ، بل وكف عن ابداء اى حركة ، ولولا اطلاقته لامكن التفكير انه قد قتل .

ولكن ، لربما قد جرح ؟

شعر ريباك برجة فى دماغه مع هذه الفكرة ، ولكنه كان بلا حول ، لا يستطيع مد يد العون لسوتنيكوف . ولعل الشرطة يرون من فوق المنحدر ، وبوضوح شديد ، ذلك الانسان المتوحد المرمى على الثلج ، وقد لا يتعجلون الوصول اليه ، ولكنهم سوف يصيبونه من بنادقهم بالتأكيد . واذا هرع ريباك لاسناده ، فانهم قاتلينهما لا محالة ، كلاهما ، كان على تمام الثقة من ذلك . هذا ما حصل فى زمن الحرب مع الفنلنديين البيض ، عندما قتل القناصة الفنلنديون اللعينون اربعة – خمسة رجال فى الدقيقة الواحدة ، بنفس الطريقة البدائية : يهرع الجار الى المصاب الاول لمد يد العون فيُجندل فى الحال الى جانبه ، ثم يهرع التالى ، وكل واحد من هؤلاء يفهم ما ينتظره هناك ، وفى نفس الوقت لم يستطع امساك نفسه وهو يرى رفيقه يهلك .

واذن يجب الافلات ما دامت هنالك فرصة : لم تعد هناك امكانية لانقاذ سوتنيكوف . واذ قرر ريباك هذا تنكب بندقيته بسرعة ، وحمل الذبيحة على كتفه بجهد وعزم ، وركض متعثرا بالنتآت على حافة المستنقع .

لربما كان ريباك قد ركض مسافة طويلة عندما شعر مرة

اخرى ان قواه قد بدأت تخونه . همد صوت اطلاق النيران خلفه فترة ، واذ تنصت الى السكون ، فكر بتخفف غامض ، ان كل شىء قد انتهى هنالك . ولكن ، ما ان مرت دقيقة او دقيقتان حتى تردد صوت تبادل اطلاق النار من جديد . سمع ثلاث فرقعات ، مرت احداها فوق المستنقع مصحوبة بصفير خافت . اذن فسوتنيكوف ما يزال حيا . فاستثارت هذه الاطلاقات الجديدة بالذات ، غير المتوقعة ، قلق ريباك ، واربكت من جريه ، واثارت احساسه المتزايد بالخطر . الذبيحة تزداد ثقلا ، وحملها اللدن ، المطاوع ، يتبدى لوعيه احيانا عن غرابة ونشاز ، فكان يواصل حملها بتلقائية سادرة ، مفكرا بشىء آخر تماما .

بعد دقيقة تكشفت حفرة امامه ، غير عميقة لعلها شاطىء نهير متجمد ، ولربما توجب الانتقال الى الجانب الاخر ، ولكن ما ان تقدم ريباك قليلا حتى زلت قدمه ، فاسقط حمله ، وانزلق على ظهره على الثلج الى اسفل . قفز ، مطلقا سبابا ، وخوض بيديه فى الثلج متجها الى اعلى ، حيث فهم بغتة ان من المستحيل ان ينجو لوحده . كيف يمكن بذل هذا القدر من الجهد من اجل هذا الخروف اللعين ، ورفيقه بقى هناك ؟ بالطبع ، ما يزال سوتنيكوف حيا ، فقد اعلن عن نفسه باطلاقاته . وهو فى الحقيقة انما غطى ريباك بتلك الاطلاقات ، منقذا اياه من الهلاك ، فى الوقت الذى كان حال سوتنيكوف نفسه سيىء جدا . لقد فات اوان افلاته . اما ريباك فليس من الصعب له الآن ان ينجو ، ومن المستبعد ان يواصلوا الآن مطاردته .

ولكن ما الذى سوف يقوله لهم فى الغابة ؟

لقد فهم ان نيته السابقة غير لائقة الى حد انه اطلق سبابا خافتا وجلس مغلوبا على امره على حافة الحفرة . دوّت اطلاقة اخرى بعيدا وراء الحرش ، ولم تترد غيرها بعد من المنحدر . فكر ريباك : «لعل شيئا ما قد تغير هناك ؟» ومرت برهة ثقيلة تكوّن لديه خلالها قرار جديد ، حاسم ، قطعى ، فقفز من مكانه .

حاول ان لا يناقش الامر مع نفسه اكثر ، فمشى بخطى سريعة ، عائدا على آثاره حيث سار من قبل .

٦

لم تكن عند سوتنيكوف اى نية لبدء الاشتباك باطلاق النار ، لقد حدث هذا لانه سقط على المنحدر ، وكان راسه دائخا جدا ، وكل ما حوله يسبح فى فضاء ، فذعر من ان لا يستطيع النهوض ثانية .

ومن هنا رأى بوضوح كيف ثابر ريباك فى الاسفل بكل ما يملك من قوى للوصول الى الحرش ويداه مشغولتين بحِمله كما من قبل ، ولم يصدر عن سوتنيكوف هتاف او صياح لانه عرف ان اوان الافلات قد فات . ظل متمددا على الثلج بضع ثوان طويلة دون حراك يكاد يختنق من التعب ، حتى سمع خلفه اصواتا ففهم انهم سرعان ما سيقبضون عليه . فاستل بندقيته من الثلج آنذاك واطلق فى الغسق اطلاقة كى يدفع عنه ولو لحظة ذلك الامر الرهيب الذى يجب ان يحدث معه ، وليعلموا على الاقل ان مناله لن يكون سهلا .

لقد ترك هذا تاثيره كما يبدو ، فقد توقف اولئك المطاردون هناك فى الحقل ، ففكر ان عليه تجربة الافلات ثانية ، رغم انه كان واثقا من ضآلة نصيبه من حسن الحظ ، وبذا استطاع رغم كل شيء السيطرة على وهنه ، فاستجمع قواه ونهض معتمدا على بندقيته ، فيما ظهروا له فى هذا الوقت بغتة ، قريبا منه ، ثلاثة اشباح جامدة على حدبة التلة الرمادية ، ناظرين الى اسفل بانتباه . ولعل الواقف الى اليمين قد لاحظه اذ هتف بشيء ما ، فاطلق سوتنيكوف اطلاقة ثانية دون ان يصوب تقريبا على احد بالضبط . كان واضحا كيف اربكتهم هذه الاطلاقة هناك . قبعوا او انثنوا بانتظار اطلاقات اخرى . اما هو فقد جرى الى اسفل مترنحا بخطوات غير واثقة ، مخوضا فى الثلج ، مخاطرا مجددا كل لحظة بالسقوط على المنحدر الثلجى . وكان ريباك قد اصبح بعيدا ، قريبا من الحرش تماما ، وفكر سوتنيكوف : اتراه يفلت ؟ بينا حاول هو بكل ما تبقى من قواه الابتعاد اكثر ما يمكن عن هذا المنحدر ، ولكنه ما كاد يقطع مئة من الخطوات حتى ضربته من الخلف ثلاث رصاصات بصلية واحدة تقريبا .

جرى بضع خطوات اخرى ، وهو يشعر انه على وشك السقوط وقد احس فجأة بحرقة حادة فى حوضه الايمن والسائل الحار اللزج يتدفق على ركبته ليتسلل الى حذائه . وبعد عدد آخر من الخطوات لم يعد يشعر تقريبا بساقه ، التى ثقلت بسرعة ، ولم تعد تطاوعه الا بصعوبة . بعد دقيقة انهار على الثلج ، الا انه لم يشعر بالم حاد ، بل استولى عليه حر لا يطاق فى صدره ، وحرقة كافرة فوق ركبته . اصبح بنطاله مبلولا تماما ، وظل بعض الوقت منطرحا ، عاضا على شفته حد الالم . لم يعد فى وعيه خوف مما عاناه من قبل ، بل لم يشعر باسف على وضعه ، لقد حلّت حالة كانما تلبست انسانا غيره ، فانتابه فهم صاح جلى واضح لموت محتم وشيك الوقوع . ودهش قليلا ان يتعرض له وقت لم يكن ينتظره الا عابر الانتظار . وما اكثر المرات العصيبة التى المت به ورغم ذلك فقد تجاوزه الموت إلى آخر ، الاّ انه هذه المرة لم يستطع تجاوزه كما يبدو .

ترددت اصوات خلفه ثانية ، انهم رجال الشرطة يقتربون منه للقبض عليه حيا او ميتا كما يبدو . نهض معتمدا على يديه متغلبا على وهنه وقد تزايد الالم فى ساقه وجلس . كانت اذيال معطفه وجزمتاه الخفيفتان ورداناه وعند ركبتيه معجونة بالثلج عجنا ، وقد انتشرت على بنطاله اعلى الركبة بقعة دامية بليلة . وما يذكر انه كف عن ابداء اهتمام بهذا الامر ، حرّك ترباس البندقية وقذف منها خرطوشة فارغة ، ثم اخرج واحدة جديدة من جيبه .

راى الثلاثة على المنحدر من جديد ، احدهم فى المقدمة ، وآخران خلفه . نزلوا مترددين سفح التل ظلالا مشوشة . كز على اسنانه ، ووضع ساقه الجريحة بحذر على الثلج ، وتمدد وراح يهدف بدقة اكثر من قبل . وما ان صدحت فرقعة اطلاقته فى المدى حتى رآهم يرتمون ثلاثتهم على المنحدر دفعة واحدة . ثم دوت مباشرة فى سكون الليل اطلاقات بنادقهم المدوية الخنّاء . فهم انه استطاع احتجازهم ، واجبرهم على ان يحسبوا له حسابا ، فجلب هذا نوعا من الرضى لنفسه . استرخى بعد توتر ممض منزلا جبهته على كعب البندقية ، دون ان يستطيع متابعتهم

بنظرة دائما او التحوط من اطلاقاتهم بسبب الضعف الذى اعتراه . لقد تمدد بهدوء وحسب محاولا استجماع ثمالة قواه لاطلاق رصاصة اخرى . اما اولئك فقد كانوا مصوبين عليه نيرانهم فى آن واحد . فيما سمع ازيز رصاصتين ، مرت احداهما تصفر فوق راسه ، وانغرزت الثانية فى الثلج بمكان ما تحت مرفقه ، ناثرة الثلج على وجهه . لم يتململ فى مكانه — فليقتلوه . وماذا لوقتلوه ، اما وهو حى فلن يدعهم يقتربون منه .

لم يخف سوتنيكوف الموت فى حومة المعركة ، فقد استهلك ذلك الشعور فى عشرات الحوادث التى بدت مقفلة تماما آنذاك ، لا بصيص لامل فيها فى الحياة . كان يخشى ان يصبح عبئا على الاخرين كما حدث مع رئيس الفصيلة شماجنكو الذى جرح خريفا فى بطنه بشظايا فى غابة كريجوفسكى ، فحملوه متعبين طيلة الليل عبر المستنقع ، قريبا من مطارديهم ، حيث لم يكن سهلا على احد حتى امر الحفاظ على حياته ، ولكنهم ، ما ان وصلوا مكانا حريزا حتى توفى شماجنكو .

كان سوتنيكوف يخشى اكثر ما يخشى مثل هذا النصيب بالذات ، الا انه يتحاشاه هذه المرة كما يبدو . لم يعد له امل بالخلاص ، الا انه كان ما يزال فى وعيه ، يحمل بندقية ، وهذا هو الاهم . ساقه تجمدت بطريقة غريبة ، بدء من القدم حتى الحوض ، لم يعد يشعر حتى بدفء الدم ، الذى سال منه الكثير كما يبدو . اما اولئك ، عند المنحدر ، فقد صمتوا بعد بضعة اطلاقات ، منتظرين ما سينجلى عن الموقف . ولكن ها هو احدهم ينهض ، ظل الآخران منبطحين ، ركض شبحه الاسود بسرعة منحدرا على السفح ، ثم جمد بعد ذلك . مد سوتنيكوف يده الى البندقية ، وشعر كيف تسرب اليه الخدر ، علاوة على ان ساقه بدأت تؤلمه بقوة اشد . لقد آلمته ركبته ووتر الركبة لسبب ما ، فيما تبين لنفسه ان اصابته اعلى الركبة وهى الحوض . كز على اسنانه وانقلب على جنبه الايسر قليلا كى يتخلص من بعض الثقل فى الايمن . وفى نفس اللحظة انخطف ظل آخر على المنحدر ، يبدو انهم يقتربون منه هناك بالوثبات مطبقين قواعد تكتيك المشاة . انتظر سوتنيكوف حتى نهض الثالث ،

ثم اطلق النار . اطلق كيفما اتفق ، تخمينا ، فقد صعبت رؤية الشعيرة وفتحة التنشين فى كدرة الغبش . دوّت الاطلاقات هناك ترد عليه ، وتعاقبت حتى كادت تبلغ العشر ، لا اقل . وعندما خمدت الاطلاقات اخرج من جيبه مشطا جديدا ، والقم بندقيته . كان يجب الاقتصاد بالخراطيش ، اذ لم يتبق منها سوى خمس عشرة .

يبدو انه ظل متمددا فى هذا الثلج فترة طويلة . بدأ جسمه يبرد ، وساقه تؤلمه اكثر ؛ والحمى ترتفع بسبب البرد ونزف الدم . كان الانتظار مرمضا جدا . اما اولئك الاوباش فقد سكتوا بعد اطلاقهم النيران ، وكانهم ضاعوا فى الليل . لم يعد اى ظل لهم يلوح على المنحدر . الا انه شعر انهم لن يتركوه ها هنا ، سوف يحاولون القبض عليه حيا او ميتا . ثم فكر : ام ربما يعمدون الى الزحف اليه ؟ ام انه لم يعد يرى جيدا ؟ بدات بقع داكنة تحوم فى ناظريه بسبب الوهن ، وانتابه قليل من الغثيان . ثم ذعر من ان يفقد وعيه فيحدث معه اسوأ ما فى الانتظار وما كان اكثر ما يخافه فى هذه الحرب . اذن فعليه ان يحتفظ بما تبقى لديه من قواه الخائرة كى لا يسلم نفسه حيا .

رفع رأسه بعض الشىء حذرا ، فلمح شيئا ما فى الغبش الجليدى ينخطف امامه ، لربما كان انسانا ؟ الا انه سرعان ما تبين خطأه متخففا : لقد حركت الريح بعض الاعشاب الجافة امام ماسورة بندقيته . فكظم انينه وحرك ساقه الجريحة التى تخرّمها فى الحال الم نفّاذ ماحق ، ورفع ركبته قليلا ، وقد فقد الشعور باصابع قدمه تماما ، فلياخذها الشيطان معه . فهو لم يعد بحاجة اليها ما دامت ساقه الثانية ما تزال سليمة .

فقَدَ سوتنيكوف كل احساس بالزمن ، ولم يع اى وقت مر عليه ، فيما كانت تقلقه اللحظة اهم فكرة : ان لا يباغتوه على حين غرة . واذ ارتاب فى انهم يزحفون اليه الآن ربما احتضن البندقية واطلق رصاصة كرد املا باحتجازهم فترة اخرى . الا ان ثلاثى الشرطة تاخر فى التعقيب على النار لسبب ما ، وفكر سوتنيكوف انهم قد نزلوا الى الوهدة ، فاضحوا لا يرونه الآن .

فقرر آنذاك استثمار هذه المهلة الصغيرة ايضا ، فانقلب على جنبه وقد تقحّمه الالم .

كانت جزمته المتجمدة تخلع على العموم عن قدمه بصعوبة ، اما الآن فتوجب انتزاعها دون ان ينهض . انثنى منحنيا ، وضغط على فكيه حتى انبعث صرير منهما باذلا جهده ، وحاول بكل قواه سحب الجزمة . فباءت محاولته الاولى بالفشل ، وبعد دقيقة من الالحاح ببذل الجهد استنفد قواه ، التهبت انفاسه ، وغطاه عرق بارد . ولكنه ما ان التقط انفاسه ، والقى نظرة حوله ، حتى امسك بالجزمة مرة اخرى بعزم اشد هذه المرة .

استطاع انتزاعها بعد المحاولة الخامسة او السادسة ، وتمدد على الثلج دون حراك بضع دقائق خائر القوى تماما . وخشى ان لا يجد مهلة لتنفيذ ما عزم عليه ، فرمى الجزمة على الثلج ورفع راسه بعض الشيء . لم يكن امامه من يطارده ، اما الآن فليجروا اليه ، فهو الآن مستعد لانهاء حياته ، ليس عليه الا ان يغرز فوهة البندقية تحت ذقنه ، ويضغط على الزناد باصبع قدمه . وشعر بفرح حاقد هادىء ؛ فهم لن يمسكوا به حيا على الرغم من كل شيء . الا انه كان ما يزال يمتلك مشطى رصاص ، سوف يدعهما لمعركته الاخيرة . رفع راسه اعلى ، يجب ان يكون اعداؤه اولئك موجودين فى مكان ما ، والا فان الارض لم تبتلعهم . . .

ولسبب ما لم يجدهم قريبا منه . ام انه كان لا يرى جيدا فى الليل ؟ يبدو له ان الليل قد احلولك ، والهلال قد اختفى فى مكان ما فى الاعالى . واذن فحياته سوف تنتهى فى الليل ، فكر سوتنيكوف ، فى حقل كالح ثلجى جفول ، فى وحدة مطلقة ، دون ناس . سوف يحملونه فيما بعد الى مركز الشرطة يجردونه من ملابسه ، ويدفنونه فى مكان ما بين الاعشاب . ولن يعلم احد ابدا رفات مَنْ ترقد ثمة . المقبرة الجماعية التى كانت ترهبه حينا ما اصبحت الآن بالنسبة اليه حلما صعب المنال ، ترفا الى حد ما . ولكن كل هذا من التوافه . لم يبق له الآن ما يستحق الاسف عليه قبل النهاية . وهل تستدعى الاسف هذه البندقية التى كانت طوع بنانه منذ الخريف ، دون ان تخل مرة بواجبها امامه ، دون ان يخلف اى من اقسامها دوره فى السياق العام ،

اثناء الرمى . كان رميها محكما دقيقا بصورة مدهشة . بعضهم كانوا يحملون بنادق رشاشات المانية سريعة الاطلاقات ، وبعضهم حمل بنادق معبئة ذاتيا ، اما هو ففضل ان لا يفارق بندقيته هذه ، التى ظلت حارسته الامينة طيلة نصف الشتاء ، اما الآن فها هى ستصبح من نصيب احد افراد الشرطة ربما .

بدات قدمه الحافية تجمد ، لم يبق الا ان تتخشب هذه القدم بفعل الصقيع ! كيف يستطيع بعد ذلك الضغط على الزناد ؟ تغلب على خوره والمه وتململ قليلا فراى على المنحدر فجاة حركة ما . ولكن ، ليس من هناك اليه ، بل الى هناك . تحرك ببطء ظلان ذائبان فى الغبش ، غير ملحوظين تقريبا على المنحدر ، الى اعلى . سرعان ما وصلا قمة التلة . فلم يستطع ان يفهم ما الذى يحدث هناك . لربما مضيا الى العربتين الزالقتين ، او للاتيان باسناد . ولكنه لم يجرؤ على التفكير انهما انما يغادرانه ، غير انه راى بام عينيه انهما عائدان الى الطريق التى جاؤا منها ثلاثتهم .

واذن ، فقد بقى لوحده . رغم ذلك فهو لا يستطيع البقاء حيا فى مثل هذا الزمهرير ، وسط حقل يباب هباب ، انما سيهلك ببطء من القرَس وفقدان الدم . ولكانهم اغضبوه بمضيهم عنه فتشبث ببندقيته وصوب كيفما اتفق ، واطلق النار .

وهنا فهم ان خوفه لم يكن فى محله ، فقد رد عليه اطلاق آخر للنار غير بعيد عن سفح التلة . واذن فقد ظل ثمة حارس رغم ذلك . بينما ذهب صاحباه لطلب العون ، ابقوا واحدا لمتابعة المراقبة واحتجازه . ولربما خمنوا انه مصاب ولن يمضى بعيدا . واذن ، فهذا ما حصل .

الا ان الانعطاف الجديد فى القضية قد الهمه ، فالصراع مع فرد واحد ممكن ، غير ان الامر السيىء انه لم يكن يرى خصمه ، لربما استطاع ذلك الوغد التخفى جيدا ، فالاستدلال على مكانه من صوت الاطلاق فى الليل لا يعول عليه ، ولعله كان يهدّف عليه بالذات طيلة الوقت ، اذ ما ان كان سوتنيكوف يرفع رأسه قليلا حتى يدوى صوت الاطلاق فى المدى . واذن يتحتم عليه الآن التمدد والتجمد فى الثلج . وكانت البرداء تختضه الآن دون

انقطاع ، ففكر سوتنيكوف انه لن يستطيع تحمل هذه الحالة فترة طويلة .

الا انه ظل متشبثا بالحياة دون ان يعلم بماذا كان امله مرتبطا ، وعلى الرغم من انه كان من السهل عليه ان ينهى هذا دفعة واحدة . ام لعله كان يرغب انقاذ نفسه ؟ ولقد تفاقمت هذه الرغبة كما يبدو الآن ، بخاصة وقد رُفع الحصار عنه . ولكن كيف يمكنه ذلك ، وهو الذى لم يعد يستطيع الزحف ، وبساق جريحة محاولا عدم التحرك ، بينما راحت ساقه السليمة تتجمد ، واذن فقد اصبح دون ساقين ، فأى افلات ونجاة دونهما ؟

وضع بندقيته على الثلج وانقلب على جنبه دون رفع رأسه ، باحثا عن الجزمة ، كانت منطرحة قريبا ، وكاحلها فى الثلج . وصلت يده اليها ، اخرج منها الثلج ، وبدا يحشر قدمه المتخشبة فيها ، محاولا انتعالها ، ولكنه لم يستطع ذلك ، فقد اتضح ان عملية اللبس اصعب من نزعها . وما ان دخلت قدمه كاحل الجزمة حتى دار رأسه مرة اخرى فانكمش على نفسه محاولا الاصطبار على نوبة الخور والالم . وفى هذا الوقت دوّت اطلاقة من هناك ، تحت سفح التل ، تردد صداها الرنان فى ارجاء الحقل المتجمد . ثم دوت اطلاقة اخرى ، فثالثة . الا انه لم يسمع ازيز رصاصاتها ، بل انه لم يتنصت اليها ابدا . حاول بكل قواه انتعال الجزمة منثنيا على جنبه فى وجره الثلجى ، فاستطاع ان يدس قدمه فيها وان لم يتمكن ان يفعل ذلك حتى النهاية ، واصبح بحال افضل . بل انه اشاح بوجهه كى لا يلذع الثلج خده وجبهته هكذا بقوة .

ثم سمع آنذاك صوتا فى الليل لم يفهم من اين تناهى اليه :

– سوتنيكوف ، سوتنيكوف . . .

اذهله هذا ، ولكنه فكر فيما بعد انما قد خُيّل اليه ذلك . وللتاكد فقد التفت مستطلعا الخبر فرأى خلفه فى العتمة شيئا ما ، حيا ، يتحرك ، بل بدا وكان احدا ما يزحف ، كرر بالحاح هادىء :

– سوتنيكوف ، سوتنيكوف !

كان ذلك ريباك بالطبع . ميز سوتنيكوف صوته الواطىء

المشبع بالقلق بوضوح ، فارتخى دفعة واحدة فى توتره المعذب الشديد . ورغم انه لم يتصور جيدا ما اذا كانت عودة ريباك اليه حسنة ام سيئة (فقد يكون خط الرجعة مقطوعا تماما امامهما) الا انه فهم فى الحال : لقد تأجل موعد هلاكه .

٧

زحفا نحو الحرش ، ريباك فى المقدمة ، وسوتنيكوف يتبعه ، كان ذلك مشوارا طويلا ثقيلا منهكا . لم يستطع سوتنيكوف اللحاق برفيقه ، بل وكان يهمد احيانا فى الثلج ، فكان ريباك يرجع اليه ويسحبه من ياقة معطفه وراءه . لقد استنفد ريباك ايضا قواه ، فعلاوة على معاونته سوتنيكوف كان يحمل بندقيتين كثيرا ما سقطتا عن ظهره وانحشرتا فى الثلج . بينا امسى الليل اسود غربيبا ، وابخرة الفضاء غطت وجه الهلال تماما ، فلعل ذلك كان انقاذا لهما . وفى الحقيقة فقد صدرت عن منحدر التلة اطلاقتان اخريان ، فهل لحظ ذلك المتبقى من افراد الشرطة شيئا ما يثير ارتيابه ؟

وصلا حافة الحرش كيفما اتفق ، وانطرحا بين نتآت المستنقع الرخوة المهالة بالثلج فيما غطتهما اغصان الحور الداكنة فى قتامات الليل جيدا عن الاعين . كان ريباك مبلولا تماما . فقد ذاب الثلج عند ردنيه وياقة معطفه النصف . بينما ترطب ظهره بالعرق الغزير . تعب تعبا شديدا لم يشعر بمثيل له طيلة حياته ربما . فتمدد على بطنه بلا حول ناظرا وحسب نحو المنحدر ، محاولا فهم ما اذا كانوا يقتفون اثرهما . الا انه لم يكن خلفهما احد ، ورغم ان رجل الشرطة قد لحظ شيئا ما ربما الا انه لم يجرؤ كما يبدو على ملاحقتهما ، فما ادراه متى تأتى اطلاقة منهما تجندله على الارض .

– ها ، كيف حالك ؟

صدر صوت ريباك وهو ما يزال يتنفس بسرعة ، كان بخار انفاسه كثيفا مرئيا حتى فى الغبش ، بينما تناهض صوت سوتنيكوف واهنا ضعيفا :



– سيي٭ .

كان منطرحا على جنبه ، ملقيا راسه الى الوراء ، وقد حشرت فى قلنسوة الخدمة المتجمدة عميقا ، وساقه الجريحة مرفوعة قليلا عند الركبة ، تهتز بارتعاشة عصبية خفيفة . اطلق ريباك سبابا مقذعا فى نفسه ، وقال :

– هيا لننهض ، الا . . . اذا حاصرونا وقعنا فى قبضتهم .

رفع نفسه ، ولكن قبل ان ينهض ، انتزع منشفته العكشة من ياقة قميص سوتنيكوف ، وضمّد بها ، بيدين مرتجفتين من التعب ، ساق صاحبه الجريحة اعلى الركبة ، بقوة . انتفض سوتنيكوف مرتين من الالم ، ممسكا انفاسه ، الا انه لم يئن . ثم انتصب ريباك على ركبتيه ، عارضا له ظهره :

– هيا ، تشبث !

– انتظر ، لعل استطيع جر نفسى . . .

حاول سوتنيكوف متململا فى الثلج النهوض بطريقة ما ، حتى استطاع الارتكاز على ركبة واحدة ، تاركا ساقه الجريحة الى جانب بحذر ممض ثم حاول النهوض كليا ، الا انه لم يفلح فى ذلك .

– ما الذى تفعله ؟ هيا تشبث !

اخذه ريباك تحت ابطه ، وتمكن سوتنيكوف اخيرا من النهوض ، ثم قام بخطوتين متهاويا مع ساقه الجريحة بقوة . فشرح هذا من صدر ريباك ؛ ما دام الرجل استطاع الوقوف على قدميه ، فثمة اذن مجال للامل . عندما اقترب ريباك زاحفا من سوتنيكوف وعرف بامر ساقه الجريحة ، استولى عليه فى الحال شعور بالقلق والانزعاج : ما سيفعل فى هذه الحالة معه ؟ اما الآن ، راح ريباك يهدأ قليلا مفكرا انه قد اصبح فى وسعهما ربما الافلات بطريقة ما .

وبمساعدة ريباك استطاع سوتنيكوف ان يثب بخراقة على قدم واحدة والمضى ظالعا فى سيره جارا قدمه الجريحة مخففا مشيته قليلا . وراحا يخوضان ها هنا فى ثلج هش عميق بما فيه الكفاية داخل حرش واطئ غير كثيف . كان سوتنيكوف يمسك بيده بريباك ، ويعتمد باليد الاخرى على اغصان الحور المتجمدة

اثناء سيره متهاويا على ساقه الجريحة بقوة ، محاولا الاسراع بكل ما لديه من قوة ، وصدره ما يزال يحشرج مصحوبا بفحيح لا يبشر بخير ، ساعلا احيانا بجفاف والم ، فكان ريباك ينكمش على نفسه تحوطا ، فمن السهولة ان يسمع احدهم هذا السعال عن بعد ، فيفتضح امرهما . الا انه ظل صامتا ، ولم يعد يساله عن حاله ، اذ راح يثابر على جر سوتنيكوف بين الحرش دون ان يعطى نفسه مهلة لالتقاط الانفاس .

بعد ان خلفا الاحراش ، قابلا وهدة بمستنقع متجمد فسيح ، ومرة اخرى نهض بعدها امامهما سفح تلة عال ، تسلقاه بزاوية منحرفة ، وشعر ريباك ان قواه بدات تخور ، ولم يعد بمستطاعه اسناد سوتنيكوف ، الذى راح يثقل عليه بجسمه اكثر فاكثر ، فهو نفسه كان قد استنفد قواه ، بحيث انهما انهارا فى وقت واحد تقريبا ، دون اتفاق ، متهالكين على الثلج . ثم ظلا متمددين على السفح فترة طويلة ، يتنفسان بصعوبة وحشرجة ، ولامبالاة مدهشة تجاه كل شيء تسربلهما سوية . وقدّر ريباك ان بامكان رجال الشرطة ان يلحقوا بهما بين دقيقة واخرى ، فكان طيلة الوقت ينتظر سماع صرختهم المصيرية ، ورغم ذلك فقد ظل بدنه غير قادر على دحر التعب الذى صفّده تماما .

ولربما مر من الوقت ربع ساعة كامل ، التقط ريباك خلاله انفاسه بعض الشيء ، فاستطاع ان ينقلب على جنبه ، بينما تمدد سوتنيكوف الى جانبه تخضه البرداء بارتعاشة خفيفة .

– بقيت خراطيش عندك ؟

– مشط واحد – نبا صوت سوتنيكوف متحشرجا كالحا .

– سنشتبك معهم اذا اضطرونا لذلك . . .

– لن يكفى لاشتباك .

«حقا ، لا يمكن الصمود فترة طويلة بعشرين خرطوشة» ، فكر ريباك ، الا انه لم ير مخرجا آخر . وهل يمكن التفكير بالاستسلام للاسر ، سيتوجب خوض القتال اذن . وراح ريباك يعانى مجددا ، بقوة جديدة ، مما حدث :

– من اين حملهم الشيطان الينا ! حقا لو قالوا : المصائب لا تترى فرادى على الراس . . .

تمدد سوتنيكوف صامتا الى جانب رفيقه كاظما انينه بجهد جهيد . فبدا وجهه ، الذى برّح فيه الالم ، واحلولك فى البرد ، وجمد بَخَره وانفاسه على بشرته نامية الشعر ، مجهولا لريباك تقريبا ، بغتة ، وغريبا ، استثار فى نفسه احاسيس بسوء مستقبله . وفكر ريباك ان امر صاحبه سيىء تماما كما يبدو .

– تؤلمك كثيرا ؟

– تؤلم . – غمغم سوتنيكوف .

– تحمّل .

شجعه ريباك بخشونة ، دافنا فى نفسه شعورا لاواعيا بالشفقة انبجس الآن فى غير محله تماما . ثم جلس على الثلج ، وراح يتفحص المكان حوله باهتمام وقد بدا له غامضا كلية : ثمة حقل متموج ، وغابة صغيرة بعيدة او اجمة من الاشجار ، اما الغابة الكبيرة التى كانا يحتاجانها فقد كانت متوارية عن الانظار تماما . لقد اختلطت الامور عليه اثناء الهرب فى الحرش ، فكف عن ان يفهم فجأة اين يوجدان الآن ، واى اتجاه عليهما ان ياخذا للخروج الى جماعتهما .

اثار هذا الامر قلقا جديدا فى جوانحه ، لم يبق لهما الا التيْه ليلا ! اراد ان يتحدث عن هذا الشأن مع سوتنيكوف ، ولكن هذا كان منطرحا الى جانبه وكأنه لم يعد يشعر بقلق ، او ببرد راح يزداد عنفا مع تفاقم هبوب الريح فى الحقل ، فيما كان ينفذ سريعا الى جسمه الذى حمى اثناء السير . غير انهما ظلا مع ذلك منطرحين على الثلج مصفدين بالتعب وتمعن ريباك ما حوله ، محاولا العثور على سبيل لهما فى هذا الغبش .

جرب ريباك ان يحدد موضعهما باستذكار كل ما مرا به فى طريقهما المتعرج الى هنا ، وكانت غريزة البقاء فيه تدفعه بالحاح الى الاتجاه المعاكس للحرش الذى طاردهما افراد الشرطة خلفه . فقد هُيِّئ له ان هؤلاء سوف يظهرون مرة اخرى فى اثرهما من هناك ، وبالتالى فان عليهما المضى فى الاتجاه الضد .

وعندما سيطر هذا الاحساس تماما على ريباك نهض معلقا البندقيتين على كتفه .

– هيا ، لنجرب المشى . . .

بدأ سوتنيكوف النهوض بصعوبة ، اعانه ريباك فى هذه المرة ايضا ، ولكن صاحبه حرر مرفقه منه عندما وجد نفسه على قدميه .

– اعطنى البندقية .

– ماذا ، اتستطيع ان تمشى ؟

– سوف احاول .

«وماذا فى ذلك ، ليحاول» ، فكر ريباك ، واعاد اليه البندقية متخففا ، فيما خطا هذا كيفما اتفق بضع خطوات معتمدا عليها كعصا . وسارا ببطء شديد فى الحقل المغطى بالثلج .

بعد ساعة اصبحا بعيدين عن المستنقع ، واستمرا يجرجران نفسيهما على غير هدى ، على تلم الحقل المائل ، وقد شعر ريباك ان الفجر على وشك الانبثاق ، وان آخر ساعات الليل على وشك الزوال ، وانهما الآن قد لا يفلحان فى الوصول الى مبتغاهما ، واذا امسك بهما الصباح فى الحقل ، فانهما لن يستطيعا التملص آنذاك على وجه اليقين .

حالفهما الحظ ها هنا فالثلج غير عميق ، الاقدام لا يطوح بها غالبا كما كان الحال عند المستنقع . وبدت حولهما فى غشمة الثلج اعواد حشائش طفيلية جافة ، تحتشد فى بعض الامكنة ، فتجنبها ريباك ، محاولا الخطو حيث كانت اقل انتشارا ، وجهد الا ينحدر الى وهدة خوفا من ان يجد نفسه وسط كثيب ثلجى ، كانت التلال اكثر سلامة للسير . الا ان آثارهما كانت ترتسم على الثلج بوضوح مخيب للامال ، واذ التفت نحوها مرة ، ذعر ريباك ، فمن السهل اقتفاء هذه الاثار ومطاردتهما ، حتى فى الليل . ولما قلب ناظريه فيما حوله ، فكر ريباك ، ان عليهما العثور ثانية على الطريق التى قد تحف المخاطر بها والتى كادت تؤدى الى مقتلهما اليوم . فليس الا عليها يمكن تمويه آثارهما ببقية الاثار ، كى لا يجرا خلفهما رجال الشرطة الى جماعتهما .

لاح حقل ثلجى ، او كاد ، خلل طيوف الليل المتكاثفة ، ببقع قليلة من الاحراش ، وشجيرات متوحدة ؛ وفى احد المواقع اسودّ شىء ما غير واضح ، واذ اقترب اكثر رأى ريباك انه حجر كبير مدور الشكل . ولم تكن الطريق بادية للعيان فى اى مكان .

فانحرف آنذاك بحدة باتجاه صهوة السفح ، فاصبح السير اصعب من ذي قبل ، ولكن املا برؤية الغابة من فوق كان يراوده . في الغابة يمكن الاختفاء ، وليس معقولا ان يرتمي افراد الشرطة في اثرهما في الحال ، لعلهم يتفكرون الامر في البداية ، فيمنحونهما فرصة للافلات منهم .

لم يقع ريباك في مثل هذا الوضع المرة الاولى ، ولكنه كان دائما يستطيع التخلص من الحبائل . في مثل هذه الحالات لا تنقذ سوى السرعة والفراهـــة ، حيث يتوجب اتخاذ القرار الصائب الوحيد دون تاخير لحظة واحدة ، وكان يفلح في الافلات عادة من مطارديه ، ومثل هذه الامكانيــة متوفرة الآن ايضـــا ، يمكن استغلالها ، لولا ان سوتنيكوف معـــه ، حيث لا يمكن المضي بعيدا . لم يرتقيا التل بعد حتى بدأ سوتنيكوف - وليس لاول مرة - يسعل بصعوبة ، وتثنى جسمه متشنجا عدة دقائق بالم ، كانه على وشك ان يلفظ شيئـا ما من داخله بسعاله . توقف ريباك ، وعاد الى رفيقه ، وحاول اسناده تحت ذراعه . ولكن سوتنيكوف وقف على قدميه بصعوبة ، فانزله ريباك على الثلج الصلب الذي سفته الريح .

- كيف حالك ؟
- يبدو اننا لن نفلت . . .

سكت ريباك ، لم يكن يرغب بالانخراط في هذا الحديث ، بالشد من ازره او طمانته بطريقة لن تكون الا زائفة . هو نفسه لم يعرف كيف السبيل الى الافلات ، بل حتى ولم يعرف اي اتجاه عليهما ان يمضيا فيه للافلات .

ظل ريباك دقيقة واقفا فوق سوتنيكوف ، الذي انبطح على جنبه دون حراك وساقه الجريحة مثنية قليلا الى جانبه فيما بدأت مشاعر مختلفة تختلط في جوانح ريباك تجاهه بينها الشفقـــة اللاواعية عليه بسبب المصائب العديدة التي حلت بـــه (كان المرض كان قليلا عليه فاضيف له الاصابة بالاطلاقات الآن) . وفي نفس الوقت نشا عنده احساس غامض باليأس - ماذا لو جلب سوتنيكوف المصيبة لكليهما . وفي هذا التيار المتقلب الهارب من مشاعر ريباك راح شعور بالقلق على حياته الخاصة يسيطر عليه

في بعض الاحيان اكثر فاكثر . وقد حاول في الحقيقة طرد ذلك من نفسه والاحتفاظ بهدوئه . لقد كان يفهم ان الخوف على حياته انما هو اول خطوة لاضاعة الرشد . فما ان يبدا المرء بالتأثـر والانفعال ويستسلم للخوف حتى تنهمر البلايا على راسه واحدة وراء اخرى ، مما يؤدي حتما الى النهاية الحزينة . والآن ، ورغم كل ما اصابهما من شدائد ، فما زالا غير فاقدين كل شيء بعد .

قال ريباك :

- اسمع ، انتظرني قليلا هنا .

ثم جر نفسه صعدا على المنحدر مخلفا سوتنيكوف في مكانه على الثلج ، ليلقي نظرة . فقد كان الامل بوجود غابة وراء التل ما يزال يساوره . ما قطعاه خلال هذا الليل مسافة طويلة ، فاذا كانا سائرين في الاتجاه الصحيح ، فانهما على مقربة من الغابة بالتأكيد .

امر سيء ان الهلال قد غاب ، ولا شيء يُرى في المدى ، سوى الليل المجبول بعتمة ضبابية باردة ، وطيوف الفجر الكالحة تنتشر حول الاشياء . وفي القرب لم يكن ثمة ظلال لغاب ، بينما امتد وراء التل حقل متموج آخر ، تخللته تلال غير عالية ، ووشته غلالة بلون رمادي ، لعلها حرش من الاحراش ، حرش صغيـر بشكل واضح ، شريط ادغال في حقل لا اكثر ربما ، وفي كـل مكان بقع داكنة لاعشاب طفيلية قائمة ، وكثبان لا معالم واضحة لحدودها ، وفجأة بان خط مائل قصير في التغبش * الثلجي ، ظهر على الارض ، ثم غاب . وبخفة غير منتظرة هرع ريباك نحوه فلم يلاحظ انه قد تحول فجاة ، على الثلج ، الى شريط داكن ، قطعة من الطريق المبتغاة ، ظهرت في احلك حاجة لها ، مطروقة ، مسلوكة ، تركت حوافر الجياد آثارها عليها . استدار ريباك الى الوراء وجرى نازلا بخفة من التل الى المكان الذي يرقد سوتنيكوف فيه على الثلج منثنيا على نفسه دون حراك .

- الطريق هنا ! اسمعت !

رفع هذا بتثاقل راسه الكروي قليـــلا ، المحشـــور في

* لون الرماد ، وهو بياض فيه كدرة . **المترجم** .

القلنسوة والتى تبدو لذلك صغيرة بشكل غير طبيعى ، وتحرك كانه ينوى النهوض .

– نستطيع السير بموازاة الطريق فى مكان ما ، لن يعثروا علينا فى هذه الحال . يجب ان نفلح بالوصول اليها فقط ، والا تعثرنا باحد ما .

نهض سوتنيكوف صامتا عن الثلج بمساعدة ريباك ، وامسك بحاضن البندقية باصابع لم تطاوعه جيدا .

اتجها نحو الطريق ببطء ، وريباك يلقى نظرات قلقـــة فى الغَلَس ، فلرب اناس يلوحون للعيان فى مكان ما ، ومشّط الحقل بنظرة متوترة كالمعتاد ، محاولا النفاذ بقوة اشد الى نهاية الطريق المتلاشية فى ظلمـــة الليل . فلاحظ فجأة ، على غير انتظار تماما ، ان السماء بدت على وشك تهريب بواكير النور فوق الحقل ، فقد باتت زرقاء باهتة ، واطفات الكواكب لمعانها ، وليس غير الكبيرة منها ظلت تنوس فى قبة السماء . اقلقته بوادر الفجر هذه اكثر من احتمال رؤيته لاناس . تمزق كل شىء فيه ، وجمح الى امام ، بعيدا عن هذا العرى ، وهذا الحقل المنوّر الخائن . ولكن ساقيه كانتا مخدرتان بانهاك لا يقهر ، اضافة لتلبـــث رفيقة ، فسواء رغبت ام لا تحتّم التقدم ، ببطء ، من الطريق . ولا حيلة لك فى هذا .

واذ تصاعد هذا الامر الى وعيه كظم فى صدره رغبة عنيفة للاسراع ، وضغط على نواجذه بقوة اشد . لم يقل كلمة واحـــدة لسوتنيكوف ، فقد كان هذا يقوم بما فى وسعه باذلا آخر مـــا تبقى له من قوى لربما . فقد كان احساس فى داخل ريباك يقول له : لا امل فى النجاة . لقد آذن الليل بالانتهاء فهو على وشـــك رفع سجفه عنهما ، واما النهار فانه لا يعد بخير عميم . وكـــان ريباك يرقب بروح ثكلى كيف يغذ صباح الشتاء خطاه ، ببطء ولكن بالحاح : انتشر النور فى السماء بسرعة ، وامتد الفضاء الثلجى الكئيب تحت دثار غلس الليل اوضـــح فاوضـــح ؛ وانداحت الطريق امامهما اطول فاطول وقد امكن للمرء فيها ان يرى على مدى بعيد .

وعلى اديم هذه الطريق ، جرا نفسيهما باتجاه الحرش .

٨

لاحظ سوتنيكوف ، لا اقل من ريباك ، كيف كانت ساعات اواخر الليل تنقضى امام عينيه ، وكان يعرف جيدا ماذا يمكن ان يعنى لهما ميلاد هذا الصباح الذى جاء فى غير اوانه .

الا انه واصل المسير ، ململما شتات قواه المنهكة ، تعينه البندقية فى ذلك ، محركا ساقيه بجهد هائل . كان حوضه يؤلمه بشكل فظيع ، اما قدمه فلم يكن يشعر بها على الاطلاق . فيمـــا تخشبت جزمته وقد ابتلّت بالدم فجمد ، وانثنت الفردة الاخرى ، التى لم يحكم وضعها فى قدمه جيدا عند منتصف الكاحل ، فراحت تغرف الثلج اثناء سيره بخراقة .

انتشر النور فى السماء اكثر من ذى قبل حين اقتربا من الحرش الغابى ، فاصبحت حدود الحقل مرئية ، بمرتفعاته غير العالية المهالة بالثلج ؛ فيما اشراب دغل كثيف من وهدة على مبعدة من يســـار الطريق ، يبدو انه نفس الدغل الذى جاءا منه . اما الغابة الكبيرة التى هما بامس الحاجة اليها الآن فلم تبن لعين حتى امتداد الافق لكانما الارض ابتلعتها خلال الليل .

كان ريباك يواصل سيره الى الامام بمثابرة كعادته ، وكان هذا مفهوما ، فكأنهما كانا يسيران على حد شفرة ، فهما معرضان ، فى كل لحظة تمر ، لخطر الانكشاف ، فالمطاردة ، فالامساك بهما . ولحسن حظهما كانت الطريق ما تزال مهجورة . اما خميلة الصنوبر فقد كانت تقترب منهما ولو ببطء . وكان سوتنيكوف يلقى اليها بين آونة واخرى ، خلل الألم والتوكؤ ظالعا على اخمص بندقيته ، نظرات ، نافدة الصبر ، فقد كان متعطشا للوصول اليهـــا باسرع وقت ، لا للاختفاء فيها عن اعين المارة على الطريق ، بالقدر الذى كان يرغب فيه العثور هناك على السكينة .

ولكن المصيبة انهما لم يقطعا نصف المسافة بعد الى الخميلة حتى توقف ريباك ساہا شاتما كانه دق كوتد فى الارض :

– اللعنة ! انها مقبرة !

رفع سوتنيكوف راسه ، حقا ، اصبح مرئيا الآن : خميلـــة الصنوبر ليست غير مقبرة قرية فى واقع الحال ، فقد ارتفعت تحت



الاغصان الممتدة بوضوح بضع صلبان خشبية ، وسياج ، ونصب حجرى على مرتفع فى العمق . الا ان اسوأ ما فى الامر ان اسقف قش لبيوت قرية غير بعيدة قد لاحت لاعينهما خلل اغصان الصنوبر ، فيما كان ذيل من الدخان يتصاعد من مدخنة ، تميله الريح الى الجانب ، ويتعالى منتشرا فى ارجاء السماء .

مخط ريباك ، ومسح انفه بكفه من غير اهتمام :

– واذن ، ما العمل ؟

لم يبق لهما مفر فى الحقيقة ، ولكن الوقوف هكذا وسط الطريق بلا طائل غير مجد ايضا . وهكذا جرجرا نفسيهما الى القريـــــة مستوفزين ، متكدرين ، اكثر من ذى قبل .

لكأن الحظ يحالفهما اول وهلة ؛ فالقرية قد استيقظت فى التو كما يبدو ، ولا احد يصادفهما فى سبيلهما ، وهكذا ، فقد وصلا

المقبرة بسلام . ولكنهما وجدا ان اثارا مختلفة تختلط هنا ، على الطريق ، والى جانبها في الحقل ، حابلا بنابل . فانعطفا مسرعين تحت اغصان اشجار صنوبر متهدلة الى اسفل كثيرا ، وترسما اثر مسلك امتد على الثلج واهنا . كان سوتنيكوف في العادة يغالب في نفسه شعورا بالفزع والاشمئزاز عند المرور بمثل هذه المدافن الكئيبة ، ويحاول الابتعاد عنها دائما دون تلكؤ . اما الآن فلكأن هذه المقبرة مرسلة من الرب لانقاذهما ، والا اين يمكن الاختفاء عن الانظار في قرية ؟

حاذا ، عجلين قبر طفل بني من الطين قريبا كما يبدو ، فالثلج لم يغمر بعد حدبته ، فيما حمتهما من نوافذ البيوت اغصان الصنوبر الكثيفة المجنحة وبعض الاسيجة على الثلج . اصبح السير هنا اسهل من ذي قبل ، استعان سوتنيكوف في ذلك بالصلبان والاشجار واوتاد الاسوار الخشبية ، واذ اصبح بعيدا عن الطريق الى حد ما اتجه الى شجرة صنوبر ضخمة وانهار متهالكا على الثلج . لقد أُتخم بردا والما عميقا مستمرا في هذه الليلة الملعونة .

كانت اكثر عذاباته انما تنبع من شعوره بفقدان الحول وقوة الجسد ، فتمدد ، متكئا بظهره على جذع الصنوبر الشائك الخشن ، مغمضا عينيه كي لا تلتقيا بعيني ريباك ، فيبدأ الكلام معه . كان يعرف ما يدور الحديث حوله ، وحاول ان يتجنب الكلام . وشعر بالذنب تقريبا لانه ، بسبب اصابته ، يعرض للخطر رفيقه ، الذي امكن الآن ان يكون بعيدا من غيره . كان ريباك سليم الصحة ، متعطشا للحياة اكثر من سوتنيكوف ، وهذا ما القى عليه مسؤولية محددة تجاه كلاهما . هكذا فكر سوتنيكوف غير دهش ابدا لمثابرة ريباك وتصميمه على مساعدته في هذه الليلة ، ناظرا الى حثـــه وتشجيعه له كواجب ، جاعلا ذلك من التزامات الجنود المعتادة امام بعض ، فلم يعترض على مساعدة ريباك لو كانت موجهة الى شخص آخر ، ثالث . الا انه هو نفسه ، رغـــم جرحه ، لم يرغب ابدا الاعتراف بضعفه ، وبحاجته لمساعدة الغير ، كان ذلك غير مالوف وكريها بالنسبة له تماما . فحاول جهده ان يعالج امره بنفسه ، اما حيث امتنع عليه ذلك فكان يحاول تخفيف تبعيته لاخر ، اي كان ، حتى لو كان ذلك ريباك .

الا ان ريباك كما يبدو لم يشغل نفسه كثيرا بالتغلغل عميقا في معاناة صاحبه ، فيما واصل ابداء رعايتـــه له ، قائلا ، وقد التقط انفاسه :

– انتظر هنا ، اما انا فساخطف قدمي الى ذلك البيت القريب ، اذا حدث شيء اختبأنا في الجرن .

«الانتظار امر حسن» – فكر سوتنيكوف – «حسبه الا يسير» . كان مستعدا للانتظار فترة طويلة ، وحبذا لو كان ذلك من اجل شيء يشد من ازره . ونهض ريباك على ساقيه منهكا ، تناول بندقيته ، ولكي لا تستلفت هذه الانظار حملها مثل عصى ، ممسكا بهـــا من سبطانتها ، ورمى خطوه عريضا على تحدبات القبور المغطاة بالثلج . فتح سوتنيكوف عينيه ، وانقلب قليلا على جنبه ، مقربا بندقيته اليه . غير بعيد ، كان آخر بيت من بيوت القرية يُرى خلل جذوع اشجار الصنوبر ، حظيرته متهاوية ، والريح تلاعب على سياجـــه العتيق المائل خرقة منسية ما ، لكان الناس هجروه منذ امد بعيد .

سرعان ما غاب ريباك من مجال رؤيته . ولكن القرية ظلت ، كما كانت ، هادئة خالية . ولكي يمدد ساقه الجريحة في وضـــع افضل ، تشبث سوتنيكوف باحد اعواد السياج الخشنة المطحلبة فصرّت بهدوء ، وانخلعت باقية في يده . كان القبر قديما ، أُهمل ربما منذ زمن بعيد ، نتأ حجر اوحد في رقعته من تحت الثلج ، ولم يكن فوقه صليب ، لقد استهلك السياج المتداعي عمره ، ولعل هذا آخر ما تبقـــى من ذلك الانسان على الارض . وفجأة ، المّ اكتئاب وحشي بكيان سوتنيكوف في هذه المقبرة القرويـــة ، بين الاسيجة والاحجار والصلبان العطنة المائلة ، فنظر الى بعضها وفكر بسخرية فاجعة : «لماذا ؟ كل هذا العادات القديمـــة ، كل هذه التماثيل ، ما هي في الواقع الا محاولة بائسة من الانسان لاطالة امد بقائه على الارض بعد الموت . ولكن ، هل هذا ممكن ؟ وهل هـــو ضروري ؟

كلا ، ان الحياة هي القيمة الحقيقية الوحيدة لكل المخلوقات ، وللانسان ايضا . وفي زمن مـــا ، في مجتمع انساني متكامل سوف يصبح هذا المفهوم مقولة مطلقة ، ومقياسا ومعيارا لكل شيء . فكل واحدة من هذه الحيوات ، انما هي المعنى الرئيسي للكائن الحي ،

وسوف تكون لا اقل قيمة من ذلك بالنسبة للمجتمع اجمع على العموم ، الذى تتحدد قوته وانسجامه بسعادة اعضائه جميعا . اما الموت – فما العمل ، الموت لا مفر منه . انما المهم القضاء على الموت القسرى لانسان ، السابق لاوانه ، وتوفير امكانية الاستفادة من مهلة حياته فى هذا العالم التى ليست طويلة من غير ذلك على نحو معقول فعال مجد . فالانسان ، بكل قواه الجبارة ، سيظل فترة طويلة ربما قابلا للتلف جسديا بسهولة ، اذ ان قطعة صغيرة من المعدن كافية لاستلاب حياته الفريدة العزيزة عليه .

نعم ، ان امكانات الانسان الجسدية محدودة القدرة ، ولكن من يحدد امكاناته الروحية ؟ من يستطيع ان يقيس مقدار الجراة فى المعركة ، الشجاعة والصلابة امام وجه العدو ، عندما يستنفد الانسان تماما كل امكاناته ، ويتكشف قادرا على ابداء جراة ماحقة انفجارية ؟

ان سوتنيكوف سيظل يتذكر طيلة حياته كيف استجوب الالمان ، صيفا ، فى معتقل اسرى الحرب ، عقيدا ، كبيرا فى السن ، شائبا ، دبغته المعارك ، محطم الذراعين ، على شفا الموت . بدا امامهم وكأنه لا يعرف معنى للخوف ، لم يكن يتكلم ، انما كان يقذف بكلماته اللاهبة ضابط الغستابو ، لاعنا هتلر والفاشية وكل المانيا النازية . كان بمستطاع الالمانى ان يقضي عليه بلكمة او بطلقة ، كما فعل ذلك قبل ساعة مع اثنين من العاملين السياسيين فى المشاة ، الا انه حتى لم يهن هذا الانسان بشتيمة ، فلكأنه سمع ما قيل اول مرة فاستولى عليه الذهول ببساطة ، اختطف فيما بعد سماعة التلفون وبربر بشىء ما للرآسة ، منتظرا الامر كما يبدو من فوق . وبالطبع فقد اعدموا العقيد فيما بعد ، الا ان تلك الدقائق التى سبقت الاعدام كانت نصره المبين ، مأثرته الاخيرة ، لعلها لا اسهل من مآثره فى ساحة المعركة : فهو لم يكن يأمل حتى ان يسمعه احد من جماعته (كانا موجودين صدفة على مقربة ، وراء حاجز التخشيبة) .

ظل البرد يتخرّم سوتنيكوف ببطء ، وهو يقلب ناظريه بصبر عند حدود المقبرة ، حيث رأى ريباك فى الحال ما ان اطل عليه . ولكن ريباك مضى عازما بموازاة سور المقبرة الى الحقل بدلا من

التوجه مباشرة الى صاحبه ، كى لا يراه احد من القرية ربما ، ثم استدار فيما بعد اليه . وبعد مضى دقيقة اصبح الى جانبه ، وسقط تحت الصنوبرة لاهثا :

– يبدو ان الحال على ما يرام . هنالك بيت ، فى رزة بابه قطعة خشب ، تنصت اليه فاذا هو اشبه بخال . . .

– واذاً ؟

– لعلى انقلك الى هناك ، تتدفأ قليلا ، ثم . . .

سكت ريباك مترددا ، ناظرا بانشغال فى فضاء الحقل الصباحى ، الذى انداح الآن بعيدا . كان صوته مشوبا بالتلبك ، لكأنه يشعر بذنب ، ففهم سوتنيكوف الامر .

– واذاً ، سوف ابقى .

– بلى ، هذا افضل – عقب ريباك بفرح ملحوظ – اما انا فعليّ ان اقصد الغابة ، ولكن اين هى بحق الشيطان ؟ لقد تهنا .

– يجب الاستفسار .

لنستفسر . . . اما انت فاصطبر قليلا . لعلنا نخبئك فيما بعد فى مكان ما آمن .

– حسنا ، حسنا . . .

اجاب سوتنيكوف بنبرة متفائلة مصطنعة .

– لا تقلق انت . سوف اتفق مع احدهم ، آمره ان يرعاك وما الى ذلك . . .

صمت سوتنيكوف . وعلى العموم فكل شىء كان منطقيا ، او هذا ما يجب ان يكون عليه ، فضلا ان قليلا من الزعل بدأ يتصاعد فى داخله . وفى الحقيقة ، فقد احس فى الحال ان ذلك انما بسبب الوهن وآثار الليلة المتصرمة الملعونة . وعلى ماذا الزعل ؟ ان علاقتهما ببعض متكافئة ، ولا احد ملزم تجاه الاخر بشىء . وهكذا ، فالحمد للرب ان فعل ريباك كل ما فى وسعه من اجله . ويمكن القول انه انقذه فى اكثر الظروف حلكة ، وها قد آن اوان اطلاق يدى صاحبه .

– واذاً ، هيا ، ما دام لا احد هناك .

حاول سوتنيكوف ان يكون اول من ينهض ، ولكن الما غادرا تخرّمه حال حرك ساقه الجريحة قليلا ، بحيث لاذ بالتمدد على

الثلج . انتظر دقيقة ، ثم امتلك زمام نفسه بطريقة ما ، كز على اسنانه بقوة ، ونهض .

سارا بمحاذاة المرتفع بين اشجار صنوبر فتية مخلفين المقبرة وراءهما . ووقعا بعد برهة على مسلك طرقت الاقدام ثلجه جيدا ، ادّى بهما الى ساحة عارية لا يحدها شيء . وعلى مبعدة عن بيوت القرية الاخرى انتصب بيت عتيق ، كبير الى حد ما ، طليت زواياه بالطين ، وغطيت نافذته بخرق ثبتت عليها جيدا بدلا من زجاجها المكسور . وفى رزة الباب المسودة حشرت بعجل قطعة خشب فعلا ، يبدو ان احدهم غادر البيت فترة ، فلم يبق احد فيه ، وفكر سوتنيكوف ان هذا الامر قد يكون افضل ، اذ سيتجنبان على الاقل الخوض فى تقديم الشروحات منذ الوهلة الاولى ، التى لا تريح احدا دائما فى مثل هذه الاحوال .

سحب ريباك قطعة الخشب ، ومرر صاحبه الى المدخل . ثم رد الباب بهدوء من الداخل . كان المكان مظلما . والى جانب الجدران براميل ما مرتكزة هنالك ، حاجيات بيتية مختلفة ، وصندوق ضخم مسوّر بحديد صدئ ، واما الزاوية فقد شغلتها اجران . كان سوتنيكوف قد رأى يوما ما هذه الآلة الفلاحية البسيطة لطحن الحبوب ، حجران مدوران فى وعاء غير عميق ، بعصا دوارة مثبتة فى مكان ما اعلاهما . وسمحت كوة الجدار الصغيرة ، المغطاة بشبكة عنكبوت ، لهما ، بما يتهرب منها من انوار ، بالبحث عن الباب الداخلى المؤدى الى داخل البيت .

وصل سوتنيكوف الى الباب كيفما اتفق ، معتمدا على الجدار ، ثم عبر العتبة العالية بمعونة ريباك . استقبلهما البيت بمزيج راكد من روائح ودفء ، ومد يده فى الحال الى جنب الموقد المبيض المتساقط الطلاء فى بعض الاماكن ، فوجده قد غذّى بالحرارة فى التو كما يبدو فسرى فى جسده شعور عارم بالارتياح ، بحيث لم يستطع الا ان يئن ، لاول مرة ربما خلال هذه الليلة الفظيعة . وتهاوى بخراقة ، فاقدا قواه ، على المسطبة القصيرة قرب الموقد ، وقد كاد ، بحركته هذه ، ان يسقط من افريزه اوانى ما على الارض . وفى الوقت الذى انشغل سوتنيكوف فيه بمد ساقه كما ينبغى ، نظر ريباك الى وراء الستارة المقلمة التى اسدلت على الباب

المؤدى الى القسم الاخر من البيت ، فقد سُمع من هناك صرير سرير خفيض مرتين . فارهف سوتنيكوف سمعه ، اذ سيتقرر اهم شيء بالنسبة لهما الآن . ثم سأل ريباك بصوت صلب ، واقفا عند الباب :

– هل انتم وحدكم هنا ؟

– بلى .

– واين ابوكم ؟

– ليس عندنا اب .

– وامكم ؟

– امنا عند العم اميليان تطحن مقابل خبزها ، نحن اربعة افواه وهى واحدة تعمل .

– آها ، ما افطنك ! واين هذه الافواه ، هل ينامون هناك ؟ حسنا ، ليناموا – قال ريباك ذلك بصوت واطئ – هل تستطيعين انت العثور لنا على ما يؤكل ؟

اجاب الصوت الطفولى الطيب النبرة :

– سلقت امى بطاطا فى الصباح .

وتردد فى الحال وقع حفيف اقدام هناك ، واطلت من وراء الستارة صبية ، لها من العمر عشرة اعوام تقريبا ، يكللها شعر منكوش ، وفى فستان من التفتة ، طويل ، متهرئ . وجهت الى سوتنيكوف نظرة قصيرة من عينين سوداوين ، ومضت الى الموقد بثقة ربة بيت مقتدرة دون خوف ، ثم اشرابت على اطراف اصابعها نحو افريز الموقد المرتفع بالنسبة لقامتها . ولكى لا يعيقها ازاح سوتنيكوف بعناية ساقه المصابة الى جانب .

ثمة مائدة عارية تحت النافذة ، والى جانبها مسطبة تربع عليها قدح من الفخار ، نقلته الصبية الى حافة المائدة ، وصبت فيه بطاطا من اناء . كانت حركة يديها ، غير سريعة وخرقاء قليلا . الا ان الصبية بذلت ما فى وسعها من اجل ارضاء الضيفين . اخرجت سكينا من حافظة الاوانى ، ومضت الى الزاوية المعتمة ، ثم وضعت على المائدة بعد قليل صحن خيار مملح كبير خشن . واخيرا ، ركنت نفسها قرب الموقد وراحت ترقب بصمت وفضول هذين

الرجلين المسلحين ، بوجهيهما نابتى الشعر ، المخيفين ربما ، ولكنهما الملفتان للنظر بالتاكيد لعينيها .

مضى ريباك الى المائدة قائلا :

– هيا ، لنبتلع لنا لقمة !

لم يكن سوتنيكوف قد تدفا بعد ، وكان بدنه المجمد ما يزال يرتجف من البرداء ، ولكن بخار البطاطا الخفيف ، الرهيف ، المتصاعد من المائدة ، ذا الرائحة الفاغمة ، انهضه من المسطبة . ساعده ريباك فى الجلوس الى المائدة ، ووجد لساقه الجريحة مكانا على المسطبة ، فاشعر هذا الوضع سوتنيكوف براحة ، ثم تناول حبّة بطاطا دافئة ، محروقة قليلا ، واتكا على الجدار الابيض المصفّح باعواد الخشب متداعيا عليه . كانت الصبية ما تزال واقفة باحترامها السابق لهما قرب الستارة تبرم فى حافتها ، وتوجه نحوهما نظرات سريعة من عينيها الداكنتين . سالهما ريباك :

– الا يوجد خبز عندكم ؟

– لينيك اكله كله امس بانتظار عودة ماما .

تلبث ريباك ثم اخرج من عبه قطعة الخبز التى حملها من بيت المختار ، اقتطع منها جزءً ، ثم اقتطع آخر ، ومد يده بهما اليها بصمت . تناولت الصبية الخبز ، ولكنها لم تاكل منه ، بل ذهبت به الى خلف الستارة ، وعادت الى الموقد . سالها ريباك :

– وهل تطحن امك الحبوب منذ فترة طويلة ؟

– منذ اول امس ، وستظل اسبوعا بكامله .

– مفهوم . انت الكبيرة ؟

– بلى ، انا الكبيرة . كاتيا ولينيك صغيران ، اما انا فلي تسعة اعوام .

– كثير . وهل عندكم المان ؟

– جاؤا الينا يوم ذهبنا مع امنا الى العمة غيلينا . اخذوا منا خنزيرا احمر ، نقلوه بسيارة .

اكل سوتنيكوف حبتّى بطاطا اخريين وانكفا مرة اخرى على سعاله الملحاح ، الذى اجتاحه دقائق خمس اوشك معها بين لحظة واخرى على تمزيق شيء ما فى صدره ، ثم امهله فترة فيما بعد ، ولكن سوتنيكوف لم يعد بحال يسمح له بالاهتمام ببطاطا ، انما

اكتفى بشرب نصف قدح من الماء ، واغمض عينيه . طاف شيء ما فى احاسيسه ، تارجح وهمى عليه تعب لذيذ مرهق ، هدهده برهة ، وغفا . ثم تباعد صوتا ريباك والصبية المتناوبان سريعا فى وعيه ، الذى غلبه المرض . سال ريباك قاضما الخيار :

– وما هو اسم امك ؟

– ديمجيكا .

– اها ، اسم ابيك اذن : ديميان ؟*

– بلى ، ويسمونها ايضا : افغينيا .

كان مسموعا كيف صر المقعد تحت ريباك – لعله انحنى لتناول حبة بطاطا اخرى – وجلبة جزمتيه تحت المائدة . همد الحديث فترة ما . ثم تسلل صوت الصبية فيما بعد مشوبا بالحذر والفضول الماكر :

– وهل انتما من الانصار يا عم ؟

– ولماذا تريدين معرفة ذلك ؟ انت ما تزالين صغيرة جدا .

– ولكننى اعرف انكما من الانصار .

– عليك بالصمت اذن .

– وهذا العم ، مجروح ، ها ؟

– مجروح او غير مجروح ، دون بسبسة ، افهمت ؟

سكتت الصبية . وانقطع الحديث فترة .

– االذهب لمناداة امى ؟

– اجلسى ولا تتحركى ! والا اعتقدوا بقدوم وباء .

– . . . وباء عليهم ! انحن ماشية ام اناس ؟

– كنّا اناسا . . .

ولكن هذين الصوتين لم يكونا صادرين من عالم الواقع ، انما هبطا من الماضى ، وكان وعى سوتنيكوف ما يزال قادرا على تمييز هذا الانتقال ، غير المحسوس تقريبا ، الى ما وراء الواقع ، فقد ترآى له فيما بعد ذلك الملازم المصاب فى ساقه ، الذى افلح فى

* يقصد زوجها لان المراة فى بيلوروسيا حيث تجرى احداث القصة تكنى عادة باسم زوجها . فاذا كانت المراة ديمجيكا مثلا كان زوجها بالتالى ديمكا او ديميان . **المترجم** .

السير فى الطابور بجهد جهيد ظالعا على ساقه الاخرى ، معتمدا على كتف رفيق له اقوى منه ، راس الملازم مضمد ، الضماد قديم وقذر ، ملطخ بدم جاف على جبهته ؛ شفتاه المتيبستان والق الحمى التعس فى عينيه المحمرتين يضفيان على وجهه النحيف مظهرا قريبا من الدبنون ، تنبعث من ساقه المصابة عفونة تثير الشعور بالغثيان لدى سوتنيكوف ؛ فرائحة الصديد المعسلة تسمم الهواء على مبعدة خطوات خمس . كانوا يسوقونهم طابورا الى الغابة من اشجار الصنوبر القليلة ، جنب الطريق ، تحت الاقدام رمل ابيض وابر الصنوبر ، شمس الظهيرة تلهب الرؤوس دون رافة ، ومشاة الالمان وخيالتهم يرافقون الطابور .

وقال بعضهم انهم يقتادون الطابور الى الاعدام .

كان ذلك قريبا من الحقيقة ، فبين هؤلاء السائرين فى الطابور الذين اختاروهم من بين آلاف الاسرى فى المعتقل من العاملين السياسيين والشيوعيين واليهود وغير ذلك ممن اثاروا الشبهات عند الالمان ، وقد ضموا سوتنيكوف الى هؤلاء بعد اخفاقه فى الهرب . اما الآن فها هم يسوقونهم الى التلال الرملية للاعدام تحت اشجار الصنوبر ، وهم يشعرون بهذا لان خفراءهم انعطفوا عن الطريق ، وراحوا يبدون الحذر اكثر من ذى قبل ، صارخين بصوت اعلى من ذى قبل ، وراحوا يحشدون الطابور فى قطيع واحد متواصل . وعلى السفح اصبح مرئيا عدد من الجنود ايضا ، يبدو انهم كانوا يتجملون بالصبر للانتهاء من مهمتهم بنظام . الا ان البلبلة عمت الالمان ايضا ، فالطابور لم يكن قد وصل السفح عندما جمجم الخفراء مع اولئك الواقفين قريبا من اشجار الصنوبر ، ثم صدر امر للجميع بالجلوس كالعادة عند الرغبة بايقاف الحركة . فقرفص الاسرى فى وهج الشمس ، وراحوا ينتظرون تحت سبطانات البنادق الرشاشة شيئا ما .

كان سوتنيكوف منهد القوى طيلة الايام الاخيرة ، يشعر بنفسه فى اسوأ حال ، فقد انهكه انعدام الاكل والشرب . فجلس صامتا ، فى غيبوبة تقريبا ، وسط حشد الناس الكثيف ، على عشب يابس شائك دون افكار ذات شأن فى راسه ، وهذا ما لم يجعله يفهم فى الحال معنى ذلك الهمس المحموم الى جواره ربما : «آه لو اقتل

احدهم . الامر سيان بالنسبة لى . . .» – «انتظر ، لنر ماذا سيحدث بعد» – «وهل بقى شىء طى الكتمان ؟» ادار سوتنيكوف نظره حذرا فراى جاره ، ذلك الملازم نفسه ، يخرج من تحت ضماداته القذرة حول ساقه مطواة عادية ، دون ان يلحظه احد ، وقد اضمرت عيناه من اليقين والعزم ما جعل سوتنيكوف يفكر : «لا يمكن جعل مثل هذا الصقر ينكص» . وكان الرجل الذى تحدث الملازم اليه كبير السن ، لا شارات على قمصلته الواضح انها من قمصلات امراء الفصائل ، ينظر الى الخفراء متحرزا . اقترب الاثنان احدهما من الآخر ، وراحا يشعلان سيكارتيهما من قداحة ، وعلى مبعدة منهما كان ثمة خيّال يرقب الطابور بانتباه .

كانوا قد مكثوا تحت الشمس ، خمس عشرة دقيقة اخرى على الارجح ، عندما سمعوا من التل امرا ما ، فراح الالمان يجبرون الطابور على النهوض . كان سوتنيكوف قد قدر ما عزم عليه جاره ، الذى اخذ ينحرف الى جانب الطابور ، مقتربا من الخفير . كان هذا الخفير المانيا قويا دحداحا ، مربوع القامة ، على صدره بندقية رشاشة ، كما هو حال الاخرين ، وفى سترة رسمية ضيقة ذات صف واحد من الازرار ، نز منها العرق تحت ابطيه ، وقد برزت من عمرته الجوخ المبللة عند حوافها ، ناصيته السوداء ، غير الآرية تماما . اسرع الالمانى بتدخين سيكارته ، وبصق خلل اسنانه ، ثم اقترب خطوتين من الطابور بسرعة بغية سوق احد الاسرى وحثه كما يبدو . وفى نفس اللحظة انقض الملازم كحدأة عليه من الخلف وانزل سكينه فى رقبته المسفوعة بالشمس ، حتى المقبض .

اطلق الالمانى نصف صيحة وتهاوى على الارض ، وصاح احدهم على غير مبعدة : «الى الامام !» فانقذف الى الحقل بضع اشخاص من الطابور كما لو ان لولبا اطلقهم ، انطلق سوتنيكوف جانبا ايضا ، ولكنه كاد يدوس على الملازم نفسه ، الذى هرب فى البدء ثم تعثر فجاة وهوى على جنبه تحت قدمى سوتنيكوف مباشرة ، وفى الحال اختط بسكينه على بطنه هو خدشا . قفز سوتنيكوف عبر جسده يكاد يسحق بقدمه يد الملازم المنثنية ، الظاهر منها النصل المخضب بالدم ، فيما سقطت السكين الصغيرة بحجم اصبع السبابة على الرمل .

استمرت بلبلة الالمان لحظات خمس ، لا اكثر . وفى الحال تردد اطلاق النار فى عدة اماكن . مرت الطلقات الاولى فوق راس سوتنيكوف خطفا . ولكنه ظل يركض بسرعة جنونية كما لم يفعل ذلك طيلة حياته ابدا ، وفى وثبات معدودة اصبح فوق المرتفع المظلل باشجار الصنوبر ، بينما انهمر الرصاص كثيفا ماطرا عليها دون انتظام ، وتساقطت ابر الصنوبر من كل الجهات ، فيما استمر هو برَمْحِه ، دون تبين طريق ، فقط الانطلاق ابعد ، مكررا مع نفسه بدهشة فرحة : «حى ! حى !» . . .

اتضح ، للاسف ، ان خميلة اشجار الصنوبر ما هى الا شريط ضيق غير طويل ، انتهى بعد مائة خطوة بغتة ، والى الامام انداح حقل محصود ، تمتد فيه حزم قش بصفوف متوازية . فلم يكن له ثمة مفر سوى الاستمرار فى انطلاقه على الحقل المحصود الى هناك ، حيث تتكاثف كثبان الحور الخضراء .

وهنا سرعان ما انتبهوا اليه ، ترددت خلفه صرخة ، ودوّت اطلاقة على مقربة ، فازت الرصاصة كالسوط ، والهبت بنطاله شاقة حافظة سكائر فارغة فى جيبه . شعر سوتنيكوف جيدا بوقع هذه الضربة ، فالتفت الى الوراء ليرى خيّالا يدربك باتجاهه وقد انحنى على صهوة حصانه ، مادا يمناه بمسدسه . كان مفهوما ان لا سبيل الى الفرار امام جواد ، فقال سوتنيكوف لنفسه «حانت منيتك !» . واستدار نحو مطارده لمقابلته وجها لوجه . كاد الجواد ان يطرحه ارضا ولكنه افلح فى الافلات منْ حافره فى آخر لحظة ، لائذا باقرب حزمة فى الصف . استلقى الالمانى المعتلى السرج الى الوراء بحدة ورفع يده الى الامام واطلق ناره فاصابت الرصاصة اعلى الحزمة فتطاير القش فى كـل الاتجاهات ولكنهـا لم تؤذ سوتنيكوف الذى استولت عليه موجة يأس فتناول حجرا عاديا من تحت قدميه ، بحجم قبضة اليد ، وقذفه بقوة ، وقد تنحى ثانية عن الحصان ، الى وجه الخيال مباشرة ، الذى اطلق النار جزافا فاخطأ هذه المرة ايضا . بينما شعر سوتنيكوف بتزايد امله فى الخلاص فراح يلتقط الاحجار من تحت قدميه ويقذفها على الالمانى فيما اخذ هذا يدور حوله على حصانه المستثار ، محاولا اطلاق النار بدقة اشد . دوّت فى الحقل اطلاقتان اخريان ، ولكنهما لم تطالا

الهارب ايضا ، الذى افرحه نجاحه فتحول ، وحجارة اخرى فى يده ، الى صف آخر من حزم القش .

وحتى استطاع الالمانى السيطرة على جواده الثائر كان سوتنيكوف قد ابتعد خطوات عشر الى الصف التالى وانعطف بحدة من جديد كى يوجه ضربة اخرى الى الخصم ، اصابت هذه المرة راس الحصان ، فاخطأ راكبه فى الرمى مرة اخرى ، بينما قذف سوتنيكوف نحوه ثلاثة احجار اخرى متتالية ، متخلصا من حوافر الجواد ، مبتعدا من حزمة الى اخرى . ولكن ها قد انتهت الحزم ولم تبق منها سوى آخر حزمة ، سقط سوتنيكوف وراءها على ركبتيه تعبا ، وقد امسك بقبضته حجرا . وجّه الالمانى حصانه نحو الحزمة مباشرة هذه المرة ، ناويا كما يبدو سحق الهارب تحت حوافره ثم انتصب الحصان على قائمتيه الخلفيتين عاليا ، وقفز بتثاقل جعل طحاله يخفق ، مطوحا بالحزمة ، مهيلا قشها على سوتنيكوف ، الذى صاح فرحا وهو يسقط ، فقد لمح امامه مسدس الالمانى البارابيلا وزناده الى فوق فمشطه قد فرغ . واذ انتبه الالمانى الى هفوته ، حاول السيطرة على حصانه محموما ، فاستطاع سوتنيكوف الوثوب قاذفا بنفسه بكل ما لديه من القوة الى الحرش القريب .

اضاع مطارده لحظات ثمينة حتى اعاد تعبئة مسدسه ، وكان عليه خلال هذا الوقت ان يوقف حصانه ، فتمكن سوتنيكوف من الوصول الى اشجار الحور . وفى هذا المكان لم يعد الحصان مخيفا له . ودون ان يلقى بالا للاطلاقات التى ترددت من جديد خلفه ، والاغصان التى سفعت وجهه ، راح يواصل الركض الى الامام فترة طويلة ، حتى وصل المستنقع . لم يكن ثمة مفر آخر ، فنزل الى حماة المستنقع المتموج والمياه الآسنة ظاهرة فى بعض الاماكن ، ولم يستطع الخروج منها الى مكان آخر ، ولكنه فهم هناك انه ان لم يغرق ، امكن اعتبار نفسه قد أُنقذت . وهكذا اختفى فى الماء حتى ذقنه متمسكا بغصن حور صغير رقيق ، مراهنا به على حياته ، قلقا طيلة الوقت : ايحتمل ثقله ام لا ؟ فلو انقصف الغصن انقصف معه عمره وخرب امره ، اذ لم تعد له قوة بعد ، فيما اعانه الغصن على تجنب الغرق فى الحماة الضحضاحة . التقط



انفاسه شيئا فشيئا ، وما ان همد اطلاق النيران هناك ، حتى خرج الى اليابسة بصعوبة .

كان الليل قد اسدل سجفه ، فبحث فى السماء عن نجمة القطب ، ثم اتخذ الشرق وجهة له ، غير مصدق بنجاته .

٩

انطرح سوتنيكوف على المسطبة دون حراك ، ولعله غفا ، اما ريباك فقد جلس قرب النافذة وراح يرقب من قائمتها الدرب . لقد اطفأ جوعه بالبطاطا ، ولم يبق لديه ما يفعله ، ولكن المضى

عن هذا البيت محظور ايضا ، ينبغى التريث والانتظار ، ومن لا يعرف ان الانتظار والالتحاق هما اسوأ امر . لهذا السبب او ذاك بدأ صبره ينفد ، بل وتصاعد الغضب فى داخله ايضا . ولكن ، لم يكن هناك من يغضب عليه ، ولربما استحق سوتنيكوف ذلك . وهو الذى لا يستطيع تركه على هؤلاء الاطفال . ربة البيت لم تعد ، وارسال احد فى طلبها ليس فى مقدوره : كيف يمكن الاعتماد على طفلة فى هذا الشان ؟

جلس ريباك جنب النافذة ، لا يعلم ماذا ينتظر ، متنصتا لاصوات الخارج . ومن الجانب الاخر للستارة سُمع كيف نهض الطفلان ، جلبتهما ، وكانت الستارة احيانا تتحرك قليلا ، فيظهر فى الشق وجه قذر اعتراه الفضول ، ليختفى فى الحال . وصاحت الصبية هنالك تنتهر الطفلين ، محتجزة اياهما وراء الستارة .

تفحص ريباك اتفه التفاصيل فى الدرب الممتد وراء النافذة ، بقايا السياج المحطم ، حدود المقبرة غير المسورة ، كثبانها الشائكة على جانبى الممشى . . . كانت الخرقة التى تعوض عن الزجاجة المكسورة عند النافذة تخفيه جيدا عن الاعين فى الخارج ، وعلى الافريز الرطب العطن انتصبت بضع زجاجات دواء فارغة قذرة ، كرة من خيوط الكتان ، ودمية خرق رُسمت عيناها وفمها بالحبر بطريقة ممتازة . مقابله ، امام المائدة ، كان سوتنيكوف يتنفس قلقا فى نومه ، بحاجة الى مكان يختبئ فيه حال دونه غياب ربة البيت . وكان ريباك يستمع ، فى انتظاره الغامض المستوفز المتعب ، الى انفاس رفيقه المريضة بحقد تقريبا ، محتدما اكثر فاكثر على سوء حظهما هذا اليوم . كل ذلك البلاء كان بسبب سوتنيكوف . لم يكن ريباك شخصا حقودا ، الا انه – وهو الشخص السليم الجسم – كان ينظر نحو المرضى دون اهتمام خاص ، غير فاهم احيانا كيف امكن ان ياخذ المرء بردا ، يهد حيله بهذا الشكل ، ويجعله طريح الفراش . وقد فكر ريباك : «ان يمرض انسان فى حرب فذلك منتهى الخراقة !»

وخلال خدمته الطويلة فى الجيش نشأ عنده احساس جعله ينفر من الضعفاء والمرضى وكل انواع الفاشلين ، الذين لم يفلحوا فى مسعاهم لهذا السبب او ذاك . اما هو فقد حاول ان يكون متمكنا

من كل شيء ، قادرا على تنفيذ التزاماته . وفي الحقيقة ، فقد كان الامر قبل الحرب اصعب من بعض النواحي ، بخاصة عندما كان ذلك متعلقا بالتعلم ، كان يكره علم الكتب ، الذى اقتضى الصبر والمثابرة ، بينما احب الشغلات الملموسة مع كل ما فيها من رواح ومجيء وصعوبات وملحات . ولعله لهذا السبب ظل يخدم عريفا في السرية ثلاث سنوات متتالية ، لم يضن الرب عليه بقــوة الشكيمة ، ولم يشك يوما من قلة المقدرة . والى حد ما كان الوضع بالنسبة اليه في الحرب اسهل ، ابسط على اقل تقدير : هــدف الكفاح واضح ، ولم يشغل نفسه كثيرا بالتفكير بشأن الاعتبارات الاخرى . لم تكن حياة الانصار الا شاقة ، ولكنها اهون رغم ذلك من الصيف الماضي في الجبهة ، وكان ريباك راضيا ، فالحظ حالفه على العموم حتى الآن . فقد مرت الصعاب الكبيرة به مرورا ، وفهم ان المهم في حرب الانصار التي يخوضونها انما هو اتخاذ القرار الصائب في الوقت المناسب ، دون ارتباك او تفويت فرصة . ولعل جوهر كفاح الانصار بالنسبة لريباك يتلخص في انك لكي تذود عن حياتك الخاصة عليك ان تسبب الضرر للاعداء ، وهنا كان ريباك يشعر بنفسه مقاتلا من الانصار مقتدرا .

وفجأة صاح الاطفال بفرح خلف الستارة :

– ماما ، جاءت ماما !

وراى في الخارج امراة عجلى تسعى بخطوات قصيرة نحــو البيت ، مرتدية تنورة طويلة داكنة تحت معطف قصير بال ، لافة راسها بمنديل عدة لفات ، مما يشير الى مضى عهد شباب ربة البيت ، وان كانت ما تزال غيــر كبيرة بعد . رافقها ريبــاك بنظرته ، ثم توارى خلف النافذة حذرا . بينما انتفض سوتنيكوف اثر صرخة الاطفا ل، الا انه لجأ الى مكانه مرة اخرى عندما تحقق من وجود ريباك في مكانه .

وعندما صلصل المزلاج في المدخل ، استقر ريباك على حافــة المسطبة محاولا اتخاذ هيئة هادئة طيبة تماما . كان عليــه ان يستقبلها باكبر ترحاب ممكن ، دون اخافتها او ازعاجها اذ ينتظره الاتفاق معها بشأن سوتنيكوف .

وقبل ان تفتح الباب ، هرع الاطفال من وراء الحاجز ، وازاحت

فتاتان الستارة ، ثم وقفتا عندها ، فيما ارتمى طفل حاف ، لــه خمسة اعوام تقريبا بسروال ممزق له حمالات الى العتبة مستقبلا :

– ماما ، عندنا انصال ! *

هرعت المراة الى الامام مباشرة بعد دخولها لرفع الطفل على يدها ، ولكنها استقامت فجاة ونظرت الى الرجل الغريب بخوف ودهشة . قال ريباك بكل ما توفر عنده من دماثة ولطف الآن :

– مرحبا يا ربة البيت !

ولكن ربة البيت طردت الدهشة عن وجهها المتعب ، ووجهت نظرة خاطفة الى المائدة حيث الاناء الخالي ، فيما اختلج وجههــا بتعبير غاب منه الرضى . واجابت ببرود ، منحية الطفل عنها :

– مرحبا . وماذا بعد ؟

– الامر كما ترين . نحن بانتظارك .

– واى حاجة لكما عندى ؟

كلا ، يبدو ان الامر ليس على ما يرام تماما . فالمراة لــم ترغب بالحديث بالنبرة التي مهّد لها ريباك . صوتها وشى بشيء من الصرامة والقسوة والامتعاض .

صمت ريباك ، في الوقت الذى فكت المراة فيه ازرار معطفها القديم المرقع ، وانتزعت المنديل عن راسها . نظر ريباك اليها بامعان ، فشهد شعرها المهمــل الاشعث ، وشحمتا اذنيهــا الاغبثتان ، ووجههــا المتعب الفاقــع الى حد ما ، غير الهرم بعد ، الذى كسته شبكة من التجاعيد قبل الاوان قرب الفم ، على تأصل الهموم في حياتها الضنكة .

– واى حاجة عندى ؟ – رمت المنديل على عمود قرب الموقد ، وامرّت نظرتها ثانية على حافة المائدة حيث الاناء – لعلكما تريدان خبزا ؟ ام شحم الخنزير ربما ؟ ام لعلكما اشتهيتما بيضا بالسمن؟

قال ريباك متحفظا :

– لسنا من الالمان .

– ومن انتما ؟ اتكونان من الجيش الاحمر ؟ ولكن الجيش الاحمر يحارب في الجبهة ، اما انتما فلكما التجول في المنعطفات .

---

* يقصد : انصار . **المترجم** .

بل ويتوجب تقديم البطاطا والخيار لكما . . . غالكا ، خذى لينيك ! – صاحت منادية كبيرتهم ، اما هى فقد طفقت ، دون ان تنزع معطفها ، ترتب بعض الحاجيات بيد خفيفة فوضعت القدور على الافريز ، الجردل عند المدخل ، المكناسة فى الزاوية . . .

بدا سوتنيكوف يسعل بالحاح امام المائدة ، فنظرت ربة البيت اليه شزرا ، ثم تجهمت ، ولكنها صمتت ، مواصلة ترتيب الحاجيات ، فنشرت ستارة قذرة على فتحة الموقد ، بينما نهض ريباك وقد ادرك مبلغ الخطا الذى ارتكبه باستعمال اللين مع هذه المرأة المهتاجة المستوفزة :

– لا يُحسن هذا يا امرأة . نكلمك نحن بالطيب وانت تردين بالمناكفة .

– مناكفة ؟ لو فعلت هذا لما كان لاقدامكما موطئ فى هذا البيت . – ثم تحولت الى انتهار اطفالها – اش ! ! الزموا الصمت ! لم تعوزنى الا مصائبكم ! غالا ، خذى لينيك ، ما الذى قلته لك . سوف اضربك يا لينيك !

فلثغ طفلها بالراء :

– اليد لؤية الانصال يا ماما * .

فطبطبت بقدميها متوعدة نحو الحاجز حيث وقف اطفالها ، فاختفوا فى الحال .

– وماذا تريد بعد غير رؤية الانصار !

رقبها ريباك متفحصا محاولا تخمين السبب الذى يجعل هذه المراة نافرة هكذا ، وقد تناهضت فى راسه تخمينات مختلفة بهذا الشان : امراة شرطى ؟ قريبة ما لمختار القرية ؟ ام ان ديمجيكا هذه متاثرة لسبب ما من السلطة السوفييتية ؟ ولكنه طرح هذه الافكار جميعا جانبا ما ان تمعن الامر ، فهى لا تتوافق بوضوح والعيش الضنك لهذه المراة .

وسال ريباك فجاة :

– واين زوجك ؟

استقامت ونظرت اليه بحذر مشوب بالفزع تقريبا :

---

* اريد رؤية الانصار يا ماما . **المترجم** .

– ومن اين تعرف انت زوجى ؟

– نعرفه .

– ولِمَ السؤال اذن ؟ وهل تعرف النساء الآن اين رجالهن ؟ تركونا هكذا ، عشن وشانكن !

تناولت مكنسة من العتبة وراحت تنظف قرب الموقد . كل حركاتها المبالغ فيها تشهد على عدم ترحيبها بهذين الضيفين الدخيلين عليها . وكان ريباك يفكر طيلة الوقت بوسيلة تقربه من الحديث الهام معها ، فمن اجل ذلك كان قد انتظرها .

– القضية يا امراة كما ترين ان هذا الرفيق . . .

رفعت راسها ونظرت بشك الى سوتنيكوف فى الزاوية ، فيما تحرك هذا وحاول النهوض ولكنه كظم انينه بشكل ملحوظ . جمدت ديمجيكا دقيقة والمكنسة بين يديها . فاستقام ريباك عن المسطبة ، وقال :

– حالته سيئة كما ترين .

تثنى سوتنيكوف من تصاعد الالم فى ساقه ، وامسك بكلتا يديه ركبته ، ضاغطا على اسنانه بقوة كى لا يفلت انينا .

– ياللشيطان ! يبدو ان الدم جف والجزمة التصقت بقدمى .

– لا تتحرك انت ، لا احد يطردك من المكان .

تجهمت ديمجيكا فى الوقت الذى اراح فيه ريباك ساق سوتنيكوف على المسطبة ، الا ان ملامح وجهها الصارمة بدات تلين شيئا فشيئا . ثم قالت وهى تمضى الى ما وراء الحاجز :

– يجب اسناده بشىء .

وجلبت من هناك صدرية مبطنة بالقطن عكشة عتيقة اطلت فتائل القطن الرمادى من بطانتها .

– خذ ، سيكون وضعك افضل .

قال ريباك بينه وبين نفسه : «ستتحسن الامور . ولعل خلق هذه المراة الحرون سيطيب اكثر» . زحزح سوتنيكوف نفسه فحشرت المراة الصدرية تحت راسه وتداعى فى الحال عليها ساعلا ، وكانت انفاسه تتلاحق كما من قبل بسرعة وصعوبة . وقالت ديمجيكا بنبرة مخالفة ، هادئة هذه المرة :

– انه مريض ، تبدو عليه السخونة ، ما اشد حرارته !

فلوح ريباك بيده :

– لا باس ، سيكون كل شيء كما يرام .

– بالطبع : لا باس – بدات ربة البيت تغضب – واطلاق النار عليكم لا باس به ايضا . ومعاناة امهاتكم فى مكان ما وغمهن لا باس به ايضا . اما نحن . . . انه يحتاج لعشبة مغلية ، يشرب نقيعها ، فيتعرق . والا فالمقبرة قريبة .

– المقبرة ليست اتعس مكان .

اعقب سوتنيكوف بصوت متقطع يخضه السعال ، وقد بدت عليه علامات التأثر بعد غيبوبة قصيرة ، وكان خداه قد احمرا بقوة بسبب الحرارة ربما ، والتمعت عيناه ببريق الحمى ، وكانت حركاته سريعة بصورة غير طبيعية .

– وماذا هناك اتعس ؟ – ماحكته ديمجيكا حاملة الاناء عن المائدة – لعلكما لا تؤمنان بالحِطّمة ؟

فعلق ريباك متفكها :

– ولكننا نؤمن بالجنة .

– سوف تعيشان حتى ترديانها ، بالطبع .

ازاحت عازل كوة الموقد ، وادخلت رأسها فيه ونقلت هناك القدور . يبدو انها هدأت اخيرا ، بل وطاب مزاجها قليلا . شعر ريباك بهذا وفكر : «لعل الامور تمشى كما يرام» .

– ما ابدع الحصول على ماء دافىء لغسل جرحه ، لقد اصابوه يا عمة .

– ارى هذا ، لم يعضه كلب بالطبع . طيلة الليل واطلاق النار لم ينقطع قرب ستاروسيليه – افصحت عن هذا وكانها لم تتقصد الافصاح ومضت تقول معتمدة على ملقاط – يقولون انهم قتلوا شرطيا .

– شرطى ؟

– بلى .

– ومن قال هذا ؟

– النسوان .

– اذا قالت النسوان هذا فهو صحيح – ابتسم ريباك – فهن يعرفن كل شيء .

نظرت اليه ديمجيكا بغضب .

– وماذا تصورت ، لا يعرفن ؟ يعرفن كل شيء . اما انتم فكلا . ولو عرفتم ما سالتم .

قدمت لهما القدر بالماء وتوجهت نحو الستارة لتنضم الى اطفالها قائلة :

– اغسل الجرح بنفسك واخلع سرواله انت من غيرى .

– حسنا ، حسنا – وافقها ريباك وتوجه الى سوتنيكوف – هيا لنخلع الجزمة .

كز سوتنيكوف على اسنانه ، وتشبث بالمسطبة بيديه ، فيما سحب ريباك من قدمه الجريحة بصعوبة جزمته المبللة المدمية . ثم توجب خلع بنطاله ، فتغضن وجه سوتنيكوف مجبرا نفسه على القول :

– سوف اقوم بذلك بنفسى .

كان الالم يسحقه ، كما هو واضح من كل شيء ، ورغم ذلك فقد حرر محزم البنطال المدمى هو الاخر ، وانزله على ركبتيه . واخيرا استطاع ريباك ان يرى الجرح بين جداول الدم المتيبسة على بدن صاحبه ، فاتضح انه غير كبير ، متورم ، مزرق عند جوانبه ، لا يخيف على الاطلاق ، جرح رصاصة معتاد ، وكان الدم ما يزال ينز منه قليلا . ولم يكن ثمة ثقب من جانب الحوض الاخر ، ما عنى ان الرصاصة استقرت فى الساق . وكان هذا اسوا ما فى الامر . قال ريباك مهموما :

– الجرح مفتوح . علينا اخراج الرصاصة .

بدا سوتنيكوف يفقد السيطرة على اعصابه :

– ولكننى لن ادعك تصطادها ، لقّنى اذن ، ما الذى تتفرج عليه !

– لا باس ، سوف نرى ما نستطيع ان نفعله – واستفسر ريباك من ربة البيت بصوت اقوى – لعلك تستطيعين ان تجدى شيئا ما لتضميده ؟

ثم راح يمسح ، بمنشفة مبللة ، بدن سوتنيكوف الذى جف الدم عليه ، وكانت ساقه ترتجف سقما ، ولكن المُصاب تحمل ذلك مشدود العضل ، وفكر ريباك ، ان الجرح على العموم غير ثقيل

جدا اذا لم تلامس الرصاصة العظم ، وفى حالة اخراجها يكفى شهر لالتئامه . والاهم : امر اختباء سوتنيكوف ، طيلة هذا الشهر ، كى لا يقع بين ايدى الالمان .

وسرعان ما ظهرت ديمجيكا عند الباب تحمل خرقة قطنيـــة نظيفة بيديها ، فتململ سوتنيكوف متحرجا ، بينما قالت :

– لا تخف ! خذ ما وجدته صالحا للتضميد .

ظل سوتنيكوف يكز على اسنانه كاتما الانين طيلة الوقت الذى ضمد ريباك فيه منطقة الحوض ، وما ان انتهى صاحبه من مهمته ، حتى تهالك فى الحال على المسطبة ، فيما غسل ريباك يديــه فى القدر :

– ها قد انتهينا من العملية الجراحية يا ربة البيت !

– سامعة ولست عمياء .

قالت ديمجيكا ذلك ماثلة عند الباب . بينما اعقب ريباك دافعا قبعته على قذاله مهموما ، ناظرا الى المرأة مستفسرا :

– وماذا بعد ؟ ما العمل ؟

– وهل انا عارفة ماذا تريدان بعد ؟

– انه لا يستطيع المشى ، تلك حقيقة .

– ولكنه جاء الى هنا مشيا .

احست بشىء ما فى تلميحه العابر ربما اذ نظرا الى بعض بالحاح وحذر ، فيما افصحت نظرتاهمـــا القصيرتان باكثر ممـــا قالته كلماتهما . شعر ريباك بالتلبك مرة اخرى ، معترفا لنفسه ان الحمل الذى يريد القاءه على كاهل هذه المرأة جد ثقيل بحق . اما هى ففهمت ، كما يبدو ، لا اقل منه ، مدى الخطر الذى تجنح اليه اذا وافقته على مرامه ، ولذلك فقد قررت ان تتعنت فى رأيها .

وحلت برهـــة من الصمت الملغّم فى الحديث المرن الدارج بينهما والذى لم يتقرر فيه شىء . بينمـــا تجمد سوتنيكوف فى مقعده منتظرا قرارهما . ونظر ريباك منشغلا عبر النافذة . . .

– المان !

وانسحب الى العتبـــة كالملدوغ بينما افلح ، خلال جزء من اللحظة ، فى رؤية عدد من الرجال المسلحين ، يقفون عند المقبرة . كانوا يقفون بالذات ، لا يسيرون ، رغم انـــه لم يفهم الى اين

كانوا يشيحون بوجوههم ، لم ير سوى اشباحهـم مع البنادق ، الناتئة سبطاناتها فوق ظهورهم .

نهض سوتنيكوف من الزاوية ، وطوح بيده حولـه ، محاولا الامساك ببندقيته . اما ربة البيت فقد ظلت جامدة فى مكانها ، فيما امتقع وجهها ، وغدا رماديا تماما . وكان ريباك قد رمى بنفسه نحو الباب فى البداية ، ولكنه عاد فى الحال ليلقى نظرة اخرى عبر النافذة .

– انهم قادمون ! ثلاثة قادمون الى هنا !

كان ثلاثة رجال يسيرون فعـــلا قادمين من المقبرة ، دون عجلة ، نزلا ، على الاثار التى خلفاها وراءهما ربما قبل فترة غير طويلة . فاحس ريباك فى داخله باقتراب كارثة ، وشعر بخوف لم يشعر به من قبل ، حتى وهو فى الحقل ليلة امس . وبدا له ان الهرب هو المخرج المعقول الوحيد ، ولكنه ما ان حوّل نظره الى سوتنيكوف المتكهرب فى مقعده وفى يده بندقية ، حتى نكص . لم يكن الهرب ممكنا . ولعل ديمجيكا فهمت هذا ايضا ، فالحفت فجأة بهمس مذعور :

– الى العلية ، هيا . . . اصعدا الى العلية !

بالطبع الى العلية ! واى مكان آخر غير العلية يمكن الاختفاء فيه فى بيت فلاحى ؟ حشر ريباك نفسه فى مدخل البيت المظلم ، حيث اسود فى الزاوية مزغل مربع يؤدى الى العلية . الا انه لـم يكن ثمة سلم بالقرب ، فقفز على حجرى الجرن الدائريين ، ورمى بندقيته الى العلية ، ثم التفت :

– هيا ، بندقيتك !

عبر سوتنيكوف العتبة مباعدا بين يديه ، واسندته ديمجيكا . ثم سلم بندقيتـــه الى ريباك الذى دفعها ايضا الى فتحة العليـــة المعتمة . وانقلب الجرن تحت قدمى ريباك او يكاد وهو يساعد سوتنيكوف على ارتقائه . كان السقف المنجور من الجذوع ما يزال عاليا ها هنا ، ولكن ريباك استطاع رغم ذلك الوصول اليه ، رفع نفسه الى اعلى كيفما اتفق ضاربا الجدار بجزمتيه . وفى الحال امسك بيدى سوتنيكوف الممدودتين اليه . بينما ثابرت ديمجيكـــا على اعانتهما من اسفل طيلة الوقت رغم تفاوت جهودها وجهود ريباك .

وظل سوتنيكوف نصف دقيقة يسعى للارتفاع بوهن ، مستنفرا كل قواه ، حتى استطاع اخيرا القاء نفسه فوق جذوع الحائط ، الى ظلام العلية . بينما اشارت ربة البيت لهما من اسفل :

– توجد هناك كومة نسالات ، اختبئا خلفها !

ركض ريباك على رشح الاتربة الناعم لارضية العلية ، وكان النور هنا ، كما فى مدخل البيت ، واهيا ، رغم ان قليلا منه كان ينفذ الى المكان من تحت السقف ومن الكوة الصغيرة للواجهة ، الامر الذى كشف عن عمود المدخنة الاجرى العريض ، واسمال علقت على عصا طويلة ، ومغزل محطم على الارضية . وراى ريباك تحت السقف الخارجى على مبعدة كومة النسالات الكبيرة .

– هيا الى هنا !

امسك سوتنيكوف بندقيته واتجه زاحفا على اربع ، الى الزاوية حيث تلتقى الواح السقف وارضية العلية الخشبية ، وحيث اشار ريباك اليه ، الذى غطاه فيما بعد باكوام النسالات ، مستخدما قدميه فى ذلك ايضا . ثم اختفى بدوره فيهـا حاشرا نفسه تحت السقف ، ووراء ظهر رفيقه . جمدا ، متمددين ، مروضين انفاسهما بصعوبة . فيما اخترقت الانف رائحة حادة حريفة ، وغطت الوجه مزق النسالات ، وتسللت الى تحت الياقة شاكة حاكة جلديهما . وحاول ريباك ، مرهفا سمعه ، ان يفهم ما اذا جاء الالمان الى القرية متتبعين آثارهمـا ، ام ان هذا القدوم محض صدفة . فاذا جاؤا مقتفين الاثار فانهم باحثون عنهمـا لا محالة . ولذلك فلا منجى لهمـا هنا . كان صدر سوتنيكوف يخشخش بصوت مسموع مما اعاق السمع ، ورغم هذا فقد حاولا ان لا يفلتا اى نامة قادمة من الخارج . اقتربت الاصوات من هنـاك حتى سيطرت البلبلة على ريباك ، كان الالمان يتحدثون مع ديمجيكا .

– تحية يا سيدة ! كيف الحال ؟

اتضح ان هؤلاء من الشرطة . عرفهم ريباك منذ اول كلمة . اجتازوا الباحة دون توقف ، قاصدين باب البيت كمـا يبدو . سكتت ديمجيكا لسبب ما . فتمنى ريباك متوتر الجسم الى آخر حد ان يمضى هؤلاء دون ان يدخلوا البيت . وتصاعد صوت كالح اليه من اسفل :

– لماذا تسكتين ، ولا ترحبين بضيوفك ؟

– ضيوف مثلكم يُحسن دعوتهم الى مقبرة .

ردت المرأة ، فيما قال ريباك مع نفسه باسف : «ليس هكذا يا امرأة ، ما الداعى للاختصام معهم !» تركت كلماتها الخشنة فى قلبه خوفا من انها تستثيرهم فلا مفر من المصيبة آنذاك .

– ماذا دهاك ! وما الذى لا يرضيك ؟

– راضية ، فرحة ، وكيف لا !

– كفى ، كفى ، هل عندك فودكا ؟

– وهل عندى دكان يا بنى آدم !

– اذن ، هيا ، دبّرى لنا زوجا من المقانق !

– آه ما ابسط طلبكم ، وهل تريدون ان اصنعها لكم من لحم القطط ؟ نهبتم خنزيرى والآن تريدون مقانق !

وفحّ صوت آخر بضغينة :

– هكذا تستقبليننـا ؟! لو كنا من الانصار لقدمت لنـا القشطة ربما .

– اطفالى لم يروا القشطة منذ نصف عام .

– سنتأكد من هذا الامر الآن !

بالطبع ، كان خطأ التحدث معهـم بهذه الطريقة الجافـة الغاضبة ، وها هم يتريثون عند هذا البيت ، تردد وقع اقدامهم الثقيل فى المدخل . ولعلهم لم يكونوا قد فتحوا الباب بعد عندما جمد قلب ريباك من هذه الفكرة المباغتة البسيطة : ماذا لو قرروا الصعود الى العلية بحثا عن المقانق ؟ ولكن ، كلا ، فقد سمع غطاء الصندوق يفتح ، وسقط شىء ما هناك وتدحرج على الارض مصحوبا بجعجعة معدنية عالية . وفكـر ريباك متمددا بسكون ، محاذرا التململ ، مشاخص النظرة الى العمود الاسود الجاف : كلا ، لقد جاؤا ليس فى طلبهمـا ، جاؤا للبحث عن مواد غذائية ، عمل الشرطة المعتاد فى القرية ، اما فى المقبرة فقد تركوا دورية كمنت لحراسة الطريق تحسبا لكل ما قد يحدث ، فى اغلب الاحوال .

كانوا ما يزالون يواصلون التفتيش فى المدخل ، عندما ارتعص سوتنيكوف بشكل غير طبيعى ، وحشرج صدره بطريقة فظيعة ، فمات ريباك تقريبـا لحظة من الذعر ، فقد تصور ان رفيقه على

وشك ان يبدأ السعال . الا انه يفعل ذلك ، فقد سيطر على نفسه باعجوبة ، وهدأ ، بينما صفق اولئك ، فى الاسفل ، باب البيت وراءهم وتصاعد صوتهم الخافت من الداخل الآن .

– واين رب البيت ؟ فى موسكو ؟

– ومن اين لى ان اعلم ؟

– لا تعلمين ؟ ولكننا نحن نعلم ! ستاس ! اين رجلها ؟

– ذهب الى موسكو ربما .

– ايا قحبة ! تتكتمين ؟ هيا اعطها ضربة !

صاحت ديمجيكا بوحشية :

– آآآه ! يا اوغاد ! لتنفقوا قبل حلول المساء ! لتنقر الغربان عيونكم ! لتكن رؤيتكم لاولادكم حسرة فى قلوبكم !

– آخخ ! هكذا ! يا ستاس ! . .

تصايح الاطفـــال داخل البيت مذعورين ، وانقطعت صرخة الصبية . وفجأة انفجر السعـــال من صدر سوتنيكوف المتوتر ، كاطلاق نيران المدافع . وكأن شيئا ما تمزق داخل ريباك ، جمحت يده تحت النسالات الى فم سوتنيكوف ، ولكن هذا سعل من جديد ، وحل السكون دفعة واحدة داخل البيت ، وكأن الجميع قفزوا منه . ضغط ريباك بقوة لا مثيل لها على فـــم سوتنيكوف ، الذى تلوى متعذبا محاولا كظم سعاله الجامح . الا ان الاوان لذلك بدا وكأنما قد فات . لقد سمعوهما .

– من هناك ؟

سُمع اخيرا من اسفل .

– لا احد . عندى قطة مصابة بالبرد ، وها هى تسعل .

قالت ديمجيكا ذلك مذعورة وقد كفت عن البكاء . ولكن صوتها غير الواثق تماما لم يقنع افراد الشرطة كما يبدو . فأمر صوت كاسر عال :

– ستاس !

كتم ريباك انفاسه ، واعيا بجلاء فائق ان كل شىء قد ضاع . يجب الدفاع عن النفس الآن ، واطلاق النار ، ليهلك ايضا هؤلاء المأجورين . الا ان املا اخيرا بحدوث معجزة قـــد راود ذهنه ؛ فلعلهم قد يولون بعيدا عنهما فجأة !

اهتز البيت اثر اصطفاق الباب بالجدار ، وتدفق افراد الشرطة بدبيب قطيع مستثار الى المدخل ، ثم قرقع الباب الخارجى مفتوحا على سعته ، فاصبحت العلية اوفر نورا . حملق ريباك بنظرة لا ترى نحو ضلع اسود لعارضة نبـــا خلفها من القش منجل عتيق صدىء . وارتسمت على صفحة السقف المبطن بالقش بضع ظلال متحركة نفذت الى العلية من اسفـــل ، حيث هدر الصوت الكاسر المعتاد على اصدار الاوامر :

– سلـّم ، هاتوا لنا سلما !

– ليس عندنا سلم . ليس هنـــاك احد . ما الذى تبحثون عنه هناك ؟

انخرطت ديمجيكا فى البكاء من جديد .

طرق ، ضربة على الجدار ، وجلبة جزمة على الواح خشبية ، وصوت منهك قريب جدا :

– ما اشد الظلام ! يا للشيطان ! لا يرى اى شىء هنا !

– كيف لا يُرى ! آمرك بالصعود الى هناك اللعنة عليك ! !

–هيى ! من هناك ؟ اخرج والا رميت قنبلة يدوية عليك !

كان مصدر الصوت قريبا من مزغل العلية . ولم يُسمع وقع اقدام على ارضيتها . لعل الشرطى لم يعتزم تجاوز فتحة المزغل . فهدر الصوت الامر من اسفل عاليا :

– سيخرج لك هكذا بالطبع ! هل هناك اى حاجيات ؟

– يوجد ما يشبه القش .

– اطعنه بحربة بندقيتك .

– يصعب هذا من هنا .

– آه يا ابن الزانية ، ويسمونك مقاتلا ! خذ هذه البندقية الرشاشة ! مشـّط العلية بها !

«تلك كانت النهاية ، الخاتمة» ، ذلك ما قاله ريباك لنفسه ، وقد يشعر بصلية ساخنـــة تمزق جسده شذر مذر . واذ حاول استغلال آخر ما تبقى من اللحظات ، بحث فى ذهنه هنا وهناك عن مخرج من هذا الوضع ، ولكنه لم يجده فى ايما زاوية ، لقد سقطا فى الفخ سقوطا محكما ، انتهى كل شىء ، وعليه النهوض الآن . الا انه رغب فجأة ان ينهض سوتنيكوف اولا ، فهو جريح ومريض ،

وسعاله بالذات ما افصح عن وجودهما ، ولهذا فعليه هو ان يستسلم للاسر . ولكن سوتنيكوف كان متمددا وكان الحياة فارقته ، منثنيا على نفسه وقد بدا وكانه حتى كف عن التنفس .

– آخ ، لا تريد الخروج !

وتصاعدت ، من مزغل العلية ، طقطقة معدنية جافة ، مالوفة لدى ريباك جيدا ، تصدر عند تحريك ترباس البندقية الرشاشة عند الاستعداد لاطلاق النار . فتوجب بعد ذلك توقع حدوث اسوا امر ، امر لا يتبعه امر آخر بعد . الا ان لحظة ما ظلت تفصلهما عند حد اخير ممتد بين الحياة والموت ولكن سوتنيكوف لم يتململ حتى آنذاك ، بل ولم يسعل ، فاستقطع ريباك امره آخر مرة ، ودفع النسالات بجزمتيه . صرخ الشرطى :

– ارفع يديك !

واذ نهض ريباك خشى متهيبا ان يطلق هذا النار عليه جزافا . زحف على اربع من الزاوية ، ثم نهض بعد ذلك . وكان راس الشرطى جامدا بحذر وتخوف فى عمرته القوزاقية فوق الالواح الخشبية المحيطة بالمزغل ، وسبطانة البندقية الرشاشة مصوبة اليه . كان افظع امر الآن بالنسبة لريباك هو هذه السبطانة فهى التى اصبحت تقرر كل شىء ، نظر اليها شزرا ، بالحاح ، ورفع يديه . لم ينطلق الرصاص منها حتى هذا الحين . وهكذا ، فقد تاجل موته . واما ما عدا ذلك فلم يكن ذا معنى لديه .

– آه ! وقعت يا شاطر فى حضن امك ! اللعنة عليك !

رحب الشرطى بهما ، بنبرة ملاطفة تقريبا ، وصعد الى العلية .

١٠

جلبوا سلما من مكان ما ، وصعد الى العلية ثلاثة افراد من الشرطة ، نقبوا فى الزوايا ، نكتوا النسالات ، وصادروا البندقيتين . وفى الوقت الذى قام فيه اثنان بالتفتيش ، اوقف

ثالثهم الاسيرين ، الى جانب ، قرب المدخنة ، تحت حراسة بندقيته الرشاشة .

اتكا سوتنيكوف على المدخنة وراح يسعل رافعا قدمه الحافية ، وقد انفسح المجال له اخيرا الآن ليسعل كما شاء . ومن الغريب انه لم يخف افراد الشرطة ولم يخش كثيرا اطلاق النار عليه ، كان غارقا فى شعور بالذنب وتانيب الضمير ، بسبب ما لحق ريباك بل وديمجيكا ، من جرائه . كان مستعدا الآن لدفن نفسه حيا فى الارض على ان يقابل ديمجيكا مرة اخرى ، التى لها الحق الآن ان تقتلع عيونهما لما ينتظرها من مصاب . واعتقد يائسا الآن بعبثية استسلامهما ، فقد كان الاجدى ترك الشرطة توجه نحوهما نيرانها ، لتقضى عليهما الاثنين فقط .

دفعوهما نحو السلم الى اسفل مطلقين صيحات خشنة ، وكانت ديمجيكا تنشج فى المدخل قرب الباب المفتوح على البيت ، فيما بكى لينيك اصغر اطفالها بذعر خلف الحاجز . نزل ريباك من السلم بسرعة ، اما سوتنيكوف فقد تلبك هابطا بيديه وحسب ، وفى الحال امسك به كبير الشرطة الثلاثة ، العريض الكتفين ، الجهم الوجه ، ذو الجهامة الشبيهة بهيئة قطاع الطرق ، وفى معطف اسود من معاطف عمال السكك ، فسحبه من كتفه والقى به مع السلم عبر الجرن الى الارض ، ورغم ان سوتنيكوف لم يرتطم بها بقوة ، لكن ساقه الجريحة اصيبت فى موجع ، فاسودت الدنيا امام عينيه واحتبست انفاسه ، ثم بدأ ينهض بعد قليل عن الارض بوهن .

صاحت ديمجيكا :

– ما الذى تفعلونه يا اشرار ! انه جريح ، الا ترون ؟ ! العمى ! يا اكلة لحوم البشر !

استدار كبير الثلاثة بفخفخة نحو ذلك المعتمر بالقوزاقية :

– ستاس !

فهم هذا المطلوب منه فى الحال ، فانتزع المدك من بندقيته ، واهوى به شاقا الهواء بصفير على ظهر المرأة .

– ويلاه !

فصرخ سوتنيكوف محشرجا وقد فقد السيطرة على نفسه :

– اوغاد ! ما الذى فعلته المرأة ؟ ما الذى فعلته ؟

واعادت اليه موجة الغضب شيئا من قوته ، فتشبث بالجدار حتى نهض مختضا بكليته ، مستديرا الى ستاس . لم يفكر فى تلك اللحظة باحتمال ان تكون صرخته هذه الاخيرة ، وان هذا الشرطى قد يقدم على اطلاق النار عليه فى الحال . الا انه حتى مع امكان تحقق هذا الاحتمال فانه لم يستطع منع نفسه من محاولة الذود عن ديمجيكا التعسة الحظ هذه ، التى شعر بذنبه الشديد امامها . ولكن ستاس ، وقد كان ماهرا فى تنفيذ اوامر الغير فقط ، لم يعتزم اعدامه حاليا كما يبدو ، بل اكتفى بما يشبه الابتسامة مكشرا عن اسنانه ردا عليه ، واعاد المدك الى بندقيته بدقة وسداد .

– سوف تعرف فيما بعد قيمة ما فعلت !

سيطر سوتنيكوف على نفسه الى حد ما ، التقط انفاسه ، وبدا يهدا . كل شىء كان بسيطا ، معتادا للغاية . اذا لم يُعدما فى الحال ، فسيبداون استجوابهما وتعذيبهما ، وبالطبع سينتهى ذلك بالموت . لم يعوّل سوتنيكوف على امل بالخلاص بطريقة ما ، اذ ان اماله جميعا قد انهارت الى الابد .

قاموا بتفتيشهما فى المدخل ، صادروا من جيوبهما كل ما فى حوزتهما من لوازم بسيطة قليلة واطلاقات ، ثم شدوا وثاقهما جيدا ، فربطوا يدى ريباك الى الخلف ، ويدى سوتنيكوف الى الامام . واجلسوهما على الارضية الطينية الخشنة . ثم ذهب رئيسهم الى ديمجيكا فى البيت ، وظل مَنْ اسموه ستاس قرب العتبة فى حراستهما .

كان هواء المدخل القارس يلذع صدر سوتنيكوف المريض ، ورأسه الدائخ يدور غثيانا ، واذناه المتجمدتان يحكهما البرد ، فيما فقد قلنسوته فى مكان ما ، لربما تركها فى العلية ، وها هو يجلس الآن حاسر الراس اشعث الشعر . وساقه الجريحة تزداد بردا والما . تورمت ركبته ، فلم يستطع ثنيها الا بصعوبة ، وانتفخت قدمه الحافية وامست حمراء مزرقة . كان عليه ان يلتمس اعطاءه جزمته ، ولكنه تصور مبلغ الالم الذى سيعانيه من انتعالها ، فقرر تجاهل الامر . اصبح كل شىء لديه سيان ، لتتجمد ساقه ، قريبا لن يحتاج لها . وراح ، ساعلا طيلة الوقت

فى جلسته ، يرقب خفيره الشاب الخفيف الحركة ، الذى يعتمر طاقية قوزاقية سوداء انيقة ، وابتسامة لطيفة جذابة – غريبة على رجل كهذا – تلوح احيانا على وجهه المليح ذى الانف الكريم المحتد ، وخلف هذه الابتسامة تخايل لسوتنيكوف شىء ما له صراحة الشباب ، بل واليف ايضا ، له علاقة بحياة الجنود ، لربما بسبب ارتدائه سترة عسكرية وجزمة جيدة من جلد الكروم ، حشرت فى كاحلها اطراف بنطلونه الاسود المدنى ، فيما حمل على احد كتفيه بندقية لها حزام ، واتكا بكتفه الاخر على مستطيل الباب ، باصقا قشور حب القرع من فمه ، ناظرا الى مكان ما فى الشارع ، منتظرا واسطة نقل . ولكن واسطة النقل لم تظهر ، فجلس على العتبة ، بعد ان راوح برهة قصيرة ، محتضنا البندقية بين ساقيه . وتفحص اسيريه عن قرب بالحاح ، بنظرة هازئة ، لكنها خالية من الشماتة والحقد .

– اذن فقد اختبأتما مثل الصراصر خلف النسالات ! ها !

القى ريباك نظرة عليه ، ثم طاطا راسه من جديد .

– اما الآن فسوف يغسلونكما ويحمّمونكما ويعلقونكما لتيبسا بترو ! ها ها ها ! ! ! !

ضحك الشرطى ضحكة طبيعية لطيفة جعلت سوتنيكوف يفكر دون ارادة : «شاب مرح ، خلى البال !» الا ان ضحكة هذا الشاب انقطعت فجاة ، وهدر بنبرة مختلفة تماما بسباب مقذع مخيف :

– يا ابناء الزنى ، سنمزق امعاءكما مقابل خودورونوك الذى قتلتماه .

قال ريباك بقنوط :

– نحن لا نعرف اى خودورونوك .

– لا تعرفانه ؟ لعل غيركما اذن من اطلق النار ليلا ؟

– نحن لم نطلق نارا .

– انتما ام غيركما ، الامر سيان ، ولكننا سنكسر لكما اضلاعكما فى كل الاحوال . افهمتا ؟

اتخذ ستاس سيماء الجد ، ولاح فى عينيه بريق معدنى ، واختفى عن وجهه مرة واحدة كل ما بدا لهما من قبل طيبا فى ملامحه ، فاسحا المجال للشر والتصميم الحقود .

سأل ريباك بصوت واطئ :

– خدمت فى الجيش ؟

– اى جيش ؟

– الاحمر على الاقل .

فانفجر الشرطى بغتة بسعار اشد ، وقد جحظت عيناه الجميلتان بشكل رهيب :

– خرائى على جيشكما هذا ، فهمت ؟

ثم ارتخت قسمات وجهه شيئا فشيئا ، ولانت ، وظهرت تلك الابتسامة الجذابة على شفتيه . وراح يضرب باسفل جزمته تربة المدخل بانتظام .

– والسترة العسكرية ؟

– آخ ، السترة العسكرية ! اخذتها من احد العاملين السياسيين ، بعد ان لم يعد بحاجة اليها – قال الشرطى ذلك واطال نظره فى ريباك ثم اضاف بهدوء – معطفك النصف ناخذه ايضا ، سيصبح من نصيب بوديلا ، فالدور له الآن . فهمت ؟

– الا تختنقون بهذا كله ؟

قال سوتنيكوف ذلك بصوت واطئ ، يكاد يفقد السيطرة على نفسه . فرفع ستاس رأسه :

– ماذا ؟

– الا تختنقون ، اقول ، بهذه المعاطف وبما تنهبون على العموم ؟

قال ستاس بنبرة كاسرة :

– ولماذا الاختناق ؟ وراءنا المانيا ، افهمت ايها العبيط ! واما انتما فسيكون من نصيبكما الموت ، هذا امر لا شك فيه ! اللعنة عليكم !

وماذا اذن بعد ، هذا ايضا بسيط ومفهوم ، لم يتوقعا غيره . ريباك يجلس مطأطئا رأسه بقنوط ، اما سوتنيكوف ، فقد حاول فى نصف اضطجاعته التحرك بحذر ، لقد تخشب حوضه ، وحز الحبل الضيق المشدود قويا حول رسغيه كالسكين فى عظمى ساعديه .

جاء الشرطى اخيرا بمزلجتين ، ظلت احداهما فى الشارع ،

وتقدمت الاخرى حتى العتبة ، ينبعث من الثلج تحتها الصرير ، فيما كان حصانها يطبطب بحوافره . فنهض ستاس عن ارضية المدخل ودفع بريباك اليها ، ثم رفع سوتنيكوف عن الارض بجرة عنيفة ، فوصل هذا العربة كيفما اتفق ، ليسقط على قشها الى جانب رفيقه . ثم صعد الشرطى الى المؤخرة . وكان الحوذى عجوزا مرعوبا فى معطف ممزق ، ارتقى المقدمة بحذر . سحب سوتنيكوف قدمه الحافية المتجمدة ، متغلبا على المه ، فاخفاها تحت ذيل معطفه ، شعر بالتعاسة مرة اخرى ، وبدا له انه على وشك فقدان وعيه بين لحظة واخرى ، وغالب وهنه والمه باذلا جهدا جبارا .

اعتقد سوتنيكوف انهم فى سبيلهم الى المضى ، ولكن كبير الشرطة لم يظهر من داخل البيت لسبب ما ، فذهب فى اثره ذلك الذى جاء بالمزلجة الى هنا . وسرعان ما تناهت الى الخارج اصوات وبكاء ديمجيكا . تنصت سوتنيكوف قلقا الى ذلك العويل ؛ هل سيخلون سبيلها ام لا ؟ مرت دقيقة بدا خلالها انهم يفتشون هناك عن شىء ما ، تعقع السلم على جدار المدخل ، بكى الاطفال ، ثم ناحت ديمجيكا بيأس :

– ما الذى نويتم عليه يا اوغاد ! لينقصف عمركم ! لتصبح رؤيتكم لامهاتكم حسرة فى قلوبكم !

– هيا ، هيا ، اسرعى ، قيل لك !

– مع من اترك الاطفال ؟ يا قساة ، يا غلاظ القلوب !...

– هيا !...

نظر سوتنيكوف الى ريباك الذى جلس الى جواره ، موليا جنبه اليه ، وقد اكتسى وجهه النابت الشعر بتقطيبة سادرة ، فقد كان هناك ما يركب الهم فى الراس حقا .

انسابت العربة على ذلك الدرب بمحاذاة السياج ، وخرجوا الى الطريق ، ثم انعطفوا حول المقبرة . اخفى سوتنيكوف رأسه فى ياقة المعطف المرفوعة ، واتكأ قليلا على ظهر ريباك ، واغمض عينيه فاقدا الحول . اهتزت العربة تحته ، وزحفت من جانب الى اخر ، فيما ظلت قزقزة حب القرع تسمع من ستاس . يبدو انهم يقتدونهما الى مركز الشرطة او الى الجستابو . واذن فقد بقى

لهما القليل من الوقت الهادئ ، وتوجب استجماع القوى والتهيؤ لاسوأ امر . وبالطبع فانهما لن يفصحا عن الحقيقة لهم ، رغم انه لن يمكن كما يبدو اخفاء واقع انهما انما جاءا من الغابة ، المهم ان يحموا ديمجيكا ، المرأة المسكينة ! جاءت هرعة الى البيت دون ان يخطر على بالها ما فى الانتظار . صاحت الان بشيء ما وراءهم ، اطلقت سبابا ، وبكت . فرد الشرطى الحاقد السباب عليهــا باقذر الكلام ، ولكن ديمجيكا بدورها لم تقصر فى حسابه ايضا .

– وحوش ! قتلة ، المان ! الى اين تأخذوننى ؟ الاطفــال هناك ! احبائى ، اعزائى ! حبيبتى غالا ستدبرين امركم ؟!

– كان يجب التفكير بهذا من قبل .

– آه يا وغداً تعساً ! اتلومنى يا بهيمة المانية ! ما الذى فعلته لكم ؟

– اخفيت فى بيتك قطاع طرق .

– انتم قطاع الطرق . اما هؤلاء فقد دخلوا وخرجوا مثــل بقية الناس . من اين لى ان اعلم انهم اختبأوا فى العلية ؟ وهل انا عدوة اطفالى لافعل هذا ؟ اوغاد ! فاشست ملعونون !

– اخرسى ، والا حشوت فمك بخرقة !

– يا اوغاد ، ليقعدوكم على خوازيق محبة بالله !

– حسنا ، قف يا ستاس !

سمع ذلك من العربة الخلفية . ثم توقفوا قبل اجتيــاز شجرتى باتولا رقيقتين ، جمدتا فى كثيب من الحور وراء الحفرة .

التفت ريباك والحوذى الى الخلف ، اما سوتنيكوف فقد انكمش على نفسه يرمضه التوقع بحدوث شيء وحشى رهيب ما . وقد صح توقعه ، اذ سرعان ما صرخت ديمجيكا ، تقلبت فى العربة ، وصر طوق الحصان ، بل ان الدابة تحركت على الثلج قلقة . ثم سكن كل شيء فيما بعد . كان ستاس قد قفز من العربة ، ثم عاد اليها بعد برهة قصيرة ، وتهاوى فى مكانه راضى النفس .

– لقد حصلت هذه المرأة المسعورة على جزائهــا مقابــل صياحها ! وضعنا القفاز فى فمها !

استدار سوتنيكوف بجهد فوجد نفسه وجها لوجه مع الخفير :

– جلادون ! وحوش !

– ادر انفك يا محامى والا افرغت دمك من جسمك !

صرخ الشرطى بذلك وقد رسم على وجهــه تعبيرا ضاريا ، ولكن سوتنيكوف ، الذى عرف طينة هذا الرجل ، لم يلــق بالا لتهديده ابدا .

– حاول يا وغد !

– ها ، ساحاول ! اتعلم انى استطيع قتلك الآن دون ان احاسب على هذا ؟ لسنا فى ارض سوفييتية يا صاح !

– هيا اقتلنى اذن !

فاختطف الشرطى بعزم استعراضى ترباس بندقيته :

– ماذا ، هل غسلت يديك من الحياة ؟

الا انه اكتفى بدفعه بسبطانة البندقية فى صدره ، واطلق سبابا مقذعا . ولكن سوتنيكوف ظل ثابت الجنان ، لم يرمش له طرف ، ولم يخش هذا اللقيط . كان يعرف ان عليــه الرد على جلافته الفظة بجلافة مماثلة . فمثل هؤلاء الناس لا يفهمون الا هذا الاسلوب . وقال له ، املا ان يسمعه ريباك ، ملمحــا اليه ان يحذو حذوه عند الاستجواب :

– هذه المرأة ليست مذنبــة ، أتسمع ؟ لقد صعدنا الى العلية دون علمها .

فهز ستاس رأسه مخفضا بندقيته :

– هذه الحكاية قصها للعجائــز . انتظر ، سيطرد بوديلا الشيطان من راسك فتصحو . انتظر !

– بوديلاك هذا لا يستحق بصقة !

– لا تتعجل ، ستبصق قريبا ، ولكن بصقتك ستكون من دم !

«اى شيطان يدفعه لمماحكته ؟» فكر ريباك ممتعضا وهــو يستمع الى هذيان سوتنيكوف الغاضب مع الشرطى .

كانوا ينقلونهما على الطريق التى جاءا بها صباحا الى القرية ، ولكن الحقل لم يعد الآن طويلا ولا مستويا قنوطا كما كان من قبل . وكان الحصان يمشى حثيثا ضاربا العربة بذيله المخشوشن فى القَرَس . وفكر ريباك بيأس متزايد ان مضيهم سريع اكثر من اللازم ، فقد كان راغبا بكل قواه اطالة مشوار هذه السفرة ،

واحس بكل ما فى روحه من عنفوان ان هذه الساعات آخر نصيب له من الحرية ، فتضاءل معها الامل بامكانية الخلاص ، اذ لن يتاح له منها الكثير الان . لعن نفسه على اهماله ، وعلى صعوده دون تفكير الى تلك العلية المشؤومة ، وعلى تلبثه فى ذلك البيت عند طرف القرية وعدم تجاوزه بعيدا فى حين علمته الحياة العسكرية واى علم تجنب البيوت فى الاطراف التى يدور الالمان حولها دائما . لم يستطع ان يغفر لنفسه لجوءه المتسرع الى هذه القرية تعيسة الحظ . كان الافضل لو تلبثا النهار فى اى حرش من الاحراش . وعلى العموم فالمهمة هذه لم تكن محظوظة ، بخاصة والتعويل على خاتمة ناجحة لم يكن مضمونا منذ البداية . وكان من المستحيل ببساطة تكوين تصور مسبق لكل ما قد حدث .

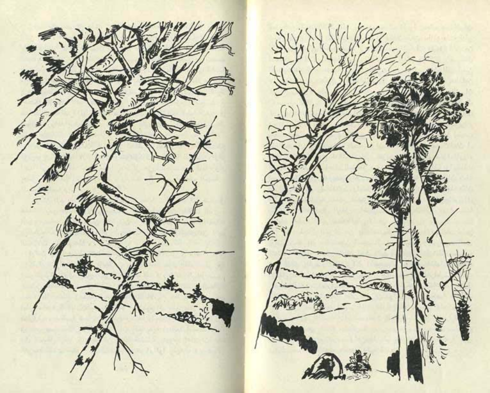
لقد حدث كل ذلك بسبب سوتنيكوف . فيأس رفيقه الذى كان ريباك يدفعه عن نفسه دائما بقوة ارادته حتى الآن ، لم يعد يستطيع رده الآن عنه . لقد امسى ريباك يعى جيدا انه لو لا سوتنيكوف ، لو لا مرضه ، واصابته بالطلق النارى فيما بعد ، لتمكنا بالتأكيد من الوصول الى الغابة ، وافلتا فى كل الاحوال من ايدى الشرطة . فقد كانت فى حوزتهما بندقيتان ، امكن استخدامهما فى الذود عن نفسيهما . ولكن ، وما دام قد سمح لنفسه الصعود الى علية فى بيت ملىء بالاطفال ، فالبندقية هنا اصبحت جالبة للضرر اكثر منها للنفع .

اطلق ريباك شتيمة يائسة بينه وبين نفسه وقد تصور بوضوح جماعتهما تنتظر وصولهما فى الغابة بصبر فارغ ، آكلة اخر حبات من الجودار فى الجيوب ، مفكرة انهما يسوقان اليها بقرة ربما ، سببت تأخيرهما . . . وكان بالامكان الحصول على بقرة بالطبع ، بل واثنتين . وما عاد يوما ما بيدين خاليتين ، كان يجد دائما ما يعثر عليه ، ما يحصل عليه بشتى الوسائل . وكان بمستطاعه ان يفعل ذلك الآن ايضا لولا سوتنيكوف .

كان التقاؤه بسوتنيكوف مصادفة ، قبل اسبوع او عشرة ايام من ارسالهما فى هذه المهمة ، وذلك عندما كانت مجموعتهما تعبر الطريق العامة من غابة بوركوفسكى . لقد تأخروا هناك ايضا ، خرجوا فى وضح النهار الى الطريق فاصطدموا بقافلة شاحنات

المانية . فتح الالمان النار عليهم ، ثم راحوا يتعقبونهم تاركين شاحناتهم . ولكى تستطيع المجموعة الافلات من مطارديها ، ابقى الآمر من يغطى انسحابها : ريباك ، سوتنيكوف ورجل آخر من الانصار لقبه غاستينوفيتش . ولكن ، أيستطيع ثلاثة رجال الصمود طويلا بوجه بضع عشرات من الالمان المسلحين بالرشاشات ؟ وهكذا ، فقد اضطروا بدورهم للتراجع ، مطلقين النار بين آونة واخرى من بنادقهم ، بينما ازدادت النيران الالمانية كثافة . وفكر ريباك : لقد حلت النهاية ! وكان الحظ كان يعاندهم عن عمد وجدوا ان طريق الغابة قد انتهت ، وامتدت وراءهم حقول ثلجية واسعة ، ولاحت على مبعدة اجمات صنوبر ، سعت اليها بقايا مجموعتهم غير الكبيرة بسرعة . آه ، ما اصعب على المرء ان يبقى سليما تحت نيران بنادق عشرين من الالمان فى ذلك الحقل المفتوح ! قفز ريباك سوية مع غاستينوفيتش ، العجوز الخامل من اهالى المنطقة ، وراحا يقطعان الحقل بوثبات قصيرة متقطعة . اما سوتنيكوف فقد فتح نيرانه على الالمان بدقة وغزارة جعلتهم يتساقطون واحدا بعد آخر فى الثلج ، ولعله كان قد جندل عددا اخر منهم عندما وصل ريباك وغاستينوفيتش الى ركمة من الاحجار فى الحقل ، اختفيا وراءها فى الحال ، وراحا يصبان بدورهما نيرانهما باتجاه الالمان .

ظلا يطلقان النيران من بنادقهما فى ذلك الاتجاه خمس دقائق ، تقريبا ، فاسحين المجال لسوتنيكوف للهرب ، الذى استطاع اجتياز اخطر منطقة تحت وابل من نيران الرشاشات ، حتى افلح بالوصول الى ركمة الاحجار ، فتوضع خلفها فى الحال واطلق صاحبيه ليواصلا هربهما . حسن ان الخراطيش كانت كافية انذاك . وسرعان ما جندل سوتنيكوف المانيا خارق النشاط ، قفز بشجاعة امام الاخرين وراح يهيل رصاصه الخطاط عبر الحقل نحوهم بغزارة . خفت غلواء الاخرين واحكموا من جريهم ، ورغم ذلك فقد اطالت احدى الرصاصات غاستينوفيتش ، الذى جلس على الثلج بشكل غريب ، وهوى على جنبه . ارتمى سوتنيكوف اليه مباشرة . ولكن هذا لم يعد بحاجة لعون ، فالتحق بريباك بسرعة مستصحبا معه بندقية الشهيد .



انطرحا خلف تل صغير ، لقد بقيا وحدهما ، والمكان هنا اكثر امنا ، التقطا انفاسهما ، وكان بالامكان مواصلة الهرب . ولكن ريباك تذكر فجاة ان قطعة من الخبز ظلت فى حقيبة غاستينوفيتش ، استطاع هذا الحصول عليها امس فى احد البيوت . لقد ظلوا جياع طيلة اسبوع ، فسيطرت هذه القطعة من الخبز على انتباه ريباك تماما ، بحيث خلع عنه التردد بعد برهة ومضى زاحفا الى القتيل . ارتفع سوتنيكوف اعلى قليلا واحتجز الالمان ثانية بناره مغطيا ريباك ، الذى زحف بنجاح مسافة المائة متر الى جثة غاستينوفيتش . اقتسما قطعة الخبز فى الحال ، وراحا يمضغانها ، حتى اتيا عليها تماما مع اللحاق بمجموعتهما .

مر كل شىء بسلام انذاك ، استقرت المجموعة فى المستنقع غوريلويه ، بينما لازم ريباك وسوتنيكوف بعضهما البعض ، رغم انهما لم يكونا قد تعرفا جيدا بعد كل على صاحبه ، ناما جوار بعض ، اكلا من قصعة واحدة ، وارسلا مع بعض فى هذه المهمة ، للسبب نفسه ربما .

ولكن النهاية هذه المرة واقعة لا محالة . لم يعد ثمة شك فى هذا . ليس مهما انهم لم يمسكوا بهما متلبسين باطلاق النار ، المهم انهما ضبطا حاملين بندقيتين ، هذا وحده كاف لاعدامهما . وبالطبع فان ريباك لم ينتظر شيئا آخر عندما نهض من تحت النسالات ، ورغم هذا . . .

كان راغبا فى الحياة ! لم يفقد حتى الآن الامل فى ذلك ، وكل لحظة تمر يراوده الرجاء بالخلاص ، والالتفاف حول القدر ، لم يعد لسوتنيكوف الآن معنى كبيرا لديه ، فما دام قائد البطارية السابق هذا قد وقع فى الاسر ، فقد تخلص من التزاماته السابقة معه . فلا يحتاج ريباك الا لحسن الحظ الان ، وما عداه فضميره امام صاحبه لا غبار عليه ، فهو لا يستطيع ان ينقذ ، فى مثل هذه الظروف ، شخصا مصابا بجرح . وهكذا راحت عينا ريباك تدوران فى محجريهما طيلة الوقت ، منذ ان رفع يديه فى العلية مستسلما ، وفى المدخل ايضا ، باحثا عن لحظة مناسبة للهرب ؛ الا ان هذه الفرصة كانت معدومة هناك تماما . ثم اوثقوا يديه ، وباءت كل

محاولاته للتملص خفية من شد الحبل حول معصميه بالفشل ، ففكر : حبل لعين ، أيعقل ان يُكتب عليه الهلاك بسببه ؟

لعل بالامكان ان يجرب حظه مع يدين موثقتين ؟ ولكن هذا يقتضى مكانا افضل من هذا ، غابة او وهدة ما ، منخفض تغطيه الاحراش او منعطف ، وليس مثل هذا السهل الذى يمرون به الآن . المصيبة هنا ان الارض خلاء مفتوح ، منحدر ، ثم تمتد الطريق بعد ذلك نزلا . مروا حينا بجسر صغير ، ولكن المجرى تحته لم يكن عميقة كما يجب ، بل كان مفلطحا ، يصعب الاختباء فيه . قلب ريباك النظر حواليه ، محاولا ان لا يتلفت كثيرا فى العربة ، باحثا عن مكان مناسب للهرب ولو ضؤل الضمان بالفلاح ، الا انه لم يعثر على ذلك المكان . وكانت البلبلة تتناهب ريباك باطراد كلما مر الوقت ، وكلما اصبحوا اكثر قربا من البلدة المقصودة . ولم يعد الشك يتطرق الى هذا الامر : لقد قربت منيتهما !

١١

لم يشك سوتنيكوف دقيقة بما يُنتظر من هلاك محتوم . فصمت متوترا ، وقد اثقل عليه الاحساس بالذنب مضاعفا ، بسبب ريباك مرة ، وديمجيكا ثانية . وقد اقلقه امر المرأة بخاصة . وكذلك فكر بتبادل اطلاق النار فى الليل ، واحتمال اصابة احد هؤلاء الزعران ، الذى اسموه خودوروتوك . وبالطبع فان سوتنيكوف هو من اصابه .

كانت المزلجتان قد اقتربتا من القرية ، وانداحت الطريق الان بين صفين من اشجار الصفصاف الملتوية الجذوع ، ثم ابتدأ الشارع بالامتداد . لم يعد الوقت مبكرا ، ولكن الدخان لاح متصاعدا من بعض المداخن هنا او هناك ، وارتسمت شمس الشتاء الباردة فى غشاوة الزمهرير ، طفاوة معلقة على مقربة فوق السقوف المكسوة بالجليد . ومرت امامهم ، عبر الشارع ، امرأة عجلى تحمل على كتفيها ذراعا خشبية تدلى جردلان منها . واذ ابتعدت على الممشى نحو البيت نظرت ، بقلق ملغوز ، الى المزلجتين المخفورتين بالشرطة . والقت فتاة من باحة بيت مجاور ، وقد خرجت حاسرة الراس منتعلة حذاء

مطاطيا لترمى الى الثلج ماء الغسيل ، نظرات مشبعة بالفضول على الطريق ، قبل ان تختفى وراء الباب فزعة . وتصاعد نباح كلب من مكان ما ، بينما اشتبكت عصافير نزقة ، على اغصان الصفصاف العارية ، منتفشة الريش . تلك هى الحياة ، الصعبة القلقة ، ولكن المعتادة اليومية ، التى كف سوتنيكوف وكذا ريباك عن الاعتياد عليها منذ زمن طويل .

عبرت المزلجتان جسرا صغيرا ، واستدارتا عند بيت خشبى له تكعيبة على طابقه العلوى ، واتجهتا فى طريق جانبية ، يبدو انهم على وشك الوصول من مبتغاهم . ومن الغريب ان سوتنيكوف كان راغبا فى الوصول باسرع وقت ، فقد تخرمته ريح الخلاء ، اما القرية فهى تعنى ، كالمعتاد ، المأوى والراحة . ولكن الراحة هذه المرة لا تبشر بخير كما هو واضح . ورغم ذلك فقد رغب سوتنيكوف بالدخول الى اى بيت ، كى ينال ولو قسطا ضئيلا من الدفء .

ورأى سوتنيكوف من بعيد بوابة جديدة عريضة يحرسها شرطى ، فى معطف طويل ، وبندقية تحت ابطه . والى الجوار انتصب بيت حجرى متين البنيان ، وكان مخزنا من قبل ربما ، او مؤسسة ما ، له نوافذ اربع فى الواجهة الامامية مغطاة بشبكات حديدية . من الواضح ان الشرطى كان فى انتظارهم فوضع بندقيته على كتفه عندما اقتربوا ، وفتح البوابة على سعتها . فدخلت المزلجتان الى باحة كبيرة منظفة من الثلج ، لها مربط خيول عتيق عند السياج ، وسقيفة ما ومرحاض خشبى فى الزاوية . ظهر شرطى اخر عند العتبة ، متانق الهندام هذه المرة ببدلة المانية ، بينما ابيضت شارة مكوية بعناية عند ردنه .

– اجئتم بهما ؟

–وكيف لا ! – رد ستاس متباهيا – وهل ذهبنا لنرجع فارغى الايدى ؟! خذ ، تسلّم هذه الارانب !

قفز ستاس من العربة بخفة ، ودفع بندقيته بلا تحوط على كتفه . المكان محاط بسياج عال . لا سبيل الى الهرب من هنا اذن . تفحص سوتنيكوف البيت فى الوقت الذى نزل ريباك والحوذى فيه من العربة ، الجدران متينة ، المدخل العالى مصفح سقفه بالمعدن ، والدرجات تقود الى باب القبو . سيعرفان فى هذا البيت على الارجح

كنه المصائب على حقيقتها . اصفرت صفائح خشب الا بلكاش فى احدى النوافذ المشبّكة بدل الزجاج المحطوم ، وقد ارتسمت عليها حروف غوطية ما . كل شىء هنا مرتب منظف . النظام باد بوضوح فى هذا القاطع التابع للشرطة ، دعامة السلطة الالمانية فى الريف . اخرج الشرطى ذو البدلة الالمانية خلال هذه الاثناء مفتاحا من جيبه وتوجه على الدرجات الى اسفل ، حيث شوهد على باب القبو قفل عنابر ضخم معلق برزته .

– هنا ، خذهم الى هنا !

كانوا قد غادروا العربتين ، ستاس ، ريباك ، الحوذى ، وعلى مقربة نفض الشرطيان عن نفسيهما نثار الثلج والقش ، فيما وقفت ديمجيكا فى قنوط . واحس سوتنيكوف لمرآها باختلاج ممرض فى قلبه . كانت محنية الظهر ، بيدين موثقتين ، بينما احدودبت بشكل ملحوظ ، وتهدل منديلها حول رأسها على علبائها عكشا ، وتدلى قفازها الجوخ من فمها بشكل اخرق ، يبدو انهم لم يتعجلوا فى رفع هذه الكمامة عنها .

بذل سوتنيكوف جهدا غير قليل للخروج من العربة ، وكل حركة ندت عنه استثارت فى ساقه آلاما لا تطاق ، غالب هذه الالام واستطاع رغم ذلك التملص والنزول الى الثلج ، قافزا مرتين الى جانب العربة . انتظر ديمجيكا عامدا ، وما ان اصبحت بموازاته ، مشيحة ببصرها عنه تغربا ، حتى انتزع بيديه الموثقتين القفاز عن فمها .

– ما الذى تفعله ، ما الذى تفعله ايها العبيط ؟!

تصاعد هذا العواء خلفه ، ثم اصابته فى اللحظة التالية رفسة قوية من جزمة الشرطى ، طوّح به على اثرها ، فلاذ بالثلج .

سرى الالم الشديد من ساقه الى باقى انحاء جسمه ، واظلمت الدنيا فى عينيه ، ضغط على اسنانــــــه بصمت ، ولم يُدهش لذلك او يحزن ، فقد تقبل هذه الضربة عن استحقاق . ثم راح ينهض بعد ذلك ببطء على ركبة واحدة ، بعد ان اجتاحه السعال الضارى فترة ، والى جانب ، صب كبير الشرطة عليه جام غضبه وشتائمه :

– اتريد ان تلعب دور البطل يالقيط البلاشفة ؟ هيا يـــا ستاس ، خذه الى القبو ، ليرى بوديلا شغله معه !

تحول ستاس ، الخفيف الحركة ، المطيع الى سوتنيكوف فانتهب يده بجرة قوية ، ولكن سوتنيكوف وقع من جديد موثق اليدين على الثلج . الا ان ذراعى هذا الشرطى الشاب ، ذى القوة الوحشيـــة الخالية من الانسانية ، سحبتاه بخشونة ، ودفعتاه الى المدخـــل فالعتبة فالباب ، حيث اصطدم بقائمتها بقوة فى محاولته حماية ساقه المصابة . جره ستاس بتلّة واحدة عبر الرواق ، وضرب مصراع الباب بجزمته بشدة ففتحه ، ورماه بدفعة ماحقة الى ارضية مبللة تراكمت عليها الاثار ، ثم اطلق عليه ، فى وداعه ، خرطوشا مـن البذاءات المعتقة ، وصفق الباب وراءه بعنف .

عم السكون بغتة . بينما تردد وقع اقدام فى الرواق حسب ، وتناهى عبر الجدار ، واهنا ، صوت انسان يشتم احدهم بنبـــرة متوازنة كما يبدو . رفع سوتنيكوف وجهه عن الارضية ببطء مغالبا الم الساق المسعور . لم يكن احد فى المكان ، فشغله هذا الامر



الى حد ما ، ونظر الى الشباك بأمل مفاجىء ، لكن الشبكة الحديدية المثبتة جيدا بين اضلاعه ، ابدت له صدودا . كلا ، لا سبيل الى الفرار من هنا ! فتهاوى على الارضية وقد فهم هذا الامر ، ونظر دون اهتمام فى ارجاء المكان . كان للغرفة هيئة غرف المكتب المعتادة ؛ كالحة ، خالية ، رغم الطاولة المغطاة ببطانية قطنية رماديـــة ، والكرسى المنقشر المستهلك الموضوع خلفها ، والمقعد الصغير قرب الموقد المغطى بالترابيع الذى تسرب من جوانبـــه السوداء دفء كثيف لذيذ الآن ، بينما تسلل تيار هواء قارس من البـــاب الى الارضية . اختض سوتنيكوف وقد الصّت البرداء به من جديد ، وكتم انينه ، وانقلب ببطء على جنبه .

«ستحل النهاية هنا ! – فكر سوتنيكوف – لا ابغى يا الهـــى سوى الصمود !» شعر انه اقترب تماما من تخوم حياته ، ومن ملمح شخصه الرئيسى ، الذى طويلا ما حاذاه اثناء الحرب دون ان يقع عليه تماما ، الا ان قواه كانت جد نزرة . فكان يخشى ان يخونه جسده ، فيستسلم ، رغما عن ارادته – لم يكن يخشى شيئا اخر غير هذا . واذ دخل الهواء الدافىء الى رئتيه بدأ يسعل كالعادة سعالا عنيفا تشنج له صدره واوخزه مخيخه ، سعال حقير مزقه بقسوة يومين متتاليين ، ولعل مثيله لم يلم به ابدا منذ طفولته حيث كانت اصابته بالبرد تسبب لامه معاناة لا حدود لها مع علمها بما فى جنبيه من رئتين ضعيفتين . الا انه لم يحدث شىء يذكر انذاك ، ترعرع متوعكا ، وبلغ عامه السادس والعشرين بسلام . اما الآن فماذا بعد – لم يعد للصحة الآن قيمة ذات شان بالنسبة لديه . السيىء ان المرض انتهب قواه فى وقت هو فى امس الحاجة اليها . بسبب نوبة السعال

لم يستطع ان يسمع احدهم يدخل الغرفة ، فظهرت امام ناظريه جزمتان غير جديدتين جدا ، ولكنهما منظفتان لامعتان عند الكاحلين ، بخاصة عند البوزين ، فرفع سوتنيكوف رأسه .

انتصب ، امامه ، رجل تجاوز عمر الشباب ، سترته مدنية داكنة ، ربطة عنقه مستهلكة ، قميصه غير نظيف مخطط حائل اللون ، وفي بنطلون صوفي عسكري لملمت اذياله في الجزمتين . ولاح في نظرة عينيه الصغيرتين جدا ، الملحاحتين ، شيء ما متسلط هادئ رزين . فيما ارتسم تحت انفه شارب قصير مقطوع اشبه بفرشاة ، كالذي عند هتلر . «ايكون هذا بوديلا ؟» فكر سوتنيكوف غير متيقن في ظنه ، رغم انه لم يجد فيه اي شيء من صورة ذلك المتوحش الرعاد التي رسمها له افراد الشرطة ، غير ان سوتنيكوف احس بوضوح انه امام رجل من رجال الرئاسة فعدل وضعه بالقدر الذي سمحت له ساقه المكبلة بالالم .

سال هذا الشخص بنبرة متحفظة واثقة :

– من فعل هذا بك ؟ غامانيوك ؟

– صاحبكم ستاس – قال ذلك سوتنيكوف بنبرة شاكية مباغتة ، الا انه ندم في الحال على اطراحه استقلالية نبرته . فتح الرئيس الباب بقوة على الرواق :

– اليّ بغامانيوك !

بدا السعال يخبو ، فيما تبقى الوهن والالم ، الاتكاء على الارضية بيدين موثقتين مزعج جدا ، كان سوتنيكوف يتعذب ولكنه فضّل الصمت ، غير فاهم تماما معنى هذا التعاطف الواضح معه من قبل هذا الشخص . دخل الغرفة ستاس ذلك نفسه ، ادى التحية العسكرية ، صافقا كعبي جزمتيه المتانقتين ببعض فيما اتضح تملقه الملحوظ ، واعلن :

– نعم ، سيدى !

غضن الرئيس جبهته البارزة الصلعاء العريضة بعض الشيء بطريقة لا تناسب وجهه الصغير .

– ما هذا ؟ لماذا الخشونة ثانية ؟ لماذا رميته على الارضية ؟ لماذا تتصرفون من غير اوامرى ؟

– المعذرة سيدى !

وحرك ستاس مرفقيه شادا من عوده اكثر من ذى قبل . ولكن سوتنيكوف شعر من هذا الاستعداد الملفق الذى ابداه ستاس ، وكذا من صرامة رئيسه اللامبالية ، في الحال انه امام العوبة بائسة معدة للحمقى .

– هل هذا ما اوصيت به ؟ هل هذا ما تعلمه القيادة الالمانية ؟

ودون ان ينتظر ردا راح يمطر الشرطي اسئلته ، وهذا يزيد من خوفه المصطنع وشد عوده امتثالا :

– المعذرة ! لن اكرر ذلك ! المعذرة !

– السلطة الالمانية تضمن للاسير معاملة مناسبة ، معاملة انسانية عادلة . . .

كلا ! كفى ! لقد عرف سوتنيكوف من قبل كيف تعامل السلطة الالمانية الاسرى ، فلم يعد يحتمل اكثر استمرار هذه اللعبة الخرقاء :

– عبثا تمثلون !

التفت الرئيس اليه بحدة ، وتلبدت جبهته انشغالا . يبدو انه اساء السمع :

– ماذا قلت ؟

– ما سمعت ، فكوا وثاقى . لا استطيع الجلوس هكذا .

تباطا الرئيس فترة ، طاعنا سوتنيكوف بنظرة مقطبة ، الا انه فهم كما يبدو ان لا موجب للتهييب ، فوضع يده في جيبه . ثم ادخل مقدم نصل سكين في الحبل المشدود حول يديه ، واحتزه بتلّة واحدة ، ثم اخفى السكين . فمطى سوتنيكوف يديه المتخدرتين المحزوزتين عند الرسغين .

– ماذا بعد ؟

– اريد ان اشرب .

اجاب سوتنيكوف مقررا ان يروى عطشه ما دامت الامكانية متوفرة ، كي يستطيع الصمود فيما بعد .

اشار الرئيس براسه لستاس غامانيوك :

– اجلب له ماء !

قفز هذا الى الرواق ، اما الرئيس فقد دار حول المنضدة ، واستقر في كرسيه ببطء ، متمسكا طيلة الوقت بتحفظ رزين

ملحوظ ، كأنه يخفى شيئا ما هاما ومثقلا بالوعود للمعتقل ، دون ان يحد بنظرته الثاقبة ، المهمومة لسبب ما ، عن سوتنيكوف .

– اسمح لك ان تجلس على الكرسى .

رفع سوتنيكوف نفسه عن الارض بطريقة ما معتمدا بجنبه على الكرسى ، تاركا ساقه الى جانب . اصبح الوضع افضل الآن ، يمكنه هكذا اطالة اصطباره . تنهد ، وادار نظرته على الجدران ، خلف الموقد ، فى الزاوية قرب النافذة ، دون ان يفهم فى الحال انه ، انما كان يبحث عن ادوات تعذيب ما ، اذ يجب ان تكون ها هنا . ولكنه لم يجد شيئا مناسبا هنا يالدهشته . فيما شعر ان علاقته بهذا الرئيس قد تجاوزت الحدود المرسومة لها ، وما دامت اللعبة لم تنجح ، فقد انتظره حديث لم يكن يتوقع منه بالطبع راحة .

وفى هذه الاثناء ، جلب ستاس غامانيوك الماء فى قدح كبير مطلى بالميناء ، فشربه سوتنيكوف متعطشا حتى اخر قطرة ، انتظره الرئيس وراء المنضدة بصبر ، متابعا كل حركة من حركاته ، مفكرا طيلة الوقت بشىء ما ، محاولا ان يفهم ربما امرا مستعصيا على ادراكه . ثم قال بوثام عندما خرج ستاس :

– واذن ، فلنتعرف على بعض ؛ لقبى برتنسوف . محقق فى الشرطة .

– لقبى لن يعنى لك شيئا .

– ورغم ذلك ؟

– ايفانوف لنفرض – رد سوتنيكوف خلل اسنانه المطبقة ، كانت ساقه تؤلمه .

– ليكن ايفانوف ، لا اعتراض لدى ، سنسجله هكذا – وافقه المحقق دون ان يسجل شيئا – من اى فصيل ؟

اها ، هذا هو مقصد القول ! صمت سوتنيكوف قبل الرد على هذا السؤال . بينما تناول المحقق ، مواصلا تخزيقه بنظرته ، مكبسا خشبيا للاوراق ملوثا بالحبر من المنضدة ، وراح يلعب به كيفما اتفق بين يديه . ونظر سوتنيكوف الى تلك اليدين ، دون ان يراهما ، مترددا بين اللجوء الى الخداع او رفض ذلك فى الحال ، كى لا يورط نفسه فى الكذب والمتاهات . فضلا انه لا يمكن التعويل على تصديق المحقق لاكاذيبه ربما .

– وهل تعتقد اننى ساقول لك الحقيقة ؟

– سوف تقولها !

اعقب المحقق بصوت منخفض ، وبثقة داخلية جعلت سوتنيكوف يتبلبل دقيقة فنظر الى المسؤول من تحت حاجبيه متسائلا ، بينما كرر هذا :

– سوف تقولها !

لم تبشر البداية بخير . فهو لن يجيب بالطبع على هذا السؤال ، ولكن غيره ايضا لن يكون اكثر سهولة منه ربما . كان المحقق ينتظر ، لاعبا خالى البال بالمكبس ، وكانت حركة اصابعه النحيفة الدقيقة واثقة هادئة ، متانية ، ولكنه كان يخفى فى ذلك التانى توترا شديدا مضغوطا حد الانفجار . ومن الغريب ان مظهره لم يكن قريب الشبه من شكل محقق جلاد ، اوبق بحياة العديدين ربما ، بل ان هيأته كانت تذكر بسحنة موظف قروى متواضع بل ومبتذل ايضا . وفى نفس الوقت تناوم فيه بوضوح غدر ماكر تسلط فوق رأس الاسير كالسيف ، يوشك على الهبوط عليه كل دقيقة . فبدا سوتنيكوف ينتظر لحظة ينفشى غضبه ، رغم انه لم يكن يعرف قدرة اعصاب هذا الشخص على التحمل ، ولا السؤال الذى سوف ينزع بعده المحقق القناع عن وجهه اخيرا .

– اى مهمة كانت لكما ؟ اين كانت وجهتكما ؟ منذ متى وهذه المرأة عميلة لحسابكم ؟

– ليست هى عميلة ابدا . لقد دخلنا بيتها صدفة ، وتسللنا الى العلية . بل ولم تكن موجودة خلال هذا الوقت فى البيت .

شرح سوتنيكوف ذلك بهدوء .

– بالطبع صدفة ، هكذا يقول الجميع . وهل مررتما على بيب مختار قرية لياسيني صدفة ايضا ؟

اها ، امر غير متوقع ! اذن فقد اصبح معروفا امر المختار ايضا ، الذى وشى بهما حال مغادرتهما له ربما . تلك هى نتيجة الرافة ، لم يرغبا بتلويث ايديهما به – فكر سوتنيكوف – واذن فالشرطة تعرف عنهما اكثر مما افترضه . فشعر سوتنيكوف بالارتباك دقيقة . يبدو ان كل ذلك كان مدخلا مدروسا للاستجواب . فقد شعر المحقق بنجاح حققه ، ورمى المكبس ،

وراح يدخن . ثم جمع عن المنضدة بعناية حافظة السجائر ، القداحة ، ونفخ بقايا التبغ الى الارض ، وحط نظرته عليه عبر الدخان منتظرا جوابه . فرد سوتنيكوف بعد برهة من الصمت بصلابة :

– نعم ، صدفة .

– عذر بائخ . انت ذكى ، وكيف تسمح لنفسك اللجوء الى مثل هذا الكذب الساذج ! كان يجب ابتكار حجة امكر . هذا لا يمشي عندنا .

لا يمشي فعلا ، هذا واضح ، لياخذه الشيطان اذن ! لكن سوتنيكوف كان يامل بانطلاء قوله عليه . لم يكن سوتنيكوف يامل بأيما شيء على الاطلاق ، كان يشفق على ديمجيكا المسكينة حسب ، التى لم يكن يعرف كيف يمد يد العون اليها .

– تستطيع ان تفعل بنا ما تشاء – قال سوتنيكوف – لا دخل للمراة فى هذا ، ولا علاقة لها بكل شيء . لقد صدف ان كان بيتها على حدود القرية فدخلناه لاننى لم استطع السير بعد .

– اين جرحت ؟

– فى ساقى .

– لا اقصد هذا ، فى اى منطقة جرحت ؟

– فى الغابة . قبل يومين .

فاعلن المحقق محدقا فى عينيه :

– وهذه لا تمشى ! دع الاعيبك جانبا . جرحت الليلة الماضية ، لا فى الغابة بل فى الطريق العامة .

«ياللشيطان ! أيعلم بما حدث حقا ، ام انه يحاول اصطيادنى؟» ولم يعرف سوتنيكوف كيف يمضى بعد : ان فشل فى المسائل الصغيرة فان المحقق لن يصدق بعد حتى الحقيقة . وكان يهمه جدا ان يقنع هذا الخادم بامر ديمجيكا على حقيقته ، ولكنه شعر بصعوبة ذلك ، صعوبة قد تفوق مما لو حاول اقناعه بكذب فاضح .

– هل ستطلق سراح المرأة اذا شرحت كل شيء على سبيل المثال ؟ انت تستطيع ان تعدنى بذلك ؟

التهبت عينا المحقق فجأة بحقد تخرم سوتنيكوف من الراس حتى اخمص قدميه :

– لست ملزما بتقديم اى وعد ! اننى اضع الاسئلة وعليك الاجابة عليها !

«واذن فقد خابت الامال» – فكر سوتنيكوف قانطا ، انهم لن يطلقوا سراح احد من ايديهم ابدا ، هذا طبيعى ، تقليد مالوف ! واذن ، فقد انتهى امر ديمجيكا ربما .

– لم تفعل المرأة شيئا تستحق بسببه الهلاك . عندها ثلاثة اطفال .

اجاب المحقق بنبرة غاضبة :

– هلاكها سيكون بسببكم لا بسببنا . انتم من جرها للانضمام الى العصابة ! لِمَ لَمْ تفكروا انذاك بالاطفال ؟ لقد فات الاوان الآن . أتعرف قوانين المانيا العظمى ؟

«قوانين ! وهل عرفتها انت منذ زمن بعيد يا ابن الكلب ؟ – تفكر سوتنيكوف – ولعلك حفظت قبل فترة وجيزة قوانين اخرى مختلفة تماما !» الا ان سؤال المحقق الاخير كان يضمر اكثر من معنى ، مما اشار الى انه لم يستبعد ان يفرض من عندياته ما يرتكز به على كتف المانيا العظمى .

صمت سوتنيكوف . بينما نهض المحقق ، دفع كرسيه ، وتقدم من الشباك ، فنظر خلل شبكته الى الباحة خلي البال ، حيث تناهت اصوات رجال الشرطة . ومرة اخرى اضمر فى نفسه شيئا ما غامضا ، لم يلح فى استجوابه كثيرا ، مفكرا ربما كيف السبيل الى اصطياده بمكر مجد ، او لعله سرح بخواطره بعيدا تماما عن هذا المكان .

تردد وقع اقدام ثقيل فى الرواق ، سمعت اصوات ، وبذاءات ، كانوا يقتادون فى اغلب الاحوال ، ولربما يحملون ، احدهم . وعندما وصلت الجلبة الى المدخل ، اعلن المحقق بنشاط :

– كفانا نلعب الاستغماية ! سمِّ فصيلتك ! قائدها ! اعضاء الارتباط ! عدد افرادها . مكان القاعدة . ولا تحاول ان تكذب . فهذا لن ينفعك .

– الا تجد انك تطلب الكثير منى ؟

لجا سوتنيكوف الى السخرية دون ان ينتبه ذلك ، كعادته عند معاملة بعض الحمقى والاجلاف اذ يضطر لتقديم بعض

الشروحات الكريهة . وبالطبع فان هذه السخرية كانت خارج وعى ستاس او غيره من الخونة ، ولكنها كما يبدو اصابت موجعا عند هذا الآمر ، الذى ظل حتى هذا الحين محتفظا بسيطرته على اعصابه ، فقد لوى شفتيه حينا :

– الى اين كنتما ذاهبان ؟

– تهنا .

– لا فائدة . كذب ! اعطيك مهلة دقيقتين للتفكير !

– لا ترهق نفسك ، فلربما عندكم الكثير من المشاغل .

كان تخمينه صحيحا هذه المرة . فقد التوى وجه المحقق الصغير المتغضن مرة اخرى ، ولكنه سيطر على نفسه كما يبدو . بل حتى لم يرفع صوته .

– أتريد ان تعيش ؟

– وهل يُنتظر صفح منكم ؟

نظر المحقق الى الشباك مضيقا عينيه الصغيرتين .

– كلا ، نحن لا نصفح عن قطاع الطرق – ثم التفت بحدة عن الشباك بغتة بحيث سقط الرماد عن سيجارته وتفتت على بوز جزمته ، يبدو ان صبره قد نفد – الاعدام نصيبهم دون شك ، ولكن قبل ذلك سوف نصنع من جسدك الفتى لحما مفروما ، نجر عروقك كلها ، ونسحق عظامك . ثم نعلن فيما بعد انك وشيت بالاخرين ، كى لا يذكرك احد فى الغابة بخير .

– لن تنال مبتغاك . لن اشى باحد .

– ان لم تشى انت وشى غيرك ، فنسجل كل ذلك باسمك . مفهوم ؟ ما رأيك ؟

صمت سوتنيكوف . شعر بالتعاسة . وتغطى وجهه بسرعة بعرق بارد ، واختفى ميله الى السخرية دفعة واحدة . لقد فهم ان هذا الوعيد ليس خُلبًا ، ليس ابتزازا ، فهم قادرون على ارتكاب كل الافعال . فقد حررهم هتلر من تانيب الضمير ومن الشعور بالانسانية ومن ابسط قواعد الاخلاق ، ولهذا فقد تضاعفت قوتهم الوحشية . فهو امامهم ليس انسانا حسب ، بل شخصا له التزامات عريضة امام الناس والوطن ، وامكانيته للاخفاء وخلق الاعذار واهية ، وكان واضحا ان وسائلهما فى هذا الصراع غير متكافئة ،

فالتفوق الى جانب العدو ، كل ما نصبه سوتنيكوف اطاح به المحقق بسهولة فائقة .

وقف برتنوف ، مباعدا ساقيه فى بنطلونه الملفوف ، المنتفخ عند الركبتين ، طاعنا سوتنيكوف بنظرة حادة عدائية بوضوح الآن ، ينتظر بيانه . اما اسيره فقد اصبح فى حالة صعبة لا تطاق ، فكانه على وشك فقدان وعيه ، فيما غمره العرق البارد غزيرا ، وبحث بمشقة عن كلمات للرد ، وقد شعر انها كلماته الاخيرة . وامتدت يد المحقق اليمنى ببطء الى مكبس الاوراق على المنضدة .

– واذن ؟

واذ لم يعثر سوتنيكوف على ما يتشبث به من كلمات هتف بصعوبة :

– اوغاد ! سفلة !

اختطف المحقق المكبس بعجلة زائدة الى حد ما وضربه على المنضدة ، كانه يضع نقطة ختام لهذا الاستجواب الشاحب الخالى من الدم ، والرهيب فى نفس الوقت .

– اليّ ببوديلا !

وانطلقت صرخة ناشزة فى الرواق : «بوديلا ! الى السيد المحقق» . دار برتنوف بعد ذلك حول المنضدة وجلس بهدوء على كرسيه . لم يعد ينظر الى سوتنيكوف ، كانه لم يكن موجودا هنا اصلا . بدأ يدخن . من الواضح ان مهمته قد انتهت . وليبتدئ القسم الثانى من الاستجواب .

حاول سوتنيكوف ان يتظاهر بالهدوء ولكنه تَقف باسره حال فتح الباب ، وظهر بوديلا عند العتبة .

على الارجح ان يكون بوديلا جلادا وسط رجال الشرطة هنا ، فهو رجل متين البنيان ، اشبه بثور برى ضخم ، اما الوجه البارز العظم فاقرب الى خطم حصان . وكان مرآه الوضيع الرذيل يولد دهشة مقرفة ، واكثر ما يُرهب فيه رسغا يديه الضخمان الكبيران الاشعثا الشعر البارزان من كميه ، القادران تماما على لىّ حذوة حصان . رمى نظرة جهماء ، ما ان تجاوز العتبة ، من

عينيه الحولاوين قليلا ، على الضحية ، كما تقتضى التقاليد المتبعة هنا كما يبدو ، وجعجع :

– هيا !

ظل سوتنيكوف جالسا فى مكانه ، وقد كبله الوهن ، دافعا عن نفسه احساسا غادرا بالرهبة راح يضيق الخناق عليه . فخطا بوديلا انذاك الى المنضدة بتأن ذى مغزى . وكان عاصفة هوجاء جاءت معه ، اجتاح صدر سوتنيكوف الواهن بيده الضخمة مستبيحا ، وانتزعه من مقعده ، مجتثا اياه وياقتى معطفه الجوخ اجتثاثا . . .

– هيا يا قملة بلشفية !

١٢

«الطامة الكبرى !» فكر ريباك بحقد تقريبا عندما جر ستاس سوتنيكوف فى الباحة ، دافعا اياه الى المبنى . وفكر ايضا انه وديمجيكا سيتبعانه عما قريب . ولكن رجال الشرطة فتحوا لهما بابا فى القبو . وقبل ان يلقيا بهما الى القبو حل وثاقه ، وانتزع حزامه من بنطلونه . اما ديمجيكا فقد تركت مربوطة اليدين ، مكممة الفم .

– هيا الى اسفل ، بسرعة !

كانت ظلمة كالحة تهيمن فى القبو ، ولربما خيل لريباك هذا بعد نور النهار فى الشارع . وجدا نفسيهما فى البداية فى رواق رطب ما ، يتقدمهما شرطى يصلصل فى يده قفل حديدى ، واذ اصطدم ريباك بظهر ديمجيكا توقف فاركا رسغى يديه المتخدرين فدفعه مَنْ سار فى الخلف :

– هيا ! هيا ! ما الذى اوقفك ؟ واتضح ان بابا اخرى فتح امامهما فى الظلمة . لم يكن بوسعه ان يفعل شيئا فسار ريباك محشورا بين الشرطى وديمجيكا ، وحنى راسه خشية ان يرتطم بشىء ، ثم وجد نفسه داخل زنزانة رطبة عطنة . وظل دقيقة لا يستطيع ان يرى شيئا ، فيما انارت كوة صغيرة السقف فوقه

ببخل وتقتير ، وظل قاع الزنزانة معتما . اخترقت انفه رائحة حامزة عفنة يستحيل التنفس معها تماما ، فتوقف فاقدا القدرة على تلمس اتجاهه .

عاطت الرزّة خلفه فى هذه الاثناء . وبقيت ديمجيكا مع الشرطيين اللذين واصلا اقتيادها الى الامام . وتناهى من وراء الباب حديثهم المبتعد الخاص بشغلتهم :

– وهذه المراة ، انضعها فى الزنزانة المنزوية ؟

– هيا ، الى المنزوية .

– يبدو ان المكان خال اليوم ؟

– افرغه الالمان امس . لم تبق سوى يهودية واحدة .

عندما اعتادت عينا ريباك على الظلمة لاحظ شخصا ما فى الزاوية ، مشغولا بشىء ما بين يديه . وكان هذا منكفئا تماما على شغلته هناك ، ينزع ملابسه ، او يبسط شيئا من ملابسه ، يبدو انه يهيىء نفسه للاضطجاع . وكانت الظلمة الكثيفة تحجب مكانه بقوة ، وليس غير راسه الشائب وكتفيه كانا يظهران لماما فى ما يتهرب من نور الكوة الشحيح .

– اجلس ، ما الذى يوقفك ؟ لم يعد ثمة ما يوقف .

دهش ريباك ، بل واحس بشىء من الفرح ، صوت العجوز بدا مالوفا لديه ، ثم تذكر فى الحال : المختار ! وهذا ما كان ، وجده هناك يشغل الزاوية ، صاحبهما الذى تعرفا عليه الليلة البارحة ، بيوتر مختار قرية لياسينى ! ونبر ريباك غير فاهم تماما :

– وانت هنا ايضا ؟

– لقد وقعتُ كما ترى ، بعد ان تعرفوا على الذبيحة التى تركتماها وراءكما . . .

«هكذا اذن» – وراحت هذه الفكرة تقرع فى راس ريباك : لقد اصبح كل شىء مفهوما . ومن الغريب انه لم يتذكر تلك الذبيحة المشؤومة الا الآن ، وها هو يرى ، بعد فوات آوان لا يغفر ، ما يمكن ان تجره على صاحبها من مصائب . ودهش ريباك بطريقة مصطنعة الى حد ما :

– وما دعواك انت فى هذا ؟ لقد استلبناها منك استلابا !

فرش المختار شيئا ما تحته ، ولكنه لم يتمدد بل جلس متكئا

على الحائط ، غارقا باسره تقريبا فى العتمة . ولم يبد منه فى رشح النور الواهن سوى ركبتيه المثنيتين .

– كيف اشرح لك ؟ ما دمتما قد اخذتماها كان عليّ ان اخبرهم عن هذا الامر . ولكننى . . . وما الفائدة من هذا . . . كل شئ سواء الآن .

يبدو ان كل الاشياء اصبحت سواسية فعلا الآن ، لقد فات اوان بذل المحاولات للتملص ، فكر ريباك ، ولعل الشرطة تعرف كل التفاصيل منذ فترة طويلة .

ودون ان يحرر ازرار معطفه النصف جلس قانطا على اللوح المغطى بالقش العكش ، واتكأ بظهره على الحائط ايضا . لم يكن مفهوما على الاطلاق كيف السبيل الى المضى ابعد ، ولعل هذا المكان ، هنا ، لا يسمح الا بالانتظار حسب . وليس الا هنا شعر بمبلغ التعب الذى اجتاحه الليلة البارحة ، بدأ وعيه يجنح الى النوم ، ولكن الافكار كانت تتناوب على راسه متلاهبة . وفكر فجأة ان بالامكان الاتفاق مع المختار لانكار دخولهما الى قرية لياسينى ، ليقل لهم بيوتر ان اخرين مروا به . واذا أُمعن النظر فالامر اصبح سواء لدى المختار ، وقد يساعدهما ذلك فى ايجاد حجة . لم يشعر ريباك تجاه بيوتر باى ذنب او احراج ، فهل هى المرة الاولى التى حصل فيها على مواد غذائية بهذه الطريقة ؟ وما الذى اخذاه غير خروف حسب ، وليس من عائلة جندى فى الجيش الاحمر ، انما من المختار نفسه ، وهل تعوزه الهموم ليفكر فى هذا الآن ! وهكذا فقد كان ريباك مرتاح البال فى هذا الصدد ، ولكنه لم يفهم شيئا واحدا ، وهو : كيف ان هذا المختار لم يستطع ان يبرر فعلته امام الشرطة ، وترك نفسه يرزح فى هذا القبو العفن ؟

مرت ساعة او اكثر وسوتنيكوف غائب ، بينما فكر ريباك بشئ من الاسى : ايكونوا قد فعلوها وقتلوه ؟ لم يكن يرغب بالحديث عن اى شئ . . . شعر انهم على وشك القدوم لاخذه بين لحظة واخرى ، سوف يبتدئ انذاك اتعس امر . وهكذا ظل طيلة الوقت يقدح زناد الفكر محاولا العثور على بصيص يمكنه من مخادعة رجال الشرطة ، للافلات منهم ، او لتمديد اجل الحكم على الاقل . وبدا ان هناك وسيلة واحدة لتمديد اجل الحكم :

التسويف والمماطلة فى التحقيق . سوف يجرون التحقيق فى كل الاحوال الا انه يجب العثور على وقائع دامغة لامساك فضول الشرطة بيديه والا فانهم لن يحتفظوا بهما طويلا اذا اصبح كل شئ لديهم معروفا ، والنهاية انذاك تكون محتومة .

كان القبو هادئا مخدرا ، ومن مكان ما ، فوق ، تناهت اصوات وقرقعة جزمات فى المبنى ، فكانت القرقعة تتصاعد حينا ، ويتطارق شئ ما بوقع مكتوم حينا آخر ، ثم تنبثق بوضوح صرخة احدهم . كل هذه الجلبة المثيرة للاعصاب فوق لم تستطع ان لا تذكره بسوتنيكوف ، فانعصر قلب ريباك بدوره بالم – سوتنيكوف المسكين ، ما اتعس حظه ! – الا ان هذا النصيب ينتظره هو ايضا كما يبدو . . . وفى الحقيقة فهو لم يكن يرغب التفكير بذلك ، بل كان يحاول ان يعرف كيف يمكن تجنب التعذيب ، بل وما اذا كان بالامكان مد يد العون لرفيقه . غير ان هذا كله عبث كما يبدو . فقد ترشحت غبشة قانطة خلل كوة الزنزانة الصغيرة ، المواراة من الخارج بشئ ما على ما يظهر ، وتكورت فوق القش الهامد طفاوة باهتة ابيضّ فيها تحت الكوة راس المختار المطاطا . جلس بيوتر دون حراك قرب الحائط ، غارقا فى همه ، فقد حلت لحظة عكف فيها كل منهما على امره . وبعد صمت طويل قال بيوتر :

– يقولون ان احدهم قد جرح شرطيا فى الليل ، غير معلوم ما اذا كان سيعيش ام لا !

لم يكن هذا خبرا جديدا لريباك ، الا انه نسى الآن حسب امر هذا الجريح ، فاقلقه ذلك اكثر . ولكنه نقل الحديث الى مجرى آخر اذ سال وقد راوده امل ضعيف فى ان يكون دوره للاستجواب لم يات بعد :

– هل اخذوك الى فوق ؟

ولكن المختار هدم امله هذا فى الحال :

– للاستجواب ؟ بالطبع ، برتنوف نفسه وجه الاسئلة !

– من برتنوف هذا ؟

– محققهم .

– وماذا فعلوا بك ؟ ضربوك كما ينبغى ؟

– لم يضربوني . وما الداعي لضربي ؟

استمع ريباك اليه حابسا انفاسه ، فقد كان راغبا بتقدير ما ينتظره مقدما . بينما علق العجوز بأسى :

– برتنوف هذا ماكر مثل شيطان ، يعرف كل شيء !

– غير انك عدت الى هنا .

– وماذا يمنعني عن العودة ؟ لا ذنب لي . وجهي امام الرب ذاته امام الناس .

– دون اي خطايا ؟

– وما هي خطيئتي ؟ أهي في انني لم اهرع للاخبار عن الذبيحة ؟ ولكن لي من العمر ما لا يسمح لي بالركض في الليل . سبع وستون عاما لي .

تنهد ريباك :

– واذن ، قل السلام على روحك . الحجة عندهم بسيطة : التعاون مع الانصار .

في ذات الصوت المحايد اضاف بيوتر :

– وما العمل ؟ هذا نصيبي . وهل يفر احد من قدره . . .

«ما اشد اذعانه !» فكر ريباك ، ولكنه اخذ شأوه من الحياة ، سبع وستون ليست بالقليلة . اما هو فلم يقض من عمره بعد سوى ست وعشرين سنة ، فلم لا يرغب بعد بمهلة اخرى للعيش على هذه الارض . ان التمدد في الشتاء داخل حفرة ثلجية باردة في الارض ليس رهيبا بقدر ما هو مثير للاشمئزاز . . .

كلا ، يجب خوض الصراع !

ماذا لو يشرك المختار في هذه الحكاية الطويلة كلها ؟ فعلا ، ان يقول مثلا انه عميل للانصار او متعاون معهم ، وانها ليست المرة الاولى التي يقدم فيها عونا لفصيلته ، وهكذا يتوجه التحقيق في غير وجهته الصحيحة ؟ سيبدأون انذاك تحقيقات اضافية ، وسيحتاجون اثباتات وشهودا جددا ، فيكسب منهم الوقت ، وذنب بيوتر في الحال المذكورة لن يزداد كثيرا امام الالمان ، بينما قد يساعدهما هذا .

خشخش في القش بهدوء شيء ما ، حي ، طري ، وانساب عبر جزمته ، فجفل ريباك من وقع المفاجئة نافضا عنه افكاره . وحرك

المختار قدمه باشمئزاز : «هش ، لتاخذكم كوليرا !» فرأى ريباك انذاك جرذا كبيرا قرب الجدار ، انسل بجرمه الكبير الحرِك وذيله الطويل عند حافة الارضية ، واختفى في الزاوية المعتمة . قال بيوتر :

– لقد تكاثرت هنا ، حتى لم تعد تنظر للناس ، تتجول على هواها . . . يبدو انها بقيت بعد ايسكا . كان ايسكا هذا يبيع الحلوى وقت كان هذا المكان دكانا له . ثم افتتح بدله فيما بعد ها هنا مخزنا قرويا . ما اكثر ما تغيرت الاحوال هنا ، واما الجرذان فباقية على هواها .

– لم يبق للجرذان الآن الا التجول هنا وهناك .

– بالطبع ، من يلقي بالا اليها ؟ البشر يصطادون بعضهم بعضا ، فما دعواهم بالجرذان بعد ؟ آخ ربي لك العلا . . .

لم يكد ينتهي من كلامه بعد عندما تردد وراء الباب وقع اقدام ، وتعالى عياط الرزة المألوف ، وسرعان ما هجم على العيون نور النهار الشتوي الساطع * . ظهر ، في طفاوة ذلك النور ، جرم ستاس النحيف العضل ، في سترته العسكرية المشدودة بالحزام ، وبندقيته المرمية خلف كتفه ، عند العتبة :

– هيا ، اين المجرم التسفاي ** ؟ الى المحقق !

وضحك الشرطي باقتضاب واشمئزاز فيما تمزق شيء ما بالم داخل ريباك ، ولعله قفز على قدميه بحماس زائد مستجيبا للامر . بينما حوّم في رأسه ، بقلق منفر ، سؤال : اين سوتنيكوف ؟ اذ ان المقدّر ان يأتوا بسوتنيكوف اولا ، ليؤخذ هو الى الاستجواب بعد ذلك . ام انهم قد اجهزوا عليه ، وانتهى امره ؟

اقترب من الدرجات طائعا ، وانتظر ريثما اوصد ستاس الباب وراءه . ثم هرع الى اعلى بسرعة متقدما خفيره ، متحركا بطريقة آلية تقريبا ، دون اي مشاركة من وعيه ، او انتباه لما يدور حوله . شعر بنفسه في اتعس حال . لم يكن ذلك خوفا : كان يعذبه فقدان الحول ، غياب امكانية اللجوء الى القوة ، تلك الوسيلة الفعالة للدفاع عن النفس على طريقة الجنود . ان انعدام القدرة على الاختيار امامه خنق من امكاناته ، اما فكرته الخاصة بالمختار فقد

* نتيجة انعكاس النور على الثلج . **المترجم** .

** الثاني بالالمانية . **المترجم** .

ظلت نية حسب ، لم يعالج تفاصيلها ، ولم يقرر اى شيء بالتحديد عليه ان يفعله ، فلم يحمل الى المحقق الآن فى روحه غير بلبلة محض . بينما صفقه ستاس على كتفه بقوة :

— ها قد حلت لحظة التخلي عن معطفــك النصف ، معطف لا بأس به وحق الرب . والجزمتان ! الجزمتان سوف اجعلهمـا من نصيبي . فتضييع مثل هذا الزوج امر مؤسف ، اليس صحيحا ؟ — قال ذلك بثقة ، مطوحا قدمه ، فى جزمة جلد الكروم الحسنة ، امام المعتقل ، واعقب : — ما هو مقاسك ؟

— تسع وثلاثون — كذب ريباك مبطئا سيره فقد اراد شم الهواء بعد زنخة القبو .

— صغير ، لتاخذك كوليرا ! سوف ادحسه فى فمك اذن — ثم انتفض بوحشية فجاة — هيا ، هيا ، وسع من خطاك !

لم يبد ريباك عنادا تجنبا للضرب . فعبر بخطو سريع ، المدخل ثم الباب ، والرواق القصير ، كامد النور ، والمناوب العريض الوجه جنب الخزانة الصغيرة . ثم طرق ستاس باصبع مثنية باحترام على مصراع احد الابواب :

— ممكن ؟

عبر ريباك العتبة وكانه فى حلم وقد راوده احساس بان كل حياته العاثرة على وشك الانهيار والتفتت الى الابد ، والتقت عيناه مباشرة بهيكل الموقد الضخم ، اشبه بنذير سوء فى طريقه ، وقد ذكرته اضلاعه السوداء الحادة بكل ما فى لونه من تسلب وحداد ، بشاخص شانه رآه من قبل على قبر احد ما . بينمـا وقف وراء المنضدة عند الشباك رجل قميئ فى سترة مدنية ، ينتظر امرا ما . توقف ريباك عند العتبة ، مفكرا ما اذا كان هذا الشخص هو نفسه ذلك المحقق الشرطي الذى ذكره المختار فى حديثه معه .

— لقبك ؟ !

صرخ ذلك الشخص ، وكان واضحا انه غاضب لسبب ما ، وتغضن وجهه الصغير غير الفتي بحقد ، فيما شعر المعتقل بوطاة نظرته المنبثقة من تحت حاجبيه ، اجاب بعد تفكر :

— ريباك .

— تاريخ الميلاد ؟

— تسعمائة وستة عشر .

— اين ولدت ؟

— قرب مدينة غوميل .

ابتعد المحقق عن الشباك ، وجلس على الكرسى ، محتفظا بنفسه مستوفزا ، نشطا ، لا يحمل كثيرا من الوعيد كما بدا ذلك لريباك فى اول وهلة .

— اجلس .

قام ريباك بثلاث خطوات وجلس حذرا على كرسى صغير صدرت منه قزقزة ، مقابل المنضدة .

— اتريد ان تبقى حيا ؟

ازال هذا السؤال الغريب بمباغتته شيئا من التوتر ، بل ولمس ريباك فيه نوعا من التندر ، فتحرك فى كرسيه متلبكا .

— ومن لا يريد البقاء حيا . بالطبع . . .

غير ان المحقق كان بعيدا عن روح التندر ، اذ واصل امطار المعتقل باسئلته بنفس السرعة السابقة :

— واذن ، الى اين كنتما متجهين ؟

هذا الاحتدام فى القاء الاسئلة كان يتطلب ربما تعجيلا فى طرح الاجوبة ايضا ، ولكن ريباك خشي ان يمرر المحقق عليه مقلبــا فابطا بعض الشيء :

كنا متجهين للحصول على مواد غذائية ، لتعزيز احتياطينا — ثم فكر : «لياخذه الشيطان ! منذا لا يعلم ان الانصار ياكلون ايضا ، حالهم حال الاخرين ، فاى سر فى هذا ؟»

— حسنا . سنصدق هذا . الى اين كنتما متجهين ؟

كان واضحا ان المحقق ، خلف المنضدة ، فى حال شديدة من التوتر ، ينظر نحو الاسير متمعنا ، راصدا كل تغيير قد يطرأ على وجهه . الا ان ريباك سوى حاشية معطفه النصف على ركبتيــه ومسح بقعة ما هناك . فحاول ان يجيب وازنا كلامه .

— نعم . . . كنا متوجهين الى الديرة ، الا انه اتضح فجاة انها محروقة . فمشينا حيث رات اعيننا .

— اى ديرة محروقة هذه ؟

— كولنايف يسمونها او لا ادرى ماذا ، تلك الديرة فى الغابة .

– هذا صحيح . ديرة كولغايف محروقة . احرقها الالمان ، واعدموا كل اهاليها .

«حمدا ان لا خطيئة لي فى هذا» – فكر ريباك متخففا .

– كيف حدث ان مررتما بقرية لياسينى ؟

– بكل بساطة . سرنا ليلا ، ثم . . . دخلنا على المختار .

– هكذا ، هكذا ، مفهوم – ادرك المحقق وقد استخلص شيئا ما – واذن ، فقد كنتما قاصدين المختار ؟

– كلا ، لماذا ؟ لقد قلت اننا سرنا الى الديرة . . .

– الى الديرة . مفهوم . ومن هو رئيس العصابة ؟ – سأل المحقق فجاة . وجمد ، مرهفا سمعه ، مثبتا عليه نظرة صارمة محيطة بكل شيء . فكر ريباك ان اوان الكذب قد حان ، وليتحققوا من ذلك ان شاؤا ، لربما سوتنيكوف . . .

– رئيس الفصيلة ؟ ذلك . . الذى لقبه . . دوبوفي . . .

– دوبوفي ؟ – دهش المحقق لسبب ما ، بينما ارسى ريباك نظرة متصلة في عينيه ، ولكن لا لكي يقنع المحقق بصحة كذبه ، بل ليرى ما اذا كان هذا يصدقه ام لا .

– النذل ! لقد شم رائحة دوبوفي واتفق معه !هكذا قدرت ! لم نقبض عليه في الخريف وهاك النتيجة . . .

لم يفهم ريباك من يقصد محدثه بهذه الكلمات . المختار ؟ فما العمل اذن فى هذا الحال ؟ يبدو انه توهم شيئا ما هنا . . . الا انه لم يكن ثمة مجال للتفكير . فقد واصل برتنوف استجوابه بعزم :

– واين يتواجد فصيلك ؟

– فى الغابة .

اجاب هذه المرة دون اى توقف ، ونظر مباشرة وصراحة فى عينى المحقق الباردتين الحذرتين – دعه يثق فى صدقه الذى لا تشوبه شائبة .

– فى بركوفسكى ؟

– بلى .

(اهم حمقى كى يمكثوا فى غابة بركوفسكي ، التى حوصرت ، رغم سعتها ، من اربع جهات بعد تفجير جسر على النهر ايسليانكا . يكفى

ان مجموعة دوبوفى هذا بقيت هناك ، فيما غربت فلول فصيلهم ستة عشر كيلومترا ، الى مستنقع غوريلويه .)

– كم شخصا فى الفصيل ؟

– ثلاثون .

– تكذب . عندنا دليل يشهد انهم اكثر .

ابتسم ريباك بتسامح . احس بضرورة استعراض بعض القرف من جهل المحقق .

– كانوا اكثر . اما الآن فهم ثلاثون . نتيجة الخسائر فى المعارك . . .

فتململ المحقق لاول مرة فى كرسيه برضا :

– واذن فقد ضعضعكم شبابنا ؟ اصبروا قليلا ، سينتفوا ريشكم تماما عما قريب .

سكت ريباك . وجنح مزاجه الى التفاؤل بشكل واضح . يبدو انهم لم يعلموا الكثير من سوتنيكوف . واذن ، بامكانه ان يؤلف لهم حكايات ، وليتحققوا منها . كما ان المحقق بدا وكأنه قد بدأ يعامله بالحسنى ، ففكر ريباك انه ينبغى الآن تعزيز هذه المعاملة بطريقة ما ، وقد يتاح له ، استغلالها . تراجع المحقق الى صدر كرسيه ، قائلا :

– هكذا ! اما الآن فقل لى من منكما اطلق النار ليلا ؟ لقد رأى اصحابنا ان احدكما قد فر، بينما اشتبك الاخر معهم باطلاق النار . انت ؟

– كلا ، لست انا .

قال ريباك ذلك ، دونما اصرار كبير ، شعر بالاحراج هنا فى ايجاد التبريرات وتحميل سوتنيكوف تبعية ذلك . ولكن ، ايحملها نفسه ؟

– اذن ، الاخر ؟ ها ؟

لم يجد ردا لهذا السؤال ، ففكر ريباك حسب : لتنفق ايها الوغد ! تصطاد بمكر فائق ! وماذا كان فى الواقع بمستطاعه ان يجيبه ؟

وما يذكر ان برتنوف لم يلح كثيرا .

– حسنا ، حسنا . مفهوم . ما لقبه ؟

— من ؟
— صاحبك .
لقبه ! وما حاجته للقبه ؟ واذا كان سوتنيكوف قد تجنب التصريح بذلك ، يقتضى اذن الامتناع عن الافصاح عن لقبه هو . وربما توجب الكذب الآن ، ولكن ريباك لم يستطع ان يتصور كيف يفعل هذا . حتى قال اخيرا :
— لا ادرى . لم يمر وقت طويل علي في هذا الفصيل . . .
فكر برتنوف بسؤاله بلوم خفيف :
— لا تدرى ؟ والمختار هذا ، لقبه : سيج ؟ اهكذا يعرف في مجموعتكم ؟
ارهف ريباك ذاكرته ، يبدو انه لم يسمع حتى بلقب او كنية هذا المختار .
— لا ادرى . سمعت في القرية ان اسمه بيوتر .
— اها ، بيوتر .
بدا له ان برتنوف هذا متوهم بشكل ما ، ولكنه فهم في الحال : ان المحقق يريد ايهامه هو نفسه .
— حسنا ، حسنا ، واذن انت من موغيليف بالمنشأ ؟
صحح له ريباك بصبر :
— من ضواحي غوميل ، ناحية ريجيتسكى .
— اللقب ؟
— لقب من ؟
— لقبك .
— ريباك .
— اين بقية العصابة ؟
— في . . . غابة بركوفسكى .
— كم كيلومترا تبعد ؟
— عن هنا ؟
— عن ماذا اذن ؟
— لا ادرى بالضبط . حوالى ثمانية عشر كيلومترا .
— مضبوط . ما هي القرى القريبة ؟

— القرى ؟ ديغتيارنيا ، اوليانوفكا . وتلك ، ما اسمها . . . دراغوني .
نظر برتنوف الى الورقة المنطرحة امامه .
— وما هي علاقتكم بهذه المراة . . . آكون افغيني ؟
— ديمجيكا ؟ لا علاقة لنا بها وحق الرب . دخلنا بيتها للاختفاء واصابة حظ من الطعام ، واذا بشبابكم . . .
— شبابنا باثركما ! يا لهم من شطار ! واذن ، لا علاقة لكم بها ؟
— لا علاقة ابدا . لا ذنب لديمجيكا في كل ما حصل .
انتصب المحقق بنشاط ، وجذب بمرفقيه بنطلونه الى اعلى وقد هبط .
— لا ذنب لها ؟ كيف قبلتكما في بيتها اذن ؟ كيف اخفتكما في العلية ؟ اتعتقد انها لم تكن تعلم بهويتكما عندما فعلت ذلك ؟ لقد كانت تعلم بذلك على احسن ما يرام ! واذن ، فقد اخفتكما ، فماذا يكون جزاؤها في هذه الحال حسب القوانين العسكرية ؟
كان ريباك يعرف جزاء هذا حسب القوانين العسكرية ، وفكر انه سيتحتم عليه التخلي عن مهمة تغطية ديمجيكا ، فهي خارج مقدرته الآن ، اصبح من الواضح ان كل محاولة لريباك لتبرير ديمجيكا ستثير المحقق مثلما تثير قماشة حمراء ثورا ، فعزم على ان لا يستثيره . فليس له شأن بديمجيكا ، وهو الذى لا يعرف نفسه كيف ينجو بجلده !
— حسنا ! — ذهب المحقق الى النافذة ، ثم استدار على عقبيه بنشاط ، كانت يداه محشورتين في جيبي بنطلونه ، بينما تباعد رفرفا سترته عريضا — سوف تواصل حديثنا . يجب على ان اعترف انك شاب ذو عقل . وهناك احتمال اننا قد نبقيك حيا . ماذا ، الا تصدق ؟ — وابتسم المحقق ساخرا — نستطيع ان نفعل ذلك . اما السلطة السوفييتية فليست بوسعهــــا ان تفعل شيئا . اما نحن فنستطيع ان ننزل العقاب او نرأف بمن نريد ، وفي كلا الحالتين نأخذ بنظر الاعتبار شخص من نتعامل معه . مفهوم ؟
كان المحقق قد اقترب من ريباك حتى كاد يلامسه ، فشعر هذا ان الاستجواب على وشك الانتهاء ربما ، فنهض عن كرسيه باحترام .

لم ترتفع قامة المحقق عن كتفه ، وفكر ريباك ان بمستطاعه خنق هذا القزم بسهولة فائقة ، الا انه كاد ان يذعر من فكرته الخرقاء هذه ، فنظر باخلاص مصطنع الى عينى المحقق الحيويتين ، الباردتين .

– واذن ، قصّ علينا كل شيء ، ولكننا سنتحقق من ذلك ، لا يخامرنك الشك بهذا ! فاذا صدقت وهبناك حياتك ، عيّنّاك فى الشرطة ، وجعلناك تخدم المانيا العظمى . . .

– انا ؟

لم يصدق ريباك .

وشعر كان الارض تهتز تحت قدميه ، وتتباعد جدران هذا المبنى الحقير عريضا ، واحسّ خلل البلبلة العابرة فى نفسه بالحرية بوضوح ، وبالفضاء ، بل وبانسام تنساب عليه من ريح رخاء تتلاعب فى الحقل .

– نعم انت . الا توافق ؟ غير ضرورى الاجابة فى الحال . اذهب وفكر . ولكن تذكر : اما كاس النبيذ او السيف . غامانيوك !

وقبل ان يفلح ريباك بفهم ما ينتظره ، فتح الباب – وهو ما يزال ماخوذا – وانتصب ستاس ذاته عند العتبة .

– الى القبو !

فاوقف ستاس نظرته عند المحقق وقد اهتبل :

– الى القبو ؟ ! . . . ولكن بوديلا ينتظر !

هتف المحقق :

– الى القبو ! . . . اانت اطرش ؟

انتفض ستاس ، وافصح :

– يافول الى القبو ! بيته تفضل !

خرج ريباك مثلما دخل ، مرتبكا الى آخر حد ، ولكن لسبب مخالف هذه المرة . ورغم انه لم يتصور لنفسه بعد كل الاشكالات التى تجاوزها ، واكثر : ما ينتظره منها بعد . الا انه احس بحدة وفرح ، انه سيعيش ! لقد ظهرت بادرة ذلك ، وهذا هو الاهم . وكل ما عداه ليتراجع حاليا الى الخلف .

– واذن ستتاجل مسالة الاستيلاء عليه ، ها ؟

قال ستاس ذلك وهو يجره من ردن معطفه النصف عندما خرجا الى الباحة . فاجاب ريباك بصلابة :

– بلى ستتاجل !

ونظر بتحد لاول مرة الى وجه الشرطى المليح ، ذى الابتسامة الهازئة . بينما قهقه هذا بصوت ابح ، اشبه بماماة عنز .

– لن تستطيع الافلات ، طوعا ام كراهية ، سناخذه منك ! اللعنة عليك !

«اهو اهبل ام يتظاهر بذلك ؟» فكر ريباك ، ولكنه لم يعد يابه لستاس ، اذ اصبح عنده الآن من يدافع عنه .

١٣

لقد انقذ الوهن سوتنيكوف . فما ان بدا بوديلا تعذيبه له ، حتى فقد وعيه بسرعة . صبوا الماء عليه ، ولكنها برهة ، وجثمت الظلمة على وعيه ثانية . لم يشعر جسده بوقع الاحزمة عليه ، ولا بالمخالع المعدنية الخاصة التى استخدمها بوديلا فى انتزاع الاظافر من اصابعه ، وهكذا تصرمت نصف ساعة على هذه الحال عبثا ، ثم جره نفران من الشرطة من الغرفة بعد ذلك ، والقوا به الى الزنزانة التى حبس بها المختار .

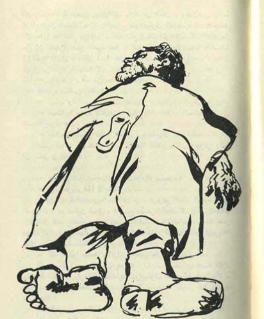
ظل سوتنيكوف متمددا ، بعض الوقت ، على القش صامتا ، بملابس مبللة ، واصابع مدماة ، يئن بهدوء ، ووعيه يعود اليه ويمضى عنه ، واذ تلاشى وقع اقدام الشرطة وراء الباب ، زحف المختار بيوتر اليه على ركبتيه .

– اوخ ، اوخ ، اوووخ ! وانا الذى لم اعلم ، آه ماذا فعلوا بك . . .

سمع سوتنيكوف صوتا جديدا الى جانبه ، واحس انه مالوف لديه ، الا ان وعيه الذى سحقه التعذيب لم يكن قادرا على استرجاع صورة صاحب ذلك الصوت الى ذاكرته ، فيما كان هذا الشخص متعاطفا معه ، شعر سوتنيكوف بهذا من نبرة الصوت ، فالتمس :

– ماء !

سمع صاحب الصوت ينهض ، وقرع الباب بالحاح دون ضجة ،



– شياطين ! لن يسمع احد منهم . . .

فهم سوتنيكوف ، وذهنه ما يزال مشوشا ، انه لا سبيل الى انتظار معونة هنا . فلم يعد يسال شيئا آخر بعد ، وانكفأ على الامه متوحدا مع نفسه غارقا فى غيبوبة عميقة . الا انه كان جد راغب بشربة ماء ، فقد غلف ضباب قانط ما كثيف كل ما حوله ، جرجر نفسه خلله مدة طويلة على قدمين رخوتين من قطن ، حتى رأى عند السياج بئرا وجردلا مشدودا بسلسلة . وبيدين من قطن ايضا راح ينزل الجردل الى قاع البئر ، حيث انطلقت قطط صغيرة شرسة من قعره الاسود فجأة فهرت هريرا مستوفزا شديدا . كان سوتنيكوف يكره القطط كثيرا ، فدفعه بذعر تقريبا بعيدا عن البئر ، مستعيدا هدوءه ببطء . ثم وجد نفسه بطريقة ما فى شارع بلدة مسقط راسه قبيل الحرب ، رأى امامه فجأة ريدكين ، مراسله القديم ، حاملا زمزميات عديدة ، مبللة ، مترعة بالماء . اختطف سوتنيكوف واحدة منها ، ولكنها تحولت فورا بين يديه الى حقيبة مضادة للغازات ، خالية من الماء بالطبع . . .

ورغم ذلك استطاع الصبر حتى حصل على قصعة مليئة بالماء فعب منها طويلا بتعطش ممض . ولكن هذا الماء كان دافئا ، غير عذب لم يروّ عطشه ، انما ملأ معدته حسب بطريقة منفرة . لم يجلب له هذا الشرب النهم اى احساس بالمتعة ، انما زاد من عذابه ، واقرفه حد الغثيان . كان الحر شديدا بسبب شمس الظهيرة ، والرمل الحارق ينهال على الخندق الذى كان يقف فيه ، ممزوجا باعشاب جافة شائكة . لم يكن قد اشبع عطشه عندما ارتفعت الى جانبه صيحة آمر الرمى العقيد لوغينوف : «اسرع ! اسرع !» ادهش هذا سوتنيكوف واقلقه فى نفس الوقت : من الغريب جدا : كيف استطاع ان ينشغل بشرب الماء هذا وقت اطلاق النار ؟ فذعر من ان لا يستطيع اطلاق النار وفقا لهذا الامر ، فقد كان يطيل اللحظات الست – العشر ، المخصصة للتقم ، الى دقيقة او ما يقاربها .

ثم راحت رؤاه تغيم وتعتم ، وتلبد وعيه باللامعنى ، حيث تطاولت فيه الاشباح الغريبة التى تضاعف الامه المبرحة . . .

عندما اعيد ريباك الى الزنزانة كان سوتنيكوف ما يزال متمددا بهدوء على القش اشبه بجثة ، وقد غطى بمعطفه من اخمص قدميه

الى راسه . فانخفض ريباك الى جانبه فى الحال ، وعدل من وضع يده واذيال المعطف . كانت اصابع سوتنيكوف المتكسرة قد تلاصقت الى بعض بما تختر من دمها ، فاستفظع ريباك فكرة انهم كانوا قادرين على ان يفعلوا نفس الشيء معه . لقد تخطاه قدر تصفية الحساب فى المرة الاولى ، ولكن منذا يعلم ماذا سيحدث غدا ؟ . . . وقال بيوتر من الزاوية بينما كان ستاس يوصد الباب :

– يا ولد . . هنا من بحاجة الى ماء . . .

فانتهره ستاس بحقد :

– لست ولدا ، عليك ان تناديني : حضرة الشرطى !

– حسنا يا حضرة الشرطى . ليكن ذلك ، ارجو المعذرة ، ولكن انسانا يموت هنا . . .

– هذا هو مصير قطاع الطرق ، ومصيرك انت ايضا .

اغلق الباب باصطفاق راعد ، فعمّ الظلام ، تنهد بيوتر ولجأ الى القش فى الزاوية .

– وحوش !

– لا ترفع صوتك – قال ريباك – والا سمعوه !

– ليسمعوه ، هذا لا يخيفنى . . .

اغلق الباب الخارجى ايضا ، ثم خمد وقع اقدام الشرطى على الدرجات . عم سكون عميق ، فاصبح مسموعا كيف كان يبكى احدهم بهدوء فى القبو القريب . . . نشيج متقطع ، وتوقفات ، لعله طفل او امرأة . وعلى القش كان سوتنيكوف ما يزال غارقا فى غيبوبته فقال شيئا مبهما . اعقبه بيوتر :

– لقد نعنعوا عظامه ، اتراه سيحيى بعد ؟

فكر ريباك : «مستبعد ان يحيى» . وفجاة التمعت فى ذهنه فكرة واضحة للغاية ومفرحة : اذا مات سوتنيكوف فان حظه فى النجاة ، هو ريباك ، سيتضاعف . وسيقول كل ما يشاء فليس ثمة شهود غيره هنا .

لقد فهم بالطبع كامل لاانسانية هذا الاكتشاف ، ولكنه كان يعود الى هذه الفكرة دائما ، مستخلصا ان ذلك افضل بالتاكيد ، مهما حاور نفسه وداورها . افضل لريباك ولسوتنيكوف الذى لن يحيى بعد كل ما حدث له . اما ريباك فلعله يفلت ، فيستطيـــع

انذاك بالتاكيد ان يصفى حسابه مع هؤلاء الاوغاد ليقاضيهم حياة صاحبه والرعب الذى سببوه له لريباك . لم يكن فى نيته ابدا البوح باسرار الانصار ، فضلا عن الانضمام الى سلك الشرطة ، رغم انه كان يفهم ايضا ان تجنب ذلك لن يكون سهلا كما يبدو . كان المهم بالنسبة له ان يكسب الوقت ، مما كان متوقفا على عدد الايام التى يجد فيها الامكانية للصمود فى هذا القبو .

تنفس سوتنيكوف بصعوبة وحشرجة ، متاوها بوهن ، وفكر ريباك : كلا ، لن يبقى طويلا ، فى مثل هذا الحال لا يستطيع حتى متين البنيان البقاء طويلا ، فاين هو منه !

– يبدو ان الحظ حالفك اكثر منه – لمّح المختار العجوز ، ممعنا الفكر ، بنبرة ذات مغزى كما يبدو . فاثارت هذه الكلمات حفيظة ريباك – ما دعواه هو بذلك – ولكنه اعقب بهدوء :

– نصيبى ما يزال فى الانتظار .

– امر مفروغ منه . فهم لا يَدَعون احدا هكذا .

نظر ريباك الى الزاوية ممتعضا ، احس بالبلبلة من التنبؤات العارضة لهذا الشخص : من اين له ان يعرف ما اذا كانوا سيعفون عنه ام لا ؟ كان امتحانه يختلف عن امتحان الآخرين ويتميز بصفات خاصة خيرة كاد ان يؤمن بها ، وحاول تمحيص القضية الآن من كل النواحى وبكل التفاصيل .

الا ان هذا المكان ، كمـــا يبدو ، غير صالح جدا للتاملات الطويلة : فما ان كاد ريباك يمدد فى افكاره حتى تردد وقع الاقدام مرة اخرى على الدرجات ، فتصور انهم يقتادون احدا ما ، ولكن الخطو توقف عند زنزانتهم ، قعقعت الرزة ، وانتصب عند العتبة ستاس ذلك نفسه :

– خذ هذا الماء ! اسرع ! على قاطع الطريق هذا ان ينتصب فى الصباح سليما معافى ! اما انت ، ايها العجوز الملعون ، فالى بوديلا ، مارش !

اخمد ريباك جيشانا تفجر فى قلبه ، وتناول من يد الشرطـــى قدرا يحوى ماءا باردا . بينما حملق بيوتر من الزاوية فى ستاس بدهشة :

– ولماذا ، الا تعلم ؟

فقهقه الشرطى بمرح صادق :

– اعلم بالطبع : لتلعب لعبة الورق معه ! هيا ، بسرعة !

نهض العجوز متثاقلا ، ورفع عن الارضية فروته ، ثم خرج من الزنزانة حانيا راسه ، وانصفق الباب الثقيل بذات القعقعة التى يغلق بها عادة .

جثا ريباك على ركبتيه ، وبدأ يحرك سوتنيكوف ، فلم يبدر منه سوى الانين ، امال القدر انذاك بيد واحدة ، ورفع راس سوتنيكوف بيده الاخرى ، وصب فى فمه بضع قطرات . جفل سوتنيكوف ، ولكنه الصق شفتيه فى الحال بحافة القدر المشرشبة ، وابتلع بصعوبة عددا من الجرعات .

– من هذا ؟

– انا . كيف حالك ؟ احسن ؟

– ريباك ؟ آه ، أهذا انت ؟ ! اعطنى ماء .

اسند ريباك راسه من جديد ، فشرب سوتنيكوف مقضقضا باسنانه عند حافة القدر ، ثم استلقى دون حراك على القش . سال ريباك :

– هل عذبوك بقوة ؟

– بلى يا اخى ، حصلت على جزائى .

وتنهد سوتنيكوف .

عدّل ريباك وضع المعطف عليه باهتمام ، وتداعى بظهره الى الحائط ، مستمعا ، شارد البال ، الى تنفس رفيقه الصاخب ، الذى راح يهدأ شيئا فشيئا ، فقال :

– كيف تشعر الآن ؟

– لا باس . احسن الآن . وانت ؟

– ماذا ؟

– هل ضربوك ؟

جعل هذا السؤال ريباك يتبلبل . لم يكن يعرف كيف يشرح لرفيقه بايجاز السبب الذى جعلهم لا يعذبونه .

– لا ، ليس كثيرا .

اغمض سوتنيكوف عينيه . لم يكن وجهه الاربد الذى شوهه الالم ، النابت الشعر ، يكاد يبين فى العتمة على القش الاغبر . وكان

صدره ما يزال يخشخش . فخطر لريباك ان يتفق مع صاحبه حول بعض الامور الخاصة بالاستجوابات القادمة ، ما دامت هناك امكانية لذلك .

– اسمع ، قد استطيع ان اخدعهم . – همس ريباك منحنيا على رفيقه ، ففتح هذا عينيه دهشا ، والتمع بياضاهما فى محجريهما لمعانا خابيا يعكسان نور السقف – علينا ان نقول شيئا واحدا ، الاول اننا جئنا للحصول على مواد غذائية . وجدنا الديرة محروقة . فقادتنا اقدامنا الى قرية لياسينى ، و . . .

– لن اقول لهم شيئا على الاطلاق .

قاطعه سوتنيكوف .

تنصت ريباك ما اذا كان بالقرب احد ما ، فبدا له ان الهدوء يسود المكان . ليس غير اصوات ووقع اقدام تتناهى من فوق ، اعلى زنزانتهما تماما ، الا انهم لا يستطيعون سماعه من هناك .

– دع عنك هذا ، لا تتحامق . يجب ان نقول شيئا ما . واذن فاستمع الي . نحن من جماعة دوبوفي . وهذا الآن فى غابة بوركوفسكى . فليذهبوا للتحقق من هذا .

امسك سوتنيكوف انفاسه .

–ولكن دوبوفي هناك فعلا .

– وماذا فى هذا ؟

بدأ ريباك يحنق : انه شخص عنود ، فهل لهذا الامر اى اهمية ! دوبوفي وجماعته فى غابة بوركوفسكي حقا ، ولكن ما ضيره ان يشار الى مكان تواجده والشرطة لا تستطيع ان تصل اليه ؟ اما بقايا فصيلهما بالذات فهى فى مكان اقل امنا .

– اسمع ، استمع الي ! اذا لم نستطع ان نخادعهم فلنقل على نفسينا السلام بعد يوم او يومين . افهمت ؟ علينا ان نبدى شيئا من اللين والمراوغة . القوة من جانبنا فى هذا الحال لا تنفع .

بدا سوتنيكوف وكأنه يشحذ جميع حواسه ، هدأ ، وسكنت انفاسه تماما . فلعله يختلق شيئا ما . ولكنه قال اخيرا :

– كلا . هذا لا ينفع .

كيف لا ينفع ؟ وماذا ينفع اذن ؟ الموت ، اسهل السبل . . . لقد اختل عقله ، فكر ريباك ، لم ينتظر مثل هذا العناد الطائش

منه ابدا . وهذا مفهوم ، فصاحبه يضع احدى ساقيه فى القبر ، فماذا يهمه بعد من الحياة ! انه لا يرغب حتى بتشغيل دماغه من اجل تجنيب رفيقه السير على ذات اثره . ثم همس ريباك بحرقة بعد فترة صمت :

– استمع الي ، نحن بحاجة الى مداراتهم ، مثلما يفعل صياد السمك حين يرى شبوطا فى الصنارة ، والا انقطع الخيط اذا شددت اكثر ، وضاع كل شيء . يجب التظاهر بالاذعان . أتعلم بانهم عرضوا علي الدخول الى سلك الشرطة ؟

افصح ريباك عن ذلك فى غفلة من امره .

اختلجت اجفان سوتنيكوف ، والتمعت عيناه بانتبـــاه مشوب بالقلق الخفي :

–هكذا ! واذن ، ستوافق ؟

– لن اوافق ، لا تخف . سوف اماطل معهم .

– انتبه ، فقد يمطلونك هم – اعقب سوتنيكوف بسخريــــة واضحة .

– ماذا تقترح اذن ، ان نسلمهم رقابنا ؟ – كاد ريباك ان يصيح وقد تصاعد غضبه ، ثم صمت ، مطلقا سبابا بينه وبين نفسه ، ليأخذه الشيطان ! لا يرغب بمقترحه ، ذلك شأنه ، اما هو ، ريباك ، فسيظل يدافع عن نفسه الى النهاية .

تعسر تنفس سوتنيكوف ، لا يدرى : ابسبب الانفعال ام بسبب المرض ، ولكنه حاول ان يسعل ، غير ان صدره تخلّع ، واحتدم كفرن ، وذعر ريباك : ايمكن ان يكون صاحبه قد اشرف على الموت فعلا ؟ الا انه لم يفارق الحياة ، بل سرعان ما استعاد انفاسه ، ليقول :

– لن تخرج من هذه القذارة بطائل ! ستمرغ الشرف العسكرى السوفييتى بالوحل . ولن يطلقوا سراحنا احياء .

– لا ضير من بذل محاولة . . .

– من اجل ماذا ؟

انفجر سوتنيكوف غضبا ، واختنق فى سعاله متعذبا دقيقة ، ثم تنفس بصخب فيما بعد ، قائلا فجاة بصوت خامد :

– انهم يدعونك للخدمة فى سلك الشرطة ليس للعب الورق .

لقد اقتنع ريباك فى دخيلته بقول صاحبه . ولكنه قرر خوض غمار هذه اللعبة املا بالفوز بحياته ، افلا تكفي هذه سببا للانغمار فى هذه اللعبة حتى وان كانت يائسة ؟ سيتضح الامر فيما بعد ، ولكن المهم ان لا يُقتل الآن ، ولا يُعذب فى الاستجوابات . فقط لو يستطيع التخلص من هذا القفص ، فلا يسمح لنفسه ان تسبب الضرر للآخرين . وهل هو عدو جماعته ؟ وقال :

– لا تخف . انا ايضا لست غرا .

اطلق سوتنيكوف ضحكة قصيرة مصطنعة :

– أهبل ! أتعرف شريكك فى اللعب جيدا ! ؟

– سوف ترى .

– انها ماكنة ! فاما ان تخدمها او تسحقك سحقا !

افصح سوتنيكوف عن ذلك مختنقا .

– سيرون كيف اخدمها !

– حسبك ان تبدأ !

«كلا ، لا يمكن الاتفاق مع هذا الانسان الغريب الاطوار» ، فكر ريباك ، شأنه فى الحياة شأنه امام الموت ، دينه وديدنــه عناد حرون ، ومبادئ ما ، وعلى العموم فالمسألة كلها ، كمـا فهم ريباك ، متعلقة بطبيعة الشخص نفسه . فمن لا يعلـم ان اكبر كسب انما يحققه الاكثر مكرا ، فى هذه اللعبة التى اسمها الحياة . والا ، فما هو البديل ؟ وفى الحقيقة ، الفاشية ماكنـــة يسحق تحت دواليبها نصف العالم ، فهل يعقل الوقوف امامهـا وجها لوجه والتلويح لها بايد عارية ؟ ام ان الاكثر معقوليــة الالتفاف حولها لمحاولة حشر عصا فى دواليبها من جانب ! كيمـا تتعثر ، بل وتضطرب ، منتهزا ، خلال هذا الوقت ، امكانيــة التسلل بهدوء للعودة الى جماعته .

صمت سوتنيكوف ، ولربما غام وعيه ، وكف ريباك عـــن الالحاح فى حديثه ، ليفعل صاحبه ما يراه مناسبا ، اما هو ريباك فسيحكّم عقله الخاص .

اضطجع على جنبه ، وثنى ساقيه ، ورفع ياقة معطفه النصف الى اعلى . وما دام الوقت متوفرا ينبغي استغلاله اذن فى غفوة تصفي الراس ، اذ سرعان ما سيفقد النوم اهميته بالنسبة لـه

ربما . الا انه كان واثقا من حسن طالعه ، وراح يقتنع بالتدريج ان علاقته مع الشرطة قد اتخذت وجهتها الصحيحة ، التى ينبغى الحفاظ عليها ، اذا لم يفسد سوتنيكوف بخراقته وعناده كل مخططاته . الا ان صاحبه لا يبدو انه باق على قيد الحياة طويلا . كان ذلك غريبا وكريها ، التفكير بموت رفيقه القريب ، ولكن الامور لن تسوّى بغير ذلك . وقد رأى ريباك فى موته المخرج الوحيد لخروجه هو من هذا الفخ .

واذ غرق ريباك في لجة افكاره لم يسمع فى الحال كيف تسلل بهدوء شىء ما حي على جزمته ، ثم اعيدت الكرة ثانية . فحرك ساقه ، ليرى فجأة بوضوح جرذا ، هرع بجرمه الرمادى الى الجدار ، وسكن هناك ، بينما انطرح ذيله الطويل الرقيق على القش حذرا . اقشعر ريباك ، وضرب بكعب جزمته الارضية هناك فاختفى الجرذ بسرعة مصوصئا بوهن فى الزاوية المعتمة . وفهم ريباك من الخشخشة الخفيفة المنبعثة من القش ، ان ذلك الجرذ ليس وحيدا . كان ينبغى قذف شىء ما عليه ، ولكنه لم يجد ما يناسب قريبا من يديه ، فانتزع ريباك قبعته من رأسه ، وقذف بها الى الزاوية .

عندما هدأت ضجة الجرذان هناك زحف على اربع ليجلب قبعته ، ثم تهاوى بظهره على الحائط ثانية . الا انه لم يستطع النوم . وراح ينظر الى الزاوية بخوف مشمئز مبهم .

١٤

اعادوا بيوتر بعد مرور فترة غير قصيرة ، عند مغيب الشمس ربما ، كانت الانوار فى الزنزانة قد صدأت تماما ، والكوة فى اعلاها ، لم تعد تهرّب ، من النهار القارس ، غير رشح شحيح ، بينما فقدت حتى الطفاوة الساطعة التى كانت تظهر عند فتح الباب نضارتها . احنى المختار رأسه الاشيب وعبر العتبة صامتا ، ليحشر نفسه فى زاويته المعتمة .

لم يتعجل الشرطى فى غلق الباب ولذا لم يتململ ريباك عند الجدار ، انما ظل ضاغطا نفسه اليه بشكل ممرض ، لكانه يحاول

الاندغام فى عتمة هذه الزنزانة العطنة . كان امرا رهيبا ان يكون التالى هو ، رغم انه عرف ، ان ذلك الامر غير مرتبط تماما بالشرطى . الا ان الباب اوصد اخيرا دون ان يُستدعى احد ، وصلصلت الرزة بامان . الا ان وقع اقدام الشرطى – لم يكن ستاس هذه المرة بل واحد آخر غيره – توجهت فى الرواق ، لا الى الدرجات ، بل انعطفت الى اتجاه مختلف ، وسرعان ما طقطقت رزة احد الابواب فى مكان ما باعماق القبو ، وتردد نداء كالح ، واجهاشة بالبكاء قصيرة انطلقت من امرأة .

انهم يستدعون النساء هذه المرة .

وما ان ساد السكون فى القبو ثانية حتى بدأ ريباك يستعيد رباطة جاشه شيئا فشيئا . واذن ، فقد اخطأته المصيبة هذه المرة لتطال آخر ، فجلب له هذا الطمأنينة رغم كل شىء ، كما هو الحال فى الحرب دائما ، لكأنه منح حظ جديد فى العيش .

لم تكن لريباك ادنى رغبة لعقد حديث مع المختار ، الذى بدا انه قد نال نصيبا من التعذيب اقل مما اصاب سوتنيكوف . الا ان الحالة التى جعلت العجوز يمسك بلسانه ويسكن فى زاويته المعتمة مغتربا قد اقلقت ريباك ، فسأل بحيوية تزيينية :

– ماذا اذن ؟ أسار كل شىء على ما يرام ؟

رد بيوتر بعد برهة قصيرة بصوت كئيب :

– كلا ، لن يكون ثمة شىء على ما يرام . وضعنا سيئ .

– لن يكون اسوأ – وافقه ريباك .

مخط المختار ، ومسح شاربه بحركة مألوفة ، واخبره بطريقة بدت عرضية ، دون ان يتوجه بكلامه لاحد :

– حاولوا اقناعى ان استخلص منكما مكان تواجد مجموعتكما ، وبعض الاشياء الاخرى . . .

– هكذا اذن ! – دهش ريباك مزعجا ، وقد تذكر حديثه المنصرم مع سوتنيكوف – اى طلبوا منك التجسس ؟

– شىء من هذا القبيل . عشت سبعا وستين عاما ويريدوننى الان فى شيبتى ان افعل هذا . . . كلا ، ليس هذا لى .

تحرك سوتنيكوف على القش قريبا منهما ، ثم انتفض مذعورا ، متكئا على مرفقيه .

– من هذا ؟
– مختار قرية لياسيني ، ان لم تكن قد نسيته .
اجاب ريباك بصوت خامد .
انقطع الحديث ، وسكن ريباك وبيوتر ، كل فى زاويته . وانطفات الكوة فى السقف ولم يظهر منها سوى ما يشبه الغلالة ، كانت مقسمة بالاشياش بوضوح الى اربعة مربعات . فهيمنت فى الزنزانة عتمة كثيفة . لم يشعر احد برغبة فى الحديث ، وغرق كل منهم عميقا داخل نفسه ، عاكفا على افكاره ، الخالية من الامل .
ثم تردد وقع الاقدام مرة اخرى على الدرجات ، وسمع باب خارجي يُفتح ، بينما عاطت رزة زنزانتهم بغتة بعنف ، فيما استوفزوا ، وقد استثارهم واقلقهم جميعا سؤال اوحد فى مثل هذا الحال : من جاؤا ياخذون ؟ الا انه اتضح خلال هذا الوقت انهم لم ياتوا لاصطحاب احد منهم ، بل العكس ، جاؤا الى الزنزانة بنزيل جديد .
– هيا ، الى الامام سر !
انزلق احد ما فى العتمة عبر مستطيل الباب من غير صوت تقريبا ، يكاد جثمانه لا يرى ، واختفى عند العتبة ، بالقرب من قدمى ريباك تماما . وبعدما اغلق الباب مصحوبا باصطفاق ، ودفع الشرطى الرزة مصفرا ، سال ريباك فى الظلمة :
– من هنا ؟
– انا .
كان ذلك صوت طفل ، فوضح كل شيء فى الحال ، بينما ارتصف الهيكل الصغير للنزيل الجديد الى الباب مباشرة ، وصمت .
– ومن انت ؟ ما اسمك ؟
– باسيا .
«باسيا ، من هذه باسيا ؟ يالغرابة الاسم . ما الذى جاء بها الى هنا – دهش ريباك – لماذا انزلت فى زنزانتهم ولم ترسل الى ديمجيكا ؟» وسال ريباك :
– من اين انت ؟

صمتت الفتاة . فسال عن امر آخر :
– كم عمرك ؟
– ثلاثة عشر .
تململ بيوتر فى الزاوية متنهدا بصعوبة .
– هى ابنة الاسكافى . هل دعوك للاستجواب ؟
– بلى – اكدت الفتاة بصوت واطىٔ .
– قتلوا الاسكافى مع اهالى القرية . بنته وحدها سلمت . ما العمل بك الآن يا باسيا ؟ – تنهد بيوتر مرة اخرى بصعوبة .
لقد فقد ريباك اهتمامه بهذه الصبية فجأة ، فثمة شأن اقلقه ليس قليلا : لماذا انزلوها فى زنزانتهم ؟ فى القبو اماكن اخرى ، وعلى مقربة احتجزت نساء ، فلماذا تدفع صبية الى رجال ؟ اى مغزى فى هذا ؟
بعد برهة صمت سال بيوتر بصوت واطىٔ :
– وما الذى يريدونه منك ؟
– كى ابوح لهم عن مكان اختفائى .
– هكذا ! وهل افصحت لهم عن ذلك ؟
انكمشت باسيا على نفسها ، وسكنت حتى كانها لم تعد تتنفس . فاثنى المختار عليها بعد برهة :
– لا يحسن الكلام عن هذا ، بالنسبة لى قضيتى منتهية . اما بشان الاخرين فعليك التزام الصمت حتى لو ضربت . ام انهم انتهوا من ضربك ؟
عوضا عن الرد سمع من الزاوية فجاة نشيج ، تبعه بكاء ممرض مكتوم ، غير طويل ، طافح باليأس الطفولى الصريح ، جعل الحاضرين فى بلبلة من امرهم . وسمع سوتنيكوف على القش يمسك بانفاسه حذرا .
– ريباك !
– انا بالقرب .
– كان هناك ماء .
– اتريد ان تشرب ؟
– اعطها ماء ! لماذا تبقى جالسا ؟
تلمس ريباك القدر قرب الحائط ، ومد يده به الى الصبية .

– لا تبكي ! خذي اشربي .

شربت باسيا قليلا منه ، ثم هدات ، وسكنت عند العتبة . ناداها بيوتر :

– تعالي الى هنا . يوجد مكان ها هنا . سوف نجلس حاذى الحائط .

نهضت باسيا طائعة ، وخطت فى العتمة بحفيف لا يسمع ، حافية القدمين ، متوجهة الى العجوز ، بينما تحرك هذا فاسحا لها مكانا الى جانبه .

– لقد وقعنا . ماذا تراهم فاعلون بنا بعد ؟

صمت ريباك ، غير راغب بمواصلة الحديث ، بينما انّ سوتنيكوف بهدوء قريبا منه ، وطفقوا ينتظرون ، وكل انتباههم معقود عند الدرجات ، منبع المصائب .

ولم يطل الانتظار كثيرا فعلا .

تردد صوت مفعم باللؤم ، بعد ربع ساعة ، من الباحة : «هيا ، هيا ايها الساقطة !» فتلاه الرد ، لا اقل حدة منه : «لتحرق فى الجحيم ايها النذل !» – «هيا تحركي ، والا قلعتك من جذرك !» جعجع صوت الرجل ، وطبطبت اقدام على الدرجات ، وانطلق سباب ، ولم يعد ثمة مكان للشك : كانوا يقتادون ديمجيكا من الاستجواب .

الا انهم لم يقتادوها ايضا الى زنزانتها السابقة ، فقد توقف الشرطى بالقرب من بابهم ، قعقعت الرزة ، ودفع ستاس المراة بقوة عبر العتبة . فسقطت ، وقد تعثرت ، على ساقى ريباك ، بينما هدرت فى العتمة :

– الى اين تدفعنى ايها الوغد ! هنا رجال ! آه يا ربي ! . . .

فصرخ ستاس :

– هيا ، هيا ! لنّ ياخذك الشيطان ! تستطيعين البقاء هنا حتى الصباح .

– وماذا فى الصباح ؟

سال ريباك فجاة ، وقد تناهى الى اذنه تلميح ما فى صوت الشرطى . كان ستاس قد اغلق الباب ، الا انه فتحه ثانية ، وجعجع فى الزنزانة :

– فى الصباح غروس اليس كابوت ! فارشتاى ؟ * .

«يقضى علينا ؟ وكيف ؟» – اجتاحت هذه الفكرة المقلقة وعي ريباك المتصدع . الا ان المعنى الرهيب لتلك الكلمات المبتسرة كان واضحا بشكل لا يدع مجالا للشك فيه برهة طويلة . فاصابته هذه الكلمات الواضحة كصخرة فى الراس .

واذن ، فالنهاية فى الصباح !

ودون ان يحس بنفسه طوى ساقيه بآلية ، وسمح للمراة ان تجد لها مكانا عند العتبة ، فتمخطت مجهشة فى البكاء ، ثم بدات تتنهد ، وتهدأ . ظلوا جميعا صامتين دقيقة ، وقال بيوتر من زاويته مقلبا الفكر :

– ما العمل ، ما دمنا قد وقعنا . ينبغى الصبر . من اين انت ايتها المراة ؟

– انا ؟ من قرية بودوبيه ، اذا كنت سامعا بها .

– سامع ، وكيف لا . ومن هو رجلك هناك ؟

– ديميان اوكون .

بدا ريباك يتنصت الى ديمجيكا محاولا الابتعاد باى ثمن عن احاسيس غادرة ألمّت به . لم يكن يرغب الكشف عن نفسه بالحديث ، فضلا ان ديمجيكا لم تتعرف عليه بعد فى الظلام ربما . كانا قد تعرفا على طبعها الحامى من قبل ، اما الان ، وفى وضع كهذا فان هذه المراة – فكر ريباك – مستعدة لاثارة فضيحة ، فقد كانت لها اسبابها لذلك ، الا انها راحت تهدأ بالتدريج ، ونشقت من انفها بقوة مرة اخرى ، واستوى صوتها قليلا ، واصبح معتادا ، كالذى تحدثت به معهما فى القرية . وقال بيوتر مبديا اهتمامه :

– هكذا ، وديميان فى الجيش . . .

– ديميان فى مكان ما يتعذب . وهم يتطاولون على هنا . اعتقلونى ! والاطفال ، من لهم ؟ كيف يدبرون حالهم من غيرى ؟ آه ، يا اطفالى يا احبائى . . .

وما ان سكنت المراة حتى انخرطت فى البكاء ثانية ، فلم يحاول احد تهدئتها ، فقد كان الجميع مشغولين بامرهم . وظلت كلمات

* فى الصباح سيقضى عليكم جميعا ! مفهوم ؟ (بالالمانية) . **المترجم** .

ستاس الحاقدة تتصادى فى الزنزانة ، تهصرهم ، تفزعهم ، اضطرت الجميع الى الاستغراق فى معاناة مؤلمة ، سوى المختار الذى بقى ظاهرا هادئا حصيفا كالسابق ، بينما تنهدت ديمجيكا بغتة وكأنها استهلكت كل دموعها ، وعلقت بهدوء :

– ا هؤلاء ناس ؟ ! وحوش ! انظر ، اى شيطان اصبح بافكا هذا !

انضم بيوتر الى الحديث :

– برتنوف ، تقصدين ؟

– بلى ، اذكره فى شبابه ، كانوا يسمونه انذاك : بافكا . ثم تعلم واصبح معلما فيما بعد . كان يذهب كل صيف الى امه التى كانت تعيش فى الديرة ، من اجل الحليب والتفاح . شبعت عينى من النظر اليه . اى رقيق كان انذاك ، لكل من تقع عليه عيناه كان يقول : «نهاركم سعيد» ، ويصافح ايدى الرجال .

– اعرف برتنوف ، وكيف لا اعرفه – قال بيوتر – حدث ان كان يقوم بنشاطات دعائية مناهضة للدين بين اهل القرى . . . كان يتشدق كثيرا . . .

– كان وغدا ، وظل وغدا . للاسف لا يعرفه الجميع حق المعرفة . مثقف !

– وذلك الشرطى ، يبدو انه من ديرتكم ايضا ؟

– ستاس ؟ من ديرتنا ! الابن الاصغر لفيليبينوك . حبسوه مرة بسبب ضربة سكين ، وما ان جاء الالمان حتى عاد فى الحال واصبح يقوم باعمال رهيبة . عذب الناس ، وقيل انه قتل منهم الكثير ، ونهب ما ملأ به بيتا . اما الان فها هو امامنا هذا الوحش .

– انئى افكر طيلة الوقت – تململ المختار قلقا – ان الالمان ، الفاشست كما هو معروف ، اناس اغراب ، فماذا ينتظر من اولئك . ولكن كيف الحال مع مواطنينا ، الذين معهم ؟ كيف يمكن فهم هؤلاء ؟ عاشوا مع الناس ، ومنهم من ذاق زادهم وملحهم ، اما الان ، فها هم يرفعون البنادق ، يصوبونها نحونا ، ويهدفون علينا ! ما اكثر الضحايا التى سقطت . . .

– هل ذلك الذى أسمه . . . بوديلا من ديرتكم – قال ريباك وقد فرغ صبره .

– بوديلا وغيره ، من هنا ، ويعلم الشيطان من اين ايضا . قطاع الطرق ، بحبوحة العيش لهم الان – قال مختار لياسينى بصوت واطىء كالح رزين . ولكن ديمجيكا قاطعته عجلى وقد تذكرت شيئا ما :

– يقولون ان خودورونوك هذا ، صاحبهم ، الذى جرح ليلا ، قد نفق . لتطلع ارواحهم جميعا !

تنهد بيوتر :

– لن تطلع ارواحهم جميعا الا اذا تغلبت جماعتنا عليهم !

تحرك سوتنيكوف على القش ، وتصاعدت انفاسه محاولا ان ينهض ، وافصح بصعوبة :

– اتؤمن بما تقول ايها الشيخ منذ زمن طويل ؟

– وهل ثمة ما يمكن الاعتقاد بغيره يا بنى ؟ الامر واضح للجميع .

– واضح تقول ؟ لم قبلت اذن ان تكون مختارا ؟

عمّ سكون محرج ، صمت الجميع ، اقلقهم هذا السؤال العميق المعنى . ثم تغلب بيوتر على امر فى نفسه ، وتكلم فجاة بصوت مرتعش :

– قبلت ! . . آه لو عرفتم ، لا موجب للحديث عن ذلك هنا . ولكن قد فات اوان التستر . لقد تهربت من تلك المسؤولية ما استطعت . لم اذهب الى مركز الناحية . وهل انا احمق كى لا افهم هذا . غير انى سمعت ليل احد الايام طرقا على النافذة ، فتحت الباب ، ونظرت . . . فاذا بى ارى سكرتير سابق للجنة الحزب فى ناحيتنا ومدير الميليشيا ، واثنين آخرين يحملان سلاحا . عرفنى السكرتير ، فقد نقلته فى احدى المرات من احد الاجتماعات اثناء فترة الكلخزة * ، كلمة من هنا ، واخرى من هناك ، حتى قال : «سمعنا انهم يريدون تعيينك مختارا ، ونحن نرى ان توافق . والا سيأتون ببوديلا ، فيسوء الامر اكثر» . وهكذا وافقت ، لما فيه تعاستى ومصيبتى .

---

* اشاعة التعاونيات فى الزراعة . **المترجم** .

– هكذا – قال ريباك بنبرة مبهمة .

– نصف عام وانا اسير بين نارين ، حتى وقعت . اما الان ، فما العمل ؟ لقد كتب الموت على .

– الموت امر سهل ، لا يحتاج لدهاء – غمغم ريباك خاتما حديثا غير محبذ لديه . لم يكن فى ما حكاه المختار عن نفسه ما لا ينتظر بالنسبة اليه . فقد اصبح بامكان ريباك ان يخمن هذا الشأن او ذاك بعد استجوابه من قبل برتنوف . الا انه كان غارقا الان فى مشاغله ، واكثر ما كان يخشاه ان يصل طرفا مما افصح به من نواياه هنا الى آذان الشرطة ، فينقطع آخر خيط له من الامل .

كان سوتنيكوف مفتوح العينين خلال ذلك الوقت ، متمددا على القش بصمت . لقد عاد الوعى اليه ، ولكنه كان يشعر بنفسه على اسوأ حال ، كانت ساقه تؤلمه بقوة من القدم الى الحوض ، واصابع يديه ملتهبة ، وكل ما فى صدره يغلى . لقد فهم ان المختار قال الحقيقة ، ولكن وضعه لم يتحسن من جراء هذه الحقيقة . وفجأة اعترى سوتنيكوف شعور بالخطيئة تجاه بيوتر هذا . ولكن من يتحمل الذنب فى هذه المسألة ؟ لقد حصل معه ما حصل لهما مع ديمجيكا التى برزت امامهما لوما حيا على عدم تحوطهما الذى لا يغتفر . وانتظر سوتنيكوف ، مستمعا الان لكلمات المرأة بتهيب ، ان تصب سبابها عليهما باقذع الكلمات . لم يكن يعرف بم يمكن الاعتراض عليها فى هذه الحال . الا ان الوقت مر وهى تطلق جام غضبها على الشرطة والالمان ، بل انها حتى لم تذكره وريباك ، وكأن لا صلة لهما على الاطلاق بمصابها . غير انها لم تتأثر ايضا بكلمات ستاس المتوعدة فكأنها لم تفهم معناها ، او ربما لم تمحضها الانتباه المناسب .

وما يذكر ، ان تصديق كلام ستاس كان جالبا للرهبة حتى بالنسبة لسوتنيكوف المتهيىء لكل شىء . كما انه لم يستطع ان يفهم جيدا : هل ان ستاس الشرطى حاول ان يفزعهم وحسب ، ام انهم انتووا فعلا القضاء عليهم جميعا دفعة واحدة . ولكن ايعقل انهم لا يشبعون من ضحيتين ، هو وريباك ؟ فاى معنى من انزال العقاب بديمجيكا التعيسة هذه ، وبهذا المختار المسكين ، وتلك الصبية ؟

فكر سوتنيكوف : امر لا يصدق ، الا انه هكذا كما يبدو ، والعقرب يجب ان تلذع والا فاى عقرب هى ؟ ولهذا السبب ربما حشروهم جميعا فى زنزانة واحدة ، زنزانة المحكومين بالموت .

١٥

اغفى ريباك دون ان يلحظ هذا جالسا ، منثنيا ، فى مكانه بحذاء الحائط . لم يكن ذلك نوما حقيقيا ، بل غيابا عن الوجود برهة من الزمن ، سببه التعب والانهاك . الا انه سرعان ما استيقظ وقد استثاره خاطر انذره بالثبور . فتح عينيه ولم يفهم فى الحال اين هو . تردد الى جانبه فى العتمة حديث هادىء ، وسمع صوت صبية مألوف ، فذكره فى التو بباسيا ، يقطعه احيانا همس عجوز اجش ، كان ذلك بيوتر يقدم كلماته الدامغة . استمع ريباك الى حديثهما الليلى الهادىء ، اشبه بوشوشة سقف من القش فى دفيف الريح .

– اردت فى البداية ان اجرى خلفهم ، وقد اقتادوهم ، فقفزت من الجنينة ولكن العمة براسكوفايا لوحت بيدها لى آمرة : «لا تذهبى ابدا . قلت لك : اختفى !» فركضت عائدة الى خلف السياج فحقول الخضروات واختبأت فى كثيب حور . لعلك تعلم اين يقع ذلك الكثيب الكبير ، عند نهاية حقول الخضروات على ضفة النهر ؟ انه كثيف ، شديد الكثافة . يمر على مسافة خطوتين منه الممشى . واذا جلست بهدوء تختفى عن الانظار تماما . وهكذا مضيت الى هناك فاخترت لى مكانا يابس الورق ، ورحت انتظر . فكرت ، ما ان تعود امى حتى تنادى على فاسمعها واجرى اليها . انتظرت ، انتظرت ، ولا احد ينادينى . وكان الظلام قد بدأ يهبط ، فاستولى الخوف على ، وراح يتهيأ لى ثمة من يتحرك ، ويزحف ، وتوقف وتنصت مرة اخرى . . . بدا لى انه ذئب ! آه ، ما اشد خوفى من الذئاب ! ولم استطع النوم لحظة واحدة ، وعندما طر الفجر ، غفوت قليلا ، ثم شعرت بجوع شديد حينما استيقظت . ولكننى كنت خائفة من الخروج من الكثيب ، وكان مسموعا من الشارع لغط اناس ، وجعجعة

عربات ، كانوا يحملون من بيوت القرية كل ما يقع فى الايدى ، وينقلونه الى مكان ما . وهكذا بقيت جالسة حتى من ليل آخر ، ونهار آخر ، حتى لم اعد اذكر عددها . وعندما كانت النسوان ياتين لخض البياضات فى ماء النهر ، كنت ارى سيقانهن خلل الاوراق . وجميعهن يمررن قريبا منى ، اما انا فقد كنت جائعة الى درجة لم اعد استطيع معها الخروج من الكثيب ، ولم افعل الا الجلوس والبكاء بصوت خفيض . وفى احدى المرات توقف احدهم قرب الكثيب . اخفيت نفسى تماما ، حتى كتمت انفاسى ، ثم سمعت من يهتف بهدوء : «باسيا ، باسيا !» نظرت فاذا بها العمة براسكوفايا . . .

– لا تقولى من كان يهتف . ما حاجتنا لنعرف كل شيء – قاطعها بيوتر بهدوء .

– اعطتنى العمة ربطة ، فيها خبز وقليل من شحم الخنزير ، ما ان رايت ذلك حتى التهمته التهاما ، الا قطعة من الخبز . . . آه ما اشد وجع البطن الذى امسك بى بعد ذلك ، تمنيت الموت بسببه حتى اننى دعوت ربى وامى ليعيناننى فى طلبه .

احس ريباك بالقشعريرة ، وقد بدا له ذلك الكلام مالوفا ، خبره وعاشه ، وكان امامه ، لا صبية لها من العمر ثلاثة عشر ربيعا ، بل عجوزا تلقى على اسماعهم اعترافاتها . فذكرته حكايتها هذه مباشرة بامرأة عاشت تسعين عاما فى قرية بالغابة ، فى ذلك الجانب من خط سكك الحديد كانوا قد خرجوا انذاك من الغابة بغرض الاستفسار عن الالمان ، والارتياح قليلا فى دفء ، وتبلغ شيء من الطعام بالطبع . لم يجدوا احدا فى ذلك البيت المنتصب على مبعدة من بيوت القرية ، سوى امرأة عجوز صماء ، تجلس على سطح الموقد ، مدلية قدميها العاريتين على الافريز . وفى الوقت الذى كانوا يدخنون فيه كانت العجوز تتشكى تعبة الى الرب ، الذى لا يسمح لها بالموت ، مطيلا بعذاب امد حياتها البالغة الكبر ، الخالية الفائدة . كانت وحيدة ، دون اقارب ، فتقربت من معارفها البعيدين والناس الاغراب ، الذين كانوا بحاجة لتنشئة الاطفال ووضع العين على اعتاب البيت كان ذلك بعد الحرب العالمية الاولى . يبدو ان اصحاب البيت كانوا قد قدروا ان العجوز ستعمر خمس سنين بعد ، يكبر الاطفال خلالها ،

ثم ياتى يومها ، فتنقل الى المقبرة . الا ان يومها هذا لم يأت ، لا بعد خمس سنين ، ولا حتى بعد خمسة عشر عاما ، ظلت العجوز باقية على قيد الحياة فى بيت الناس الاغراب . شب الصغار خلال هذا الوقت ، واستشهد صاحب البيت فى الحرب ضد الفنلنديين البيض ، اما زوجته نفسها فقد كانت تعيش عيشة الحاجة والمشقة ، وما دعواها بعجوز غريبة لا حول لها ولا قوة . ورغم ذلك لم يزرها الموت . وعندما ودع ريباك العجوز انذاك ، رجا لها مازحا تصرم ما تبقى من حياتها الفانية باسرع ما يمكن . ثم ابدت العجوز شكرها له ، داعية من ربها شيئا واحدا . اما الان فالصورة تعيد نفسها . الا ان المخلوق الذى امامه صبية ، فاى عجائب تحدث فى هذه الدنيا !

– اما فيما بعد فقد تحسن وضعى . وفى احد الايام ذعرت صباحا . كنت قد استسلمت للنوم توا عندما شعرت بحيوان ما يزحف عند الشاطىء فى الكثيب . اتضح فيما بعد انه هر . هر رمادى ضخم من القرية ، بقى لوحده ربما ، وها هو يبحث عن طعام له ، يتصيد السمك ، يجمد على الضفة دون حراك ، يحملق نحو النهر ، ثم يقفز بعد ذلك قفزة لا مثيل لها ! ليخرج فيما بعد من النهر مبللا وبين انيابه سمكة . آه لو استطعت انا ان اصطاد مثلما يصطاد ! هكذا فكرت . اردت ان انتزع منه السمكة ، ولكننى لم افلح فى ذلك ، فقد هرب منى ، وقضى عليها فى حرش آخر ، دون ان يبقى منها حتى الذنب . الا اننا تصادقنا فيما بعد ، ياتى نهارا ، يتسلل الى الحرش ، ويتمدد قريبا منى ، ليهر لوحده . اربت عليه فاغفو قليلا . اما هو فقد كان شديد الرهافة ، ما ان يظهر احد ما بالقرب حتى يستوفز ، فاعلم انذاك انه يتوجب الاحتراس . اما عندما كان الجوع يعضنى فقد كنت اتسلل ليلا الى الجنينة القريبة ، كانت ثمة بقية من الخيار والجزر عند زالمان الاعرج . ولكن الهر لم يكن ياكل الجزر ، وهكذا كنت اشعر بالاسف عليه . . .

– عليه ان يصطاد الفئران – اعقبت ديمجيكا من الظلمة – كانت عند احدهم قطة فى قريتنا بودوبيه ، تاتى بالارانب الصغيرة الى البيت ، لا اكذب ، وحق الرب . وفى مرة جاءت بارنب كبير ، ولكنها

لم تستطع سحبه الى العلية يبدو انها كانت قد استهلكت قواها . خرج زميتر فى الصباح فاذا به يرى ارنبا فى الزاوية .

– كان لها صغار ربما – خمن بيوتر .

– كان .

– الامر مفهوم اذن . فقد سعت من اجل صغارها ، حالها حال الام . . . وماذا بعد يا باسيا ؟

– بقيت جالسة فى مكانى هكذا – همست باسيا بهدوء وثقة – وقد جلبت لى تلك . . . العمة خبزا عددا من المرات . ثم اصبح الجو باردا جدا فيما بعد ، نزل المطر ، وبدأت اوراق الشجر تتساقط . وفى احد الاصبحة رآنى رجل ما . لم يقل شيئا . ومر بى مرورا . اما انا فقد ذعرت . وبقيت ارتجف حتى حلول الظلام تقريبا . وما ان انهمر المطر مساءاً خرجت من الكثيب ، ورحت اسير على غير هدى ، حتى وصلت صباحا الى منشف للحبوب يعود لاحدهم . جلست هناك ثلاثة ايام . كان الحال هناك لا باس به ، المكان جاف ، ثم بدا التفتيش ، كانوا يبحثون عن الجودار ، وكادوا يعثرون عليّ ، وهكذا انتقلت الى الاسطبل ، كانت فيه خنازير ، فمكثت الى جوارها ، وفى الليل احشر نفسى بين خنزيرة وصغيرها وانام . كانت الخنزيرة هادئة ، اما الحلوف ، فلتاخذه كوليرا ، كان يعض . . .

– اواه يا ربى ! كيف تمرمرت المسكينة ! – وتنهدت ديمجيكا .

– كلا . كان المكان هناك دافئا .

– وكيف دبرت امر الطعام ؟ ام ان احدا ما كان يجلبه لك ؟

– ولكنى لم اظهر امام احد . اما الطعام . . . فكنت اختار بعض الاشياء فى المعلف . . .

– اوى ، ماذا فعلوا بالناس ، يا ربى ! اما صاحب البيت فلم يلحظ شيئا ؟

– قد لحظ بالطبع . غفوت يوما ، وكان الثلج قد هبط . ثم وثبت لكى اعبر الشارع الى البيت الخالى الذى تخفيت فيه ايضا . وما ان جريت عبر الشارع والقيت نظرة ورائى حتى التقيته هناك فى الباب ينظر الى . فاختفيت وراء شجرة اسفندان ، شجرة ضخمة عريضة . . .

– اوى ، تلك التى تقع امام الصيدلية ربما – خمنت ديمجيكا – هناك يعيش ايغنال سوبرون . . .

– وماذا يهمك من يعيش هناك ؟ – قاطعها بيوتر بشىء من الخشونة – لماذا الاستفسار عن هذا ؟ لا يهمنا من يعيش هناك !

– وحتى لو قلت فماذا فى هذا ؟ – بشىء من الزعل اعقبت ديمجيكا .

– لا شىء . . . اما فيما بعد . . . لا مبرر للاخفاء بعد الآن ، الامر سواسية . . . الدنيا لا تخلو من اخيار . لقد ارسلوا باسيا الى فى القرية . فكروا بطريقة صحيحة : لن يبحثوا عنها عند المختار . وبسبب تلك الذبيحة الملعونة المشؤومة وقعنا سوية : انزلونى من الموقد ، واخرجوا باسيا من مخبئها تحت ارضية البيت . . .

لم يدهش ريباك ما سمع ، فكر فقط : لم يخفها كما ينبغى ، لو اخفاها جيدا لما عثروا عليها . ما الغرض من سرد كل هذه الوقائع هنا ؟ من لا يعرف ان للحيطان آذان بعض الاحيان ، الا انه نكص بعد برهة : لياخذهم الشيطان ! ما دعواه بهم ؟ فضلا ان الاوان قد فات لاخفاء شىء ، ولابداء الحذر . واذا كان ستاس قد قال الحقيقة ، فالموت ينتظرهم جميعا فى الغد .

هيمن سكون سادر ثقيل على الزنزانة ، خرقته باسيا بعد برهة :

– كان حالى تحت الارضية لا باس به ، فرشت لى العمة اريتا حشية قش . سمعت كيف دخل هذان الرجلان ، وما ان خرجا ونمت قليلا حتى سمعت فى الحال السباب والشتائم ، الشرطة ! ويلاه !

وهنا اطلقت باسيا صرخة خوف مفاجئة اجبرت بيوتر على القفز من مكانه ، وفهم ريباك : انه جرذ . لقد بلغت الوقاحة او الجوع بهذه المخلوقات حدا لم تعد معه تخشى الناس . طبطب العجوز بجزمته بضع مرات فى الزاوية . واذ قفزت باسيا من مكانها وقفت الان وسط الزنزانة ، فغطت مربع الكوة المضىء بجسدها . كانت ترتعش ذعرا من راسها الى اخمص قدميها .

– انها تعض ، عضعضت قدمى . اننى اخافها كل الخوف ، يا عم ! . . .

– لا تخافى . . . الجرذان لا تخيف . تعض ؟ وماذا فى ذلك !

وهل هذه مصيبة ! اذهبى الى زاويتى هناك واجلسى . اما انا فلسوف ابقى هنا ، لالقن هذه الشياطين درسا ! . . .

طبطب بجزمته مرة اخرى ، ونكش القش فى الزاوية ، ثم جلس هناك ، بينما انزوت باسيا فى مكانه المدعوك على القش . كان سوتنيكوف يبدو نائما ، وديمجيكا مقابله تتنهد حينا ، وتتمخط فى منديلها حينا آخر .

– واذن ، ما العمل الان ؟ – تساءل بيوتر فى الظلمة ثم اجاب نفسه بنفسه – ليس لنا ما نفعله الان . لنصبر . لم يبق الا القليل .

ساد سكون . مد ريباك ساقيه بحرية اكبر ، اراد ان يغفو ، ولكن النوم جفاه واستعصى عليه .

كانت امامه هوة .

لقد فهم هذا بوضوح ، وبخاصة الان ، فى هذا الليل ، وفى هذه الهداة ، وفكر ، انه لم يعد بالامكان تغيير شيء . كان يسعى دائما فى كل آن ومكان ان يحتال على ظروفه لايجاد مخرج ما ، ولكن هذا يستحيل عليه الان ، اذ لا يلوح الان امامه مخرج . فبدأ الرعب يستولى عليه شيئا فشيئا ، كما حدث له فى طفولته عندما انقذ الفتاتين والحصان . ولكن الخوف جاء اليه فيما بعد . اما وقت الخطر فقد كان ريباك الصبى يتحرك بغريزته اكثر مما كان يفكر ، ولعل هذا ما كان يحدد فى خاتمة المطاف مجرى الامور بالنسبة اليه . لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد ، قبل انشاء الكلخوزات ، فى فترة طفولته فى القرية . لماذا يتذكره الآن ؟ الا انه يتذكر الان لسبب ما ، ضد رغبته ، ذلك الحادث البعيد الذى يرتبط بعلاقة لم تتضح بعد كما يبدو بوضعه الحالى .

كانت عائلة ريباك من الفلاحين المتوسطى الحال فى القرية ، لا اسوا ولا احسن من الاخرين . عند والده جواد كميت كريم الطبع ، قوى وفتى ، ولكنه كان يحتدم احيانا فيعالج ريباك ذلك ، كما ينبغى . كان الشباب يبتدلون اعمال الفلاحة فى القرية بسن مبكرة ، وقد حاول ريباك قبل ان يتجاوز الثانية عشرة القيام باعمال الحصاد والحراثة وتسليف الارض قدر مستطاعه .

فى ذلك اليوم كانوا ينقلون حزم الزرع من الحقل .

وكان ذلك عمل من اعمال الاولاد . الطريق مالوفة تماما ، مدروسة بكل تفاصيلها . وكان يستطيع بعينين مغمضتين ان يقدر متى عليه الانحراف قليلا الى جانب ، ومتى عليه الاحتفاظ بالسير على الاثر المطروق ، وكيف يمكن ، بافضل صورة ، الالتفاف حول حفرة الماء العميقة فى الوهدة ، وكانت اخطر منطقة من تلك الطريق تلة كوبتسوف ، النتوء الجبلى ، المنعطف ، والشق الضيق تحت الجرف العالى . كان ينبغى هناك فتح العينين جيدا . الا ان كل شيء مر بسلام . وكان والده قد جمع ما تبقى من الحزم فى نهاية الحقل ، وملأ العربة اكثر من اللزوم ، فلم تكفه الحبال لشد حمله ، بينما صعدت اليه اخته الصغيرة مانيا ، ذات السبعة اعوام ، وبنت الجيران لوبا ، على ذلك الحمل .

قاد ريباك حصان العربة بهدوء وثقة كشانه دائما ، متقلقلا فوق الحمل طيلة الطريق من هذا الجانب الى ذاك . حاذوا تلة كوبتسوف ، وهبطت الطريق الى الوهدة ، فحدث انذاك حادث مع عدة الحصان ، ولم يحتمل الحصان ذلك ، بينما إرتفع جانب العربة الايسر عاليا ، وراحت تميل الى اليمين . نظر ريباك الى اسفل فانزلق من العربة الى الارض .

لقد فهم ريباك الصبى بوضوح ما سيحدث بعد ذلك . فارتمى ، وقد الهبته موجة من الحماس اللاواعى ، تحت حمل العربة الثقيل ، اسند بكتفى الغض حافتها ، كان الثقل شديدا لا يطاق ، وفى مرة اخرى غير هذا ما كان بامكانه ربما الصمود تحته ، ولكنه استطاع الثبات فى تلك اللحظة . قفزت الفتاتان الى الارض ، وتناثرت العصاعيص عليه ، ولكن الحصان استطاع رغم ذلك تدارك امره والحمل الذى عليه ، فانحرفت مقدمة العربة الى جانب ، بعيدا عن الهوة الحادة المنذرة بالثبور .

ثم امتدح فيما بعد فى القرية ، وكان هو نفسه راضيا بفعلته ، فقد انقذ نفسه والحصان والفتاتين من مصاب محتوم رغم ذلك . فاخذ يفكر انذاك انه لم يكن بمستطاعه ان يتصرف بشكل مغاير وتحقق ريباك الصبى مرة اخرى من شجاعته . وقد كان الامر الاهم ان لا يرتبك ولا يجبن .

وها هى تلك الهوة تنداح امامه مرة اخرى .

الا ان عدم الارتباك لا يكفى هنا ، واى شجاعة لن تعينه هنا ، الحاجة هنا ماسة لامر آخر افتقده بوضوح . انه موثوق اليدين والساقين هنا ، ولا سبيل له كما يبدو ليفعل شيئا .

ولكن ايعقل ان يكون ذلك المحقق قد كذب عندما اثقل له الوعود ، بل وحاول كما يبدو استخدام اسلوب الاقناع معه ؟ فلعل ريباك قد اخطأ اذن عندما لم يصرح بموافقته فى الحال ، فهل يفوت الاوان يا ترى غدا ؟ ولكن الامر مفهوم ، فالمحقق ليس الآمر العام هنا كما يبدو ، هناك من هو اعلى منه ، فاذا صدر الامر انتهى كل شىء . الا انه لم يعد ثمة مجال لتصحيح او تغيير شىء من الوضع كما يبدو .

كلا ، انه لا يستطيع الرضوخ للموت . لا يستطيع الاستسلام له مذعنا ، انه قادر على تحطيم مبنى الشرطة ، وسيخنق بيديه العريتين برتنوف ذاك ، وستاس ، وكل من يحاول مد يده اليه . . .

١٦

بعد حديثه القصير مع المختار ، اغفى سوتنيكوف برهة ، وقد استنفد ذلك قواه . واذ استيقظ وجد نفسه بغتة مبللا بعرقه ، فيما تناوب حر خانق وبرد معرق الاثقال عليه ، ارتعش بردا تحت معطفه الرطب . الا ان راسه بدا بحال افضل ، وغادره ذلك الخدر الذى عذبه ، وتحسن وضعه العام . ولو لا اصابع يديه المشوهة المتورمة ، والم ساقه المعتق العميق لاستطاع ان يعتبر نفسه بحالة سليمة لا بأس بها .

كان القبو مظلما هادئا ، الا ان احدا لم ينم ربما ، وكان ذلك محسوسا من التنهدات الحرّى ، المنطلقة بين آن وآخر ، ومن تململ المعتقلين ، وانفاسهم المستوفزة ، وقد فهم سوتنيكوف انذاك بغتة انهم انما يعيشون آخر ليلة لهم فى هذه الدنيا . اما الصباح فلن يكون لهم .

واذن ، ينبغى استجماع آخر ما تبقى من قوى ، كى يمكن مواجهة الموت بجدارة ، وبالطبع فهو لم ينتظر شيئا آخر من هؤلاء



الاوغاد ، فهم لا يمكن ان يتركوه حيا ، بامكانهم فقط ان يعذبوه فى غرفة بوديلا الشيطانية ، ولعل الاعدام ليس اسوأ امر . ان الرصاصة تضع خاتمة للحياة ، سريعة وخالية من الالام ، وهذا ليس اتعس الاحتمالات الممكنة للموت فهو ، فى كل الاحوال ، نهاية معتادة للجندى فى الحرب .

اما هو فقد كان ، لحماقته ، يخشى الموت فى المعركة . واما الآن فقد بدا له مثل هذا الموت ، وسلاحه فى يده ، ترفا لا سبيل الى بلوغه ، حتى انه حسد تقريبا الالاف من اولئك المحظوظين الذين جنوا نهايتهم المشرفة فى ميادين الحرب العظيمة .

وفى الحقيقة فانه قد فعل شيئا ما خلال هذه الاشهر المعدودة من حياة الانصار التى عاشها ، منفذا واجبه كمواطن ومقاتل ، وان كان ذلك لا كما يريد تماما ، بل كما سمحت به الظروف . فقد جندل بيديه عددا من افراد العدو .

وها هى النهاية قد حانت .

اصبح كل شيء واضحا وقاطعا . وهذا مكن من تحديد الاختيار بصرامة . واذا كان ثمة ما يشده بعد الى الحياة ، فهو واجبه الاخير تجاه الناس ، الذين وجدهم بمحض الصدفة او بحكم القـــدر الى جانبه . لقد فهم انه لا يمتلك حقا فى الموت قبل تحديد علاقاته بهم ، فهذه العلاقات انما هى آخر تعبير عن ذاته امام الاخرين قبل تلاشيها الى الابد .

من الوهلة الاولى بدا غريبا ان سوتنيكوف وقد استسلم لفكرة الموت ، احس ، سويعات معدودة ، باستقلال غريب مطلق تقريبا عن قوة اعدائه . اما الان فقد استطاع ان يسمح لنفسه كل السماح بما كان صعبا او ممتنعا بسبب الظروف والاهتمام بالمحافظة على حياته ، لقد شعر الان فى داخله بامكانات جديدة لا يمكن لسلطان الاعداء او الظروف او اى احد فى العالم ان يطالها . لم يكن يخشى احدا وهذا ما اعطاه تفوقا محددا امام الاخرين ، وامام نفسه السابقة ايضا . فقد اتخذ لنفسه القرار الاخير الان بالسهولة والبساطـة اللتين يسمح بهما وضعه ، الذى يضفى على ذلك القرار منطقا قويا وبداهة لا تقبل الشك : سوف يضع كل المسؤولية على عاتقه . سيخبر المحقق غدا انه خرج للاستكشاف محملا بمهمة معينة ما ، وانه هو الذى جرح الشرطى اثناء الاشتباك ، وانه قائد بطارية فى الجيش الاحمر ، معاد للفاشية ، وليطلقوا النار عليه . اما الاخرون هنا فلا ذنب لهم فى كل ما حدث .

لقد انتوى فى الحقيقة التضحية بحياته من اجل انقاذ الاخرين ، الا انه نفسه كان محتاجا لهذه التضحية لا اقل من الاحتياج اولئك لها . لم يكن قادرا على الاذعان لفكرة ان موته انما سيكون لا اكثر من صدفة خرقاء على يد هؤلاء الخدم الاوباش . بل كان يرغب ان يجعل من موته ، شأن كل استشهاد من اجل قضية ، خصبا بثمرة ما ، نافيا لشيء ما ، محققا به قدر الامكان ما لم يستطع المرء تحقيقه اثناء وجوده فى الحياة . والا فما جدوى حياته ؟ ان الانسان لا يحيى فى هذه الحياة بسهولة كى يسفّه فى الخاتمة من نهايته .

كان الجو باردا ، ومن وقت الى آخر ينتفض سوتنيكوف مرتعشا فيغط فى معطفه اعمق فاعمق ، ولقد جلب له قراره الذى اتخذه شيئا من الارتياح كسابق عهد ، وزال عنه التلبد ، اضنى امر فى

الحرب . فهو يعلم الان متى تنشب آخر معركة له مع العدو ، ويعرف المواقع التى سيتخذها هو سوتنيكوف ، ويدرك انه لن يتراجع عن موضعه ، ورغم ان هذه المعركة لم تعده بانتصار سهل ، الا انه كان هادئا . صحيح ان السلاح والقوة الى جانب اعدائه ، ولكنه كان يمتلك بدوره ايضا ما يعينه على الصمود الى النهاية ، فهو لم يكن يخشاهم .

واذ شعر بقليل من الدفء تحت معطفه اغفى من جديد دون ان يحس بذلك .

ولقد راى فى منامه طيفا غريبا محيرا .

بل كان مدهشا ان يرى فى ليلته الاخيرة مثل ذلك الحلـــم بالذات ، فقد لاح له وسط تهويمات غامضة لا معنى لها ، مشهدا غريبا من صباه ، فكان سوتنيكوف اخرج مسدس ابيه الماوزر من جرابه ، فاداره دون حذر ، فاذا به يكسر سبطانته ، التى اتضح انها من مثل ما لمسدسات الاطفال وليس من فولاذ ، فسيطر الرعب عليه رغم انه لم يكن صغيرا آنئذ ، بل بعمر يقارب ما له الان ، بل وربما كان طالبا فى المدرسة العسكرية ، لقد حدث ذلك فى مستودع البنادق لسبب ما ، كان واقفا بالقرب من هرم البنادق ، لا يعرف كيف يدبر حاله ، والمفروض ان يظهر والده هنا بين دقيقة واخرى ، هرع سوتنيكوف الى الهرم ، لكنه لم يجد ثمة مكانـــا شاغرا ، فقد شغلت البنادق جميع الاوكار . فمضى الى بوابة الموقد الصغيرة الحديدية وحشر ، بيدين مرتجفتين ، المسدس فى مزغل التدفئة المجمر المسود ، تاججت النار فى اللحظة التالية فى الفحم المتوهج الملتهب الذى ذاب فيه كما بدا شيء ما ساطع ، بينما ظل هو واقفا امامها مذهولا تماما لا يفقه ما العمل ، والى جانبه ينتصب والده ، الذى لم يبد عليه حتى ما يشير الى انه تذكر ماوزره ، رغم ان الابن كان واثقا من انه قد علم بكل ما حدث قبل دقيقة من وقوع المحظور . ثم جلس والده القرفصاء امام الموقد وقال بصوت الثغ هرم لكانه آسف على امر : «كانت النار ، وكانت العدالة العليا على الارض . . .»

خيل لسوتنيكوف ان كلام ابيه مقتبس من الانجيل ، ذلك الكتاب الضخم ، اسود الغلاف ، المنقوش ، الذى كان موضوعا زمنا مـــا

على دولاب امه الصغير ، يقلب احيانا وهو غر اوراقه الرثة الصفر العابقة برائحة خاصة بالكتب العتيقة . اما الان فقد ادهشه ان يسمع والده يقتبس من الانجيل ، وهو الذى لم يكن يؤمن بالرب ، ويكره القسس علانية .

استمرت تلك النار تضطرم فى الموقد فترة غير معلومة ، بينما غاص وعى سوتنيكوف فى الظلمة مرة اخرى ، ولربما مر وقت طويل حتى ثاب الى نفسه بالتدريج ، فاخذ يميز بالقرب منه اصوات واهية ما : طرق ، خشخشة قش ، همس المختار العجوز الهادىء ، وعندما عاد لسوتنيكوف احساسه بالواقـــع ، فهم انهم يطردون جرذا ، وعندما صحا تماما راح يسعل بالم مدة طويلة مفكرا طيلة الوقـــت بمعنى ذلك الحلم . ثم استولت ذكريات مؤثرة ، عن طفولته البعيدة الغابرة ، على افكاره شيئا فشيئا . . .

لم يكن الماوزر طيفا غريبا فى هذا الحلم ، بل كان شيئـــا حقيقيا يحتفظ به والد سوتنيكوف ، الآمر السابق فى الجيش الاحمر ، وقبل ذلك الملازم فى سلاح الفرسان القيصرى ، حامـــل اثنين من وسام «القديس جيورجى» على صدره العريض . لقد راى سوتنيكوف اكثر من مرة صورة والده فى بدلة الضباط مصادفـــة فى سفط جميل مزين برسوم الطواويس ، عائد لامه ، وكان والده يخرج ماوزره اثناء الاعياد احيانا ، من الدولاب الصغير ، فيمسك ابنـه انذاك جرابه الاصفر الخشبى ، فقد كان صعبا على الوالد بيده التى شوهتها الحرب والتى اصيبت بالشلل تدريجيا ، اخراج السلاح بنفسه . كانت تلك الدقائق اجمل الاوقات بالنسبة للصغير ، الا انه لم يكن يستطيع الا التفرج على والده وهو ينظف السلاح ، دون ان يسمح له مرة باللعب به . «ممنوع اللعب بالسلاح وبالاوسمة» ذلك ما كان والده يقوله عادة ، اما هو فلم يعاند ولم يلح فى طلبه ، كلمة الوالد فى البيت قانون ، وسواء فى التوافه ام فى المسائل الكبيرة ، كان شخصه فارضا هيمنته ، وما يذكر ان ذلك لـــم يكن امرا غريبا لاحد ، فقد كان والده معروفا فى البلدة ، ومشهورا كبطل من ابطال الحرب الاهلية ، لم يكسب قوته بالعمل فى تصليح الساعات الا بسبب عاهته وكبريائه الفائق للعادة ، كما بينت امه له ذلك فى احد الايام .

كان الماوزر الاسود الغريب ، المخفى فى جراب خشبى ، حلما سريا لسوتنيكوف الصغير ، وكان من العبث طلبه من الام ايضا ، ولذلك قرر الصبى ان ياخذه بنفسه .

استيقظ صباح احد الايام فاحس بسكون سادر فى البيت ، يبدو ان والده قد خرج لشأن من قمرته التى ترددت منها كالعادة تكتكات الساعات فى ارجاء البيت ، وكان قد عرف ان والدته قد مضت الى الكنيسة مبكرا ، فقد سبح قرع النواقيس فوق البلدة ، مؤذنا ببدء قداس الصباح .

ارتدى سوتنيكوف الصغير بنطلونا قصيرا حتى ركبتيه على عجل ، مؤجلا الاغتسال وتنظيف الاسنان الى حين ، وهرع قافزا الى مخدع امه . كان درج الاحلام محشورا فى الدولاب الصغير بقوة ، الا ان المفتاح النحاسى القميىء برز من ثقب الباب مطمئنا ، اداره الصغير فى الحال دورة واحدة ، ثم اخرج الجراب الصقيل اللامع ، وقد بدا ثقيلا بغتة ، وتلامعت على جنبه الخشبى ، الاسطوانـــة المالوفة ذات النقش المحفور فى ذاكرته ايضا : «الى آمر كتيبـــة الخيالة فى الجيش الاحمر ا . سوتنيكـوف من المجلس العسكـرى الثورى لسلاح الفرسان» . اثارت الصبى ملامسته الاولى للمقبض المغلف بالخشب ، عالجت يداه الغطاء بثقة ، وها قد اخرج الماوزر الصلد المطاوع من جرابه باكمله ، تلتمع اجزاؤه السوداء لمعانا غامضا ساحرا ، لم يشعر الصبى من قبل ابدا بمثل هذه الاحاسيس المثيرة المقلقة ، وظل دقيقة يتفحص الماوزر دارسا ، رفع المهداف ، حاول تحريك الترباس ، ونظر الى الفوهة . الا ان المتعة الكبرى كانت فى عملية التهديف بالطبع وما كاد يفلح الامساك بالمقبض كما ينبغى ، ويتحسس باصبعه الزناد ، حتى دوى ، على غير انتظار البتة ، انفجار مصم هائل ، دون ان يفهم كيف انطلق تحت يده ، والى اين توجه تحت الطاولة .

ظل دقيقة واقفا دون حراك ، كان الحياة فارقته ، يتخرم اذنيه طنين حاد ، فيما تدحرجت خرطوشة فارغة على الارضية وقد ارتدت عن الحائط ، بينما انطرحت تحت الطاولة شظية خشب شوهـــاء كبيرة . لم يعرف مصدرها ، وقد حملت اثر الرصاصة ، قاتمـــا معوجا .

فهم سوتنيكـــوف الصبي اخيرا ما حدث ، فحشر الماوزر في جرابه ، واعاده الى الدولاب الصغير ، مغلقا عليه الباب ، ولم يستطع الاستقرار في مكان بعد ذلك حتى رجعت امه ، التي احست في الحال بنذير سوء ، فهرعت الى ابنها تمطره اسئلة ، فقص عليها كل ما كان ، وبالطبع فان مصيبة كهذه لم تستطـــع حتى امه تجاوزها ، فاصابها الذعر من اجله ، بل وبكت كما لم تفعل ابدا من قبل ، وقالت له ان عليه ان يعترف بكل شيء لوالده .

لم يكن سهلا اتخاذ قرار بشأن هذا الاعتراف . وحتى استطاع ان يحزم امره مرت ساعة او اكثر ، وفي النهاية فتح باب قمرة والده متلبكا .

كان والده يعمل ، منحنيا كعادته دائما على افريز النافذة كثيرا ينقب باهتمام في احشاء ساعة ، وقد ارخى ذراعـــه اليمنى ذات القفاز الاسود على ركبتيه بلا حول ، فيما راحت يسراه تفك وتنزع ، تركب وتشد ، قطعا معدنية صغيرة لامعة مختلفة ، في الساعة . كان هناك عدد من المنبهات وحوالى العشرين من الساعات الرخيصة المزينة الوجوه تتكتك وتوسوس بينما تتارجح رقاصات الساعات المعلقة على الجدار دون انتظام ، كل على هواها . فيما شغل الزاوية بدن خشبي ضخم ، لساعة صالة ، له عيارات ثقيلة ، جُلب في العشية ، من مبنى لجنة الحزب في الحي . لم يولِ الاب ظهور ابنه اهتماما ، الا انه عرف القادم دون خطأ كعادته دائما ، فسالـــه بصوت حيوي غير مناسب تماما للحظة الراهنة :

— ها ، كيف الاحوال ايها الشاب الصغير ؟ هل قرات الكتاب ؟

تشنج حلق الصبي وابتلع ريقه بصعوبة ، كان قد بدا قراءة ستانيوكوفيتش قبل ايام قليلة . وكان قد قرا اغلب ما في صندوق جده الضخم من كتب ، فلم يبق منها سوى مؤلفات بيسيمسكي ، وبضع مجلدات لستانيوكوفيتش ، اختار والده له احدها قبل ثلاثة ايام وقدمه له ليقراه ، الا انه الان كان مشغولا عن الكتاب بامر آخر .

— بابا ، لقد لعبت بمسدسك الماوزر !

هز والده راسه بطريقة غريبة ، وضع الملقط امامه وخلع بحركة يده المعتادة نظارته ، ونظر الى ابنه بصرامة :

— من سمح لك ؟

— لا احد . و . . . لقد . . . اطلق النار — بصوت متراخ اجبر الابن نفسه على الافصاح .

نهض الاب وخرج من الغرفة دون ان يفه بشيء ، اما هو فقد ظل واقفا قرب الباب يشعر وكانهم على وشك وضع راسه تحت مقصلة . وكان يعرف انه مذنب ، وعلى استعداد لتلقي جزاءه مهما كان .

عاد ابوه سريعا . وقال عند العتبة :

— ايها الجرو ، من اعطاك الحق لتمد يدك على سلاح عسكري دون سماح ؟ كيف تجرات على التسلل مثل لص الى الدولاب ؟

وبخه والده طويلا دون رافة ، على اطراحه الحذر ، وعلى اطلاق النار ، الذي امكن ان ياتي باوخم العواقب . والاكثر ، على تصرفه على هواه خفية ، ودون علم الاب .

— ما يخفف من ذنبك اعترافـــك به . هذا وحده انقذك من عقابي . افهمت ؟

— بلى .

— هذا ان كان مجيئك للاعتراف من تلقاء نفسك ، ها ؟

اشار الصبي براسه مؤيدا كلامه ، شاعرا انه يغور في الارض ، فاطلق ابوه تنهدة طويلة مطمئنة :

— وعلى هذا لك الشكر .

كان ذلك اكثر من اللازم — الكذب من اجل كسب رضى الاب — فاظلمت الدنيا في عينيه ، وهجم الدم الى وجهه ، ووقف غير قادر على التحرك من مكانه . قال ابوه انذاك :

— هيا ، اذهب لتلعب .

وهكذا لم يكلفه ذلك العصيان كثيرا ، فقد نجا من عقاب الضرب بالحزام ، الا ان ايماءة الراس المتخاذلة بقيت تاكل في روحه كجرح خبيث ، كان ذلك درسا له طيلة الحياة ، لم يكذب بعده على ابيه او على اي احد مطلقا ، وتحمل دائما مسؤوليات افعاله امام الناس ، عينا امام عين . يبدو ان امه لم تخبر اباه ايضا عمن دفعه للبوح بذلك الاعتراف . وانتهت رحلة ابيه في الحياة ، وهو سعيد الوثوق من تهذيب ابنه ، ذلك الرجل ، آمر الخيالة ، مقعد

الحرب الاهلية ، مصلح الساعات ، كان ممتلئا املا بان ابنه سيلقى في الحياة افضل نصيب .

وها هو ابنه يتلقى نصيبه . . .

١٧

اصطفقت ابواب ، وتناهت اصوات مكتومة ، وتردد وقع اقدام ، فوق ، في السكون الصباحي السادر . كان اصطفاق الابواب مسموعا بشكل خاص ، هنا في القبو ، حتى ان التراب كان يتساقط احيانا من سقف الزنزانة ، من دويها المتصاعد بين آن وآخر . لم ينم ريباك ، انما اضطجع متنصتا على جنبه بصمت ثانيا ساقيه بمحاذاة الحائط . لقد تركز كل اهتمامه الآن في سمعه . بينما هرّبت الكوة شيئا من النور ، فلعل النهار قد انبلج هناك في الباحة ، فيما اصبحت الرؤية ممكنة تقريبا في الزنزانة ، وراحت اشباح المعتقلين المدعوكة القاتمة تظهر ببطء من ظلمة الليل ، وكان شيئا ما شلّها . ديميجيكا امامه مستسلمة للهدوء ، بيوتر المتجهم المظهر دون حراك في زاويته ؛ اما باسيا فلم تكن مرئية بعد في عتمة تحت النافذة . وسوتنيكوف منطرح على ظهره الى جانبه كالسابق ، يتنفس بصوت مسموع ، حتى لا مكن الظن انه لم يعد من الاحياء لولا هذا التنفس . لقد حلّ يومهم الصعب ، الاخير ربما ، وهذا ما شعروا به جميعا ، الا انهم احتفظوا بصمتهم ، معانين كل على حدة من مصابهم وفجيعتهم .

طبطبت الجزمات فوق اكثر من قبل ، واصطفقت الابواب دون انقطاع . واقتحم حديث مفاجئ الزنزانة من الباحة ، رفع ريباك راسه ، واستند بقذاله الى الجدار قليلا ، لم يكن بالامكان فهم كلمة ، الا انه كان واضحا انهم يتجمعون هناك واصطفوا طابورا كما يبدو . ولكن ما الذي يمنعهم من النزول الى القبو ؟ لكانهم نسوهم تماما ؟

اقترب احدهم من الجدار تماما ، وسمع صرير قريب لجزمته على الثلج . صلصل شيء ما غير بعيد عن الكوة ، ثم تردد صوت اجش خشن عال :

– ليس هنا غير ثلاثة .

– هل المجرفة موجودة ؟ ابحث عن المجرفة .

– اي مجرفة ! لا نحتاج سوى رفوش .

وصلصل شيء ما معدني مرة اخرى ، ثم صرّت خطوات ، وساد السكون ثانية في القرب . الا ان هذا الحديث القصير وخز ريباك : ما حاجتهم الى الرفوش ؟ الرفوش للحفر حسب ! وماذا يمكن حفره الآن في هذا الشتاء ؟ خندق ؟ قناة ؟ قبر ؟ ربما . ولكن لمن يحفر هذا القبر ؟

وهنا تذكر : يبدو ان ذلك الشرطي قد مات فعلا .

ادار راسه ، ونظر مستفسرا فيما حوله . كانت ديمجيكا تنظر ، من تحت منديلها العكش نحوه بقلق ايضا غير فاهمة ما يدور حولها . بينما جمد بيوتر ، في توتر ، في زاويته . لم يفوت احد منهم كلمة ، تسقّطوا كل واردة وشاردة ، كاتمين الرعب والبلبلة في ارواحهم .

لم تستمر هذه البلبلة طويلا ، فقد طبطبت الاقدام بعد دقيقة من جديد وراء الجدار ذاته ، بحزم وثقة هذه المرة ، بحيث لم يتسرب الشك الى احد منهم : انهم قادمون الى القبو لأخذهم . وعندما ارعدت اول باب جلس ريباك على عجل ، وقد شعر كيف ارتج فجأة قلبه بين ضلوعه بشؤم ، بينما طفق سوتنيكوف يتحرك ويسعل الى جانبه . «اذا فتحوا الباب ودخلوا اوقعهم ارضا وفر هاربا عبره !» جاءت لريباك هذه الفكرة الجريئة المتأخرة ، ولكنه فهم في الحال : كلا ، لن ينفع ذلك ، ووراء الباب درجات ، ولن يفلح في الافلات .

فتح الباب فعلا ، واقتحم القرّس وطراوة الريح الزنزانة ، واضاء نور كامد من الباحة في الحال خمسة وجوه غبراء عصف القلق بها ، وظهر عند مستطيل الباب ستاس النشيط ، ولاح وراءه نفر ما ، حاملا بندقية في يده . صاح الشرطي بكل ما في حنجرته من صوت :

– كفى نوما ! لقد شبعتم منه . هيا اخرجوا ! ابادة !

«انها النهاية . لم اخطأ في توقعي . – تردد في وعي ريباك – انهم لا يطلبون احدا بالذات منا ، بل الجميع ، يعني ...» . وشعر

بارتخاء كلى دقيقة ، وقد تبعثرت كل قواه ، ثم لم ساقيه ببطء ، وعدل قبعته على راسه ، وحاول بعد ذلك الاستناد على القش عازما على النهوض . بينما صرخ ستاس بنشاز :

– هيا ، دَربك ! طائعا مختارا !

استقام بيوتر فى الزاوية الاول على ساقيه ، وشرعت ديمجيكا بالنهوض متاوهة ، بينما حاول سوتنيكوف الوقوف بصعوبة ، مستندا بكفيه على الجدار ، مسح ريباك وجه صاحبه الشاحب ، بل المتشمع خلال الليل ، بنظرة عابرة ، كانت عيناه قد غارتا عميقا ، واحلولكتا ، ودون ان يفكر او يشعر بشىء ، توجه الى الباب . بينما استحثهم الشرطى داخلا الى مهجعهم النتن المفروش بالقش .

– هيا ، هيا ، لم تبق سوى عشرين دقيقة ! وانت يا وحيد الساق ، هيا تحرك !

فانتهره سوتنيكوف بصوت اجش :

– ابعد يدك ! استطيع السير بنفسى !

هبطوا الى الباحة ، على الدرجات الاسمنتية المهالة بالثلج ، وكان ريباك يسير بخطو متراخ ، دون ان يزرر معطفه النصف او ينتبه لطراوة البرد المنشطة . كان الراس دائخا ، بعد قضاء ليلة فى قبو عطن ، لكان بقية من سكر تتعتعه . وقف امامهم فى الباحة ستة افراد من الشرطة ، ينتظرون شاهرين بنادقهم ، كان الصباح كالحا ، والبرد معتدلا ، والمداخن فوق اسقف البيوت ترسل عناقيد ادخنتها الزرقاء الى الفضاء الفسيح بغزارة .

وقف ريباك مترددا امام عتبة المبنى ، وتوقفت الى جانبه ديمجيكا صحبة باسيا ، التى التصقت بها الآن كما تلتصق صبية بأم ، لامّة قدميها الحافيتين الخشنين الى بعض بردا ، ناظرة برعب الى افراد الشرطة . اما بيوتر العجوز ذو المظهر المتجهم اللامبالى الشائب ، فقد انتصب على مبعدة منهم . وكان ستاس يطلق البذاءات القذرة خلال هذا الوقت ويجرجر سوتنيكوف على الدرجات حتى القى به على الثلج تعبا . ولكن سوتنيكوف لم يمهل نفسه ليلتقط انفاسه بل جهد ليقف على قدميه ، حتى انتصب واقفا بمعطفه المدمى المدعوك .

– اين المحقق ؟ نادوا على المحقق ! – جرّب سوتنيكوف الصياح بصوت اجش يقطعه السعال ، بينما فطن ريباك الى احتياجه بدوره الى المحقق . فتلفظ ، خلافا لسوتنيكوف ، بهدوء :

– بلى ، هاتوا لنا المحقق . لقد قال امس . . .

– سنأتى به بالطبع ، وكيف لا ! – قال ذلك شرطى دحدح بارز الوجنتين بنبرة ساخرة كانه يلمح لشىء ما ، ثم سار اليهم بعزم حاملا بيده حبلا على اهبة الاستعداد – هيا ، ايديكم ! ايديكم !

لم يكن امام ريباك الا ان يمد يديه له ، فثناهما هذا بمهارة خلف ظهره واحدة تلو الاخرى . ثم راح ، بمعونة الشرطى الآخر ، يربطهما الى بعض ، فعل كل ذلك بجلافة وخشونة والم ، بينما تغضن وجه ريباك ، لا بسبب وجع الرسغين ، بل لما استولى عليه من يأس ، فكل هذا لا يشير الا الى نهاية محتومة لا تقبل النقض .

– اطلبوا لنا المحقق ، نحن بحاجة الى المحقق – قال ريباك دونما ثقة كبيرة وقد شعر بالارض تهتز وتغور سريعا تحت قدميه .

بينما لم يرد الشرطى عليه الا بسباب مقذع .

– فات الوقت . انتهى التحقيق معكم .

– كيف انتهى !

صرخ ريباك ناظرا اليه عبر كتفه ؛ مثل هذا الوجه الدميم ، غير الحليق ، نابت الشعر الابيض ، ذى العينين الضيقتين الهاربتين ، مثل عينى الخنزير تماما ، غير المكترث لريباك لا يمكن اخافه صاحبه ربما . فتشبث بالامكانية الوحيدة المتبقية ، وراح يرجوه :

– هيا ، ادع برتنوف ، ماذا يكلفك هذا ؟ اانتم بشر ام لا ؟

غير ان برتنوف كما يبدو كان ابعد من الموت بالنسبة لريباك ، اذ لم يرد احد عليه .

وكانت يداه خلال ذلك الوقت قد شدتا بقوة ومهارة بحبل رقيق حز فيهما بالم . ثم دفع الى جانب . وتحولوا الى ديمجيكا . بينما هتف سوتنيكوف بالحاح ، ساعلا ، بستاس ، الذى حام حول ديمجيكا منشغلا ، وبندقيته وراء ظهره :

– الينا بالمحقق !

ولكن الشرطى لم يلق بالا اليه ، فكأنه ، كالآخرين هنا ، اطرش لا يسمع ما يقال له ، بل كان هؤلاء جميعا لا ينتمون الى عالم البشر . وهذا ما جعل ريباك يتأكد اكثر من ان نهايتهم قد دنت فعلا . والموت آت لا محال . ولكن كيف حدث كل هذا ، ولماذا لم يعزم على امر عندما كانت يداه طليقتين ؟

اختلج شيء ما فى داخله من اليأس ولوعيه بارتكاب هفوة ما ، فادار نظرة حائرة حواليه . ولكن ، لم يكن ثمة امل بالخلاص ، على العكس ، فقد كانت النهاية تدنو سريعا كما تشير كل الدلائل . بدا الرؤساء يخرجون من المبنى الى العتبة واحدا بعد آخر ، ضباط ما يرتدون بدلات الشرطة ، جديدة ، يبدو انهم لبسوها فى التو ، تتألف من معاطف قصيرة سوداء بياقات رمادية ، وكذا اللون بالنسبة لحواشى الاكمام ، يحملون مسدساتهم . ومنهم اثنان يبدون من الالمان ، فى معطفى جندرمة طويلين ، وعلى رأسيهما عمرتان مرتفعتا الوسط عاليا . وبضع رجال مدنيين ، وضعوا لفافات حول رقابهم ، وقفوا متحفظين بصورة ملحوظة ، فكأنهم ضيوف دعيوا لحفلة اغراب . سكن افراد الشرطة فى الباحة احتراما ، واتخذوا هيئة مناسبة ، فراح احد ما يعدهم من الخلف بعجل :

– واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة . . .

– واذن ، هل كل شيء على ما يرام ؟

سأل شرطى ، عريض المنكبين ، من العتبة ، يتدلى على بطنه جراب مسدسه صغير . فاشار هذا الجراب بالذات ، فضلا عن متانة بنيان السائل ، لريباك ان المتحدث انما هو الآمر هنا بالتأكيد . وما ان انتهى ريباك من التفكير بذلك حتى سمع وراءه صرخة سوتنيكوف البحّاء :

– ايها الآمر ! اريد ان اخبركم بشيء ما .

توقف الآمر على الدرجات ، وطعن المعتقل بنظرة ثقيلة :

– ماذا هناك ؟

– انا من الانصار . وانا من جرح شرطيكم . – افصح سوتنيكوف ذلك بصوت غير عال ، واشار برأسه الى ريباك – اما هذا الرجل فليس غير المصادفة جاءت به الى هنا . استطيع ان

اوضح ذلك لكم . اما البقية فلا شأن لهم على الاطلاق فى كل ما حدث . خذونى وحدى .

خيم الصمت على الدرجات ، بينما تبادل اثنان سارا فى المقدمة نظرات متسائلة فيما بينهما ، بينما احس ريباك بشرارة خلاص صغيرة تلهب املا ضعيفا فى روحه ؛ ماذا لو صدقوا فجأة هذه الحكاية ؟ فى الحال انبتت مشاعره التى احيت الامل فيه زهرة شكران لسوتنيكوف .

الا ان صرامة متعجرفة اكتسحت وجه الآمر وطردت عنه سيماء الانتباه التى طرأت عليه دقيقة . فسأل الآمر ببرود وهو يهبط الدرجات على الثلج :

– أهذا كل شيء ؟

تلجلج سوتنيكوف من المفاجأة .

– استطيع ان ابين ذلك بالتفصيل .

دمدم احدهم ممتعضا ، وتكلم آخر بالالمانية ، ولوح الآمر بيده :

– خذوهم !

«هكذا ، لا يريد حتى الاستماع» فكر ريباك متدحرجا الى هوة اليأس ثانية . يبدو انهم قد انتهوا من تدبير الامر . ولكن ماذا سيكون حاله هو اذن آنذاك ؟ وهل ثمة بعد ما يستطيع انقاذه اكثر مما حاول سوتنيكوف بفعله البطولى هذا ؟

نزل افراد الشرطة يطأون درجات العتبة الخشبية المتثنية تحت اقدامهم بحذر ، فتعرف ريباك فجأة ، فى واحد منهم ، ببدلة شرطة ايضا هذه المرة ، على برتنوف ، محقق الامس بالطبع ، الذى منحه الامل باقتراحه المعروف ، الناكص عنه الآن فى هذا اليوم . فانتفض ريباك اذ رآه ، وجمح الى امام بكليته ، دون ان يتهيب او يتحرج من شيء :

– ايها السيد المحقق ! امنحنى دقيقة ايها السيد المحقق ! اننى موافق على كلامكم امس . لا ذنب لى وحق الرب فيما حدث ، وهذا الرجل يؤيد كلامى . . .

اخذ الضباط يتوقفون ، ممتعضين ثانية واحدا بعد آخر ، وقد كانوا متوجهين من الباحة الى الشارع ، توقف بينهم برتنوف ايضا ،

كان معطف الشرطة الجديد يبدو اكبر من مقاسه عليه ، متدليا على جثمانه الصغير النحيف ، وعمرته السوداء مائلة الى جانب كعرف الديك . الا ان سيماءه استعارت ، بشكل

ملحوظ ، مظهرا ذا اهمية وخطورة وصرامة استعراضية . نظر الالمانى الطويل ، المشدود الحزام جيدا حول معطفه ، اليه مستفسرا . فاوضح المحقق امرا ما بالالمانية بنشاط .

— تعال الى هنا !

اقترب ريباك من العتبة وسط انتباه شديد من كلا الجانبين ، وكل خطوة منه يتردد صداها محملا بالالم فى روحه ، بينما كان شعاع الامل الضعيف على وشك الانطفاء الى الابد . سأله المحقق :



— انت موافق على الخدمة فى سلك الشرطة ؟

— موافق .

اجاب ريباك بكل ما عنده من اخلاص ، دون ان يزحزح نظرته المتفانية تقريبا عن وجه برتنوف غير الطرى ، غير الفتى ، رغم انه كان حليقا بعناية . تبادل المحقق والالمانى بضع عبارات اخرى بالالمانية .

— واذن ، حلّوا وثاقه !

— نذل !

صفعته هذه الصيحة الغاضبة كضربة على قفاه ، انطلقت من سوتنيكوف الذى افصح عن نفسه فى الحال بسعاله الممض المألوف .

ليكن ! وانزاح شىء ما رهيب ، كان قد استولى على ريباك ، عن كاهله دون رجعة بسرعة ، تنهد عميقا ، ثم شعر كيف اطلقت يداه من الخلف . الا انه لم يوجه نظرة واحدة الى الخلف ، فقد احس بامر عنيف اوحد حسب : لقد كتب له الخلاص اخيرا ! تدلت يداه الطليقتان الى اسفل مرتخيتين ، وقام بخطوة اخرى الى جانب دون وعى ، راغبا الانفصال بكل وجوده عن جماعته باسرع وقت ، فقد اراد الآن ان يكون بعيدا عنها اكثر ما امكن . تنحى ثلاث خطوات اخرى دون ان يوقفه احد . واستدار بعضهم متوجها الى البوابة ، فيما انطلقت من الخلف صيحة ديمجيكا :

– اها ، اتخلون سبيله ! اخلوا اذن عن حالى ايضا ! اطلقوا سراحى ! عندى صغار . . . يا ربى . . . ماذا ينتظرهم ! . .

اجبرت صيحتها العارمة اليائسة الجميع على التوقف من جديد ، وكان برتنوف اقربهم اليها ، بينما الغث الالمانى الطويل بشىء ما غضبا ، ولوح المحقق بيده :

– خذوهم ! – ثم قال برتنوف مشيحا بوجهه نحو ريباك – اسند هذا ! – واشار فجأة الى سوتنيكوف .

لم يعجب هذا ريباك كثيرا . فقد كان راغبا البقاء بعيدا عن سوتنيكوف . ولكن الامر امر . فقفز طائعا الى من كان رفيقه قبل فترة وجيزة ، واسنده تحت ابطه .

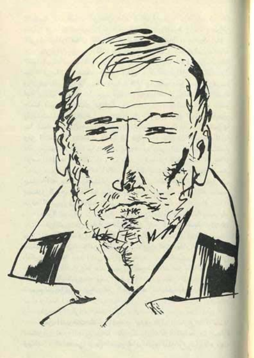
اقتادوهم عبر البوابة المفتوحة على مصراعيها الى الشارع ، بينما سار افراد الشرطة شاهرين بنادقهم الى الجانبين . فيما تلبث الضباط قليلا متفرقين فاسحين المجال للسير امامهم . سار بيوتر فى المقدمة ، العجوز بقامته المرتفعة ورأسه الاشيب الحاسر ، موثق اليدين الى الخلف . بينما جرجرت ديمجيكا نفسها وراءه غاصة فى بكائها اليائس المرير ، والى جانبها باسيا تسرع حافية القدمين ، فى ملابس داكنة طويلة الردنين ، مستعارة من الآخرين كما بدت على كتفيها .

ظل ريباك يسند سوتنيكوف تحت ذراعه ، الذى راح يظلع على ساقه الجريحة بقوة ، وقد ذوى تماما وشحب وجهه وضمر ، متداعيا ، ساعلا ، وراء الآخرين . وكانت قدمه التى اسودت ، لكانما لم تعد حية ، تحفر فى الثلج باصابعها المتخشبة ، مخلفة وراءها اثرا غير مالوف فى الشتاء . كان صامتا ولم يجرؤ ريباك على التحدث اليه . واذ سارا سوية ، فقد كانا يمشيان فى جانبين مختلفين يشطران الناس الى اعداء واصدقاء . ورغم ان ريباك شعر بشىء من الذنب الا انه حاول اقناع نفسه بانه لا يحمل على عاتقه ذنبا كبيرا . المذنب من يرتكب الافعال انطلاقا من ارادة شريرة او طمعا بربح ، اما هو فما الربح الذى يجنيه ؟ لقد صدف ان كان له من الامكانات اكثر مما لغيره ، استطاع ان يتحايل على اولئك للبقاء حيا . فهو ليس خائنا . وفى كل الاحوال فهو لا ينوى ان يكون خادما للالمان . انما هو ينتظر دائما ان تسنح فرصة مؤاتية ، قد تحل الآن ، او ربما فيما بعد ، ليفر وليروا آنذاك ما هو فاعل . . .

١٨

لقد فهم سوتنيوف بوضوح ، انه لم يحقق تقدما ملموسا فى مسعاه . فقد انفجرت فكرته ، التى داهمته ليلة امس وجلبت شيئا من الاطمئنان ، كفقاعة صابون . وبالطبع فان هؤلاء الشرطة لا اكثر من لعبة بيد الالمان ، ولهذا السبب استقبلوا كلامه بتلك اللامبالاة ، واى دعوى لهم فيمن يكون المذنب اذا كان الامر المعنى قد صدر او حانت ضرورة تصفيتهم .

جرجر سوتنيكوف نفسه بمشقة بالغة ، لا يكاد يقف على قدميه ، محاولا عدم الاعتماد كثيرا على يد ريباك ، التى اصبحت الآن يدا غريبة ، كريهة . فما حدث فى باحة مركز الشرطة قد سحقه تماما ، لانه لم يتوقع ابدا ان يجرى ذلك . حقيقة ان الناس مستعدون ، بسبب من الخوف او الكراهية ، لارتكاب مختلف انواع الخيانات ، الا ان ريباك كما يعتقد سوتنيكوف لم يكن خائنا ، كما لم يكن جبانا ايضا . وكم هو عدد المرات التى اتيحت



له فيها امكانية الهرب الى صفوف الشرطة ، او اضطرته للكشف عن جبنه ، ولكنه خرج من ذلك بجدارة دائما ، لا اسوأ من الآخرين فى اضعف تقدير . اما هنا ففعل كل ذلك بحساب ذاتى من اجل انقاذ فروته حسب ، الامر الذى فصل بينه وبين الخيانة بخطوة واحدة فقط .

كان سوتنيكوف يشعر بخيبة مرة جراء خياله الساذج ، لقد فقد هو نفسه الامل بالخلاص من الموت ، وها هو يفكر بانقاذ الآخرين منه . ولكن ، ايستحق اولئك الذين يرغبون البقاء احياء باى ثمن اى حياة من تلك التى يُضحىّ بها فى سبيلهم ؟ فما هو عدد تلك الحيوات البشرية منذ عهد المسيح التى قدمت قرابين على مذبح الانسانية ، وهل علّمت هذه القرابين الانسانية الكثير ؟ ان الانسان موكل بامر نفسه حسب كما هو الحال منذ آلاف السنين ، اما النزعة النبيلة الاشرف الى العدالة والخير فهى تبدو احيانا من جانب مجرد غرابة اطوار على اقل تقدير ، ان لم تكن محض حماقة صماء .

اخذ سوتنيكوف يثوب الى نفسه بالتدريج فيما اخذ القرّس يقسو عليه ، بينما نضح جبينه عرقا بسبب الوهن ، جف ببطء فى الريح الباردة ، فجمد راسه حتى كاد مخه يتشقق لذلك . وعلى العموم فقد بدت هذه الريح المحتقنة بالبرد ، جردته تماما من الدفء الذى اكتسبه فى الليل فراحت البرداء تخض بدنه من جديد ، الا ان سوتنيكوف حاول الاحتمال الى النهاية .

عبروا جسرا صغيرا على شارع البلدة المقفر ، اتصلت به فيما بعد فى جانب واحد ساحة ضيقة مسيجة ، لها شجيرات رقيقة جمدت فى البرد فى بضع صفوف متوازية . وانتصب امامهم على ربوة بيت ابيض ذو طابقين ؛ رفرفت قماشة العلم الفاشى عريضا فى زاوية منه . يبدو ان مجلس ادارة البلدة او مقر الحاكم العسكرى قائم هناك ، اذ تجمع بالقرب منه حشد من الناس . دهش سوتنيكوف : فاى حاجة دفعت هؤلاء القوم للتجمع فى مكان واحد ؟ ثم فكر فيما بعد ، قد تكون السوق منعقدة اليوم ، او ان شيئا ما قد حدث ؟ او انهم ساقوا السكان الى هنا لارعابهم بمنظر اطلاق النار عليهم ؟ اذا كان الامر هكذا فليطلقوا النار

عليهم ، لان الموت في مثل هذه الحال اهون . واما الخوف فقد شبعوا منه في الحرب ، ومع ذلك فالصراع يزداد ضراوة . وسياتي آخرون ليحلوا مكان الذين يبيدونهم ، فالشجعان موجودون ابدا .

اقتربوا ببطء من ذلك المبنى ، وساق سوتنيكوف المصابة كانما استحالت ساقا اصطناعية جامدة ، راحت تجرف في طريقها حفرا غريبة في الثلج الهش الذي هرسته حوافر الخيول وزلاجات العربات ، بينما واصلت التهابها بالم عميق حاد لا هوادة فيه ، ولم تطاوعه الا بجهد جهيد . يبدو انه قد بالغ بتقدير قواه عندما انتوى الاعتماد على نفسه حسب في بدء المسيرة ، فهو يكاد يتعلق الآن تقريبا بساعد ريباك القوى . ومن الجسر الصغير بدأ منحدر معتدل في الارتفاع ، فشعر بصعوبة اشد في الحركة وفي التنفس ، واظلمت الدنيا في عينيه ، حتى ان الطريق كانت تتارجح او تنزلق احيانا تحت قدميه ، فخشى ان لا يستطيع الوصول الى خاتمة الشوط ، ان ينهار ، فيطلقوا النار عليه طريحا ، ككلب منبوذ في حفرة ما ، كلا . . . لا يستطيع ان يسمح لنفسه بهذا ، انه منفر ، مستنكر حتى وهو في هذا الوضع . عليه ان يستقبل الموت مهما كان شكله كما يجدر بجندي – وهذا ما اصبح هدفه الرئيسي في دقائقه الاخيرة .

اعتلوا الربوة ، ثم توقفوا . ففرز سوتنيكوف ، متنفسا بصعوبة، نظرته في ظهور من امامه ، منتظرا ان يتحركوا من جديد . الا ان رجال الشرطة الخافرين توقفوا بدورهم ، وسمع من امام كلام بالالمانية – كان عدد من الضباط منتظرين تحت جدار ذلك المبنى المكين . بينما جمد اناس يتراوح عددهم بين الخمسين والستين مقابلهم عبر الشارع ، عند السور المحيط بالساحة ، بالقرب من كشكين حائل اللون ، يبدو بوضوح انهم بانتظار شيء ما ايضا . فاصبح مفهوما ان مسيرتهم غير الطويلة قد شارفت نهايتها ، والطريق لم تعد تمتد ابعد من هنا .

راى سوتنيكوف آنذاك الحبل .

خمس انشوطات لدنة تارجحت بهدوء فوق الشارع ، كانما تستعرض امام الجميع متانة عقدها القادرة المشدودة بمهارة وحذاقة ، تدلت من قوس خشبي قديم اقيم للشارع قبل الحرب .

«لقد جاء وقته !» خطر لسوتنيكوف هذا ، وقد عرف فيه في الحال منشاة تقليدية تميز مركز الناحية ، كانت هناك مثيلات لها تماما زمنا ما في بلدته . كانوا يزينونها قبيل الاعياد باغصان البتولا والصنوبر ، وينصبون شعارا فوقها خط بالحبر على قطعة من ورق الجدران . وكانت الاجتماعات الحافلة تقام بالقرب ، امام مبنى اللجنة التنفيذية . بينما تمر قوافل التلاميذ تحت طاق القوس ، غير المرتفع جدا ، لمدرستي البلدة ، وعمال معمل النسيج ، والورشات الميكانيكية ومعمل العباة . وكانت نجمة خشبية حمراء تتالق في قمة الطاق او علم صغير يخفق فوقها في الريح ، يمنحان القوس كله مظهرا احتفاليا مكملا خاصا . اما الآن فليس هناك شيء ، سوى مزق من الاوراق تتعلق بالاعمدة المسودة ، وخرقة حائلة ما رفرفت في الريح . فقد جلب المحتلون الى القوس زينتهم الخاصة ، هذه الحبال الجديدة ، التي خرّجوها من المخزن ربما لهذه المناسبة خاصة .

وهو الذي فكر انهم سيعدمون رميا بالرصاص . . .

جلب اثنان احدهما شرطي ، والآخر في لباس رمادي من الجوخ ، مسطبة عتيقة عبر الشارع ، ففهم سوتنيكوف انها لهم ، كي يطالوا الانشوطات ، قبل ان يتدلوا منها ، ويميلوا رؤوسهم على اكتافهم ، بلا حول ، وبطريقة مقرفة ، دون صوت . شعر بالاشمئزاز من مجرد تصوره لنفسه مشنوقا ، بل ومن كل هذا العقاب المهين اللاانساني . فهو لم يفكر بالموت خلال الحرب الا بشظية او رصاصة . اما الآن فقد هبت كل غرائزه تحتج فيه ضد هذه الانشوطات الخانقة الجحيمية .

الا انه لم يعد قادرا مساعدة نفسه او الغير . كان يهمس في داخله حسب : لا بأس ! لا بأس !.. هذا حقهم في نهاية المطاف ، هذه عادتهم الوحشية ، انها سلطتهم . واما واجبه الاخير فهو الصبر . ومن غير ظل لخوف او اسف ، ليشنقوه !

يبدو انهم وضعوا المسطبة في المكان اللازم . اقتادهم ستاس الخفيف الحرك ، وكذلك بوديلا الضخم ، المحزم على معطفه تحت الكمر ، افراد شرطة آخرون ، الى تحت القوس . انتبه سوتنيكوف ، وهو يسير على قدمه المؤلمة المتحجرة كعظم ، الى المسافة القصيرة

المتبقية امامه ، خطوات قليلة ، خمس عشرة او عشرين ، فانتزع يده من ريباك عازما على المضى بمفرده . ساروا بين افراد الشرطة ، قريبا من مجموعة الضباط من الالمان والمدنيين ، الذين راوحوا فى اماكنهم بصبر منتظرين تحت جدار المبنى . لقد بدات المسرحية ، الشرطة المحلية تؤدى فعالياتها على الطريقة الالمانية ، تحرك افرادها بعجلة وبلبلة ، فيما بدا انهم لم يفلحوا باداء امر ما كما ينبغى . وتجهم بعض الضباط ، بينما تبادل آخرون منهم الحديث فيما بينهم بلا انفعال او مبالاة ، لكأنهم انحرفوا عن اعمالهم المعتادة لسبب ما عابر خال من اللطف ، وسرعان ما سيعودون اليها كسابق عهد . تواصلت من اتجاههم روائح سيكار وكولونيا ، وتناهت مقتطفات من عبارات عرضية . الا ان سوتنيكوف لم ينظر نحوهم ، واذ افلح بجر نفسه الى القوس ، استند بكتفه على عموده محاذرا الانهيار ، واغمض عينيه وقد سحقه التعب .

كلا ، يبدو ان الموت لا يقرر ولا يُبرر اى شىء على الاطلاق . وليس الا الحياة ، تمنح الناس امكانات محددة ، بوسعهم استثمارها وتحقيقها او اضاعتها هدرا . وليس الا الحياة بامكانها مناهضة الشر والعنف . اما الموت فهو يحرم المرء من كل شىء . واذا استطاع ذلك الملازم فى اجمة الصنوبر ان يجنى بموته اى فائدة فمن المستبعد جدا ان يأمل بذلك . فهذا الموت ضرورى له قبل غيره ، لانه لم يكن يرغب ان ينفق مثل الدواب . ولكن ، ماذا بامكانك ان تفعل ، مع كل ما لديك من نكران للذات ، اذا كنت فاقدا لاصغر الامكانات ؟ ماذا يمكن ان تفعل فى ظرف دقائق خمس تبقت لك حتى النهاية ، وانت باق على قيد الحياة بالكاد ، لا تستطيع حتى رفع صوتـــك لاطلاق سباب عال تصم به هؤلاء الاوغاد بوصمتهم ؟

نعم ، لن يكون هناك شكر ، ولن يكـــون هنـــاك اعتراف بالفضل . اذ لا يمكن التعويل على ما لا يستحق . ورغم ذلك لم يستطع سوتنيكوف موافقة ريباك ، فقد كان ذلك ضد جوهره الانسانى ، ضد عقيدته ، ضد خلقه . لقد تضـــاءل ما لديه من الامكانات اكثر فاكثر بل ان الموت لم يكن فى وسعــــه ان يزد منها ، ورغم هذا فقد بقيت لديه امكانية واحدة بعد ، ظل متمسكا بها ولن يرفضها ابدا ، وكانت الوحيدة ، وفى الواقع فهى مرتبطة

به وحده ، دون غيره . وهو وحده لا غير كان قيّما عليها ، فقد كان منوطـــا به وحده المضى عن هذه الحياة كمـــا يستوجب الضمير ، وكما تقتضى جدارة وكبرياء الانســـان ، وكان هذا الصدقة الاخيرة ، الترف المقدس ، الذى وهبتـــه له الحيـــاة كمكافاة .

راحوا يوزعونهم واحدا بعد آخر بمحاذاة المشنقة . وضعوا بيوتر الهادئ الغارق فى دخيلته تحت الانشوطة الاخيرة بالقرب من الضباط . القى سوتنيكوف اليه نظرة ، وعبس كمن يشعر بذنب ، فليس الا امس كان قد امتعض لانهما لم يطلقا النار على المختار ، اما الآن فها هما سيشنقان سوية على مشنقة واحدة .

كان بيوتر اول من اجبر على الصعود الى المسطبـــة ، التى مالت تحت ركبتيه متوعدة ، منذرة بالانهيار ، فقفز بوديلا نفسه ، الذى راح يؤدى هنا ايضا دوره جلاد رئيسى ، الى اعلى مطلقـــا السباب ، وجر العجوز الى هناك . انتصب المختار على المسطبة بحذر ، ثم انحنى للناس بتحفظ ومهابة ، دون ان يرفع رأسه ، لكانه فى كنيسة . ثم دفعوا بعد ذلك باسيا الى المسطبـــة . فصعدت هذه بخفة الى مكانها ، واخذت تتفرج بتلقائية طفوليـــة على حشد الناس قرب من السياج ، وكانها تبحث عن معارف لها بينهم فيما راوحت بردا بساقين متجمدتين مشققتين .

الا ان المسطبة لم تكف الجميع . وكان ثمة صندوق اصفر من الخشب المعاكس تحت الانشوطة التاليـــة ، اما فى المكانين التاليين فقد نتات فوق الثلج كتلتان ، طول الواحدة منها نصف متر ، اعدتا من خشب منجـــور حديثـــا . فكر سوتنيكوف ان الصندوق سوف يكون من نصيبه . الا انهم اقتادوا ديمجيكا اليه ، اما هو فقد جره ريباك وشرطى الى الانشوطة الاخيرة ، ذات الكتلة الخشبية .

لم يكن سوتنيكوف وصل بعد مكانه عندما تصاعدت صرخـــة ديمجيكا من الخلف مرة اخرى . فالتفت من وقع المفاجاة ، فراى المراة ترفض الانصياع للشرطـــة ، وتدفعهم عنهـــا بكل ما فى وسعها ، مستخدمة فى ذلك ساقيها وذراعيها ، ممتنعة عن الصعود الى الانشوطة .

– آه ، ايها السادة ، المغفرة ! المغفرة لامرأة حمقاء ! لم اكن ارغب فى كل هذا !

غطت الصيحات الغاضبة للضباط على عويلها ، واصدر بوديلا امرا ما ، فترك الشرطى ، الذى يقود سوتنيكوف ، مهمته الى ريباك ، واندفع هو الى ديمجيكا ، ليشارك مع انفار اخرين باصعاد المرأة الى الصندوق .

اقتاد ريباك سوتنيكوف ، وقد بقى لوحده معه ، دونما ثقة كبيرة ، الى الكتلة الخشبيـــة الاخيرة تحت القوس ، ثم توقف . تأرجحت فوق راسيهما بهدوء انشوطة جديدة كالاخريات ، ذات فتحة ضيقة الى حد ما ، ففكر سوتنيكوف لسبب ما : «واحـــدة لاثنين» رغم انه كان واضحا ان هذه الانشوطـــة قد اصبحت من نصيبه . كان يجب اعتلاء الكتلة الخشبيـــة ، ولم يطل تردده كثيرا ، اذ عبر ذهنه خاطر خاطف يائس اشبه بشتيمة : «اوخ ، ليكن ما يكون !» ثم هتف بريباك الذى جمد قانطا : «امسـك !» وانتصب على ركبته السليمة على الكتلة ، التى لوثها اثر حديث قذر لجزمة ما ، بينما اسند ريباك بكلتا يديه خلال ذلك الوقت الركيزة ، كتلة الخشب . ولكى يوازن نفسه كما ينبغى اعتمد سوتنيكوف بمرفقه على ظهر ريباك ، ثم استجمع قواه ضاغطـا اسنانه وارتفع الى اعلى كيفما اتفق .

وقف هادئا دقيقة ، يضم قدميه الى بعض بشدة على المقطع الخشبى الدائرى غير العريض . ثم احس بملمس الانشوطـــة الخشن على علباته ، يجمد الروح . بينما سكن ظهر ريبـــاك العريض فى معطفه النصف فى الاسفل ، والتصقت يداه الغليظتان على لحاء كتلة خشب الصنوبر . «استطاع ان يتملص ، الوغد !» فكر سوتنيكوف حوله بغيظ شبيه بحسد ، ثم خامره الشـــك فى الحال : ايصح هذا ؟ لقد فقد سوتنيكوف الآن ثقته السابقـــة فجأة ، فى حقه ان يطالب الآخرين مثلما يفعل مع نفسه ، فى لحظات الحياة الاخيرة . لم يكن ريباك فردا من الانصار سيئا ، ولعلـــه اعتبر فى الجيش عريفا مجربا . الا ان شيئا ما ينقصه كانسان . وكل ما فى الامر انه قرر ان يفلت باى ثمن كان .

كانت ديمجيكا ما تزال تبكى وتحاول تخليص نفسها من ايدى الشرطة ، بينما اخذ المانى ، فى قفاز اصفر ، يقرأ شيئا ما ، حكما او امرا ربما لاولئك السكان الذين ساقوهم لرؤيـــة تنفيذ هذا الحكم . آخر دقائق الحياة تمر وسوتنيكوف المنتصب على كتلة الخشب يوجه نظرة وداع عطشى تحتضن كامل المشهد امامــه ، الخالى من الجمال ، لكنه المألوف تماما منذ عهد الطفولة ، شارع البلدة وهياكل الناس الحزينة ، الشجيرات الفتيـــة الهزيلة ، الاسيجة المخلّعة ، والجليد المتصلب اكواما عند الحنفيــة الحديدية . ولاحت خلل اغصان الاشجار الرفيعة جدران متآكلــة لكنيسة غير بعيدة ، سقفها الحديدى صدئ وقبتاها الخضراوان الحائلتان خاليتان من الصلبان . اما بضع نوافذها الضيقة فقد كانت مغلقة على عجل بالواح خشبية لم تشذب كما ينبغى . . .

ولكن ها هو وقع اقدام احد افراد الشرطـــة يتردد بالقرب منه ، فيطال الحبل ؛ فتمسك اليدان المتهورتان ، بكميها ذوى الحاشيتين الرماديتين ، بالانشوطة فوق راسه ، فتكتسح اذنيه الجامدتين الخربتين ، وتهبط حول راس حتى الذقن . «لقد انتهى كل شئ» – فكر سوتنيكوف واخفض نظرتـــه الى اسفل ، الى الناس . كان مرآى الطبيعة بحد ذاته ينزل على روحه دائما راحة وسلاما ، اما الآن فقد كان راغبا برؤيـــة الناس . فاجال نظرة متفجعة بهدوء على صفهم المتناثر المستثار ، الذى لم يضم سوى النساء تقريبا ، وبعض الرجال ممن تجاوزوا سن الشباب وقليل من المراهقين والفتيات – اناس البلدة المعتادون فى معاطفهـم الطويلة ولباداتهم القطنية وخلق عسكرية قديمة ومناديل الراس والاردية اليدويـــة الصنع . توقف نظره على صبى نحيل وسط الوجوه المتماثلة العديدة ، يقارب عمره الثانيـــة عشرة ، يعتمر طاقية عسكرية قديمة ، انزلها على جبهته بشدة ، وكان يرتدى ملابس لا هيأة لها ، ويحشر يديه المتجمدتين فى ردنيه عميقـا ، مرتجفا من البرد او الرعب ربما ، كما لاح ذلك من هنـــا . كان الصبى يتابع ما يجرى تحت المشنقـــة ، وعلى وجهـــه الشاحب الممرض ذهول طفولى سادر . كان من الصعب ان يحكم المرء من هنا على نظرة ذلك الصبى اليه ، الا ان سوتنيكوف رغب فجأة ان



لا يفكر هذا المخلوق حولهم بسوء . ولقد حدث فعلا ان التقت نظرتاهما بعد لحظة ، فاحس سوتنيكوف فى عينى الصغير بتفجع مر وتعاطف عميق معهم ، فلم يستطع الا ان يبتسم بعينيه حسب لذلك الصبى – لا بأس يا أخيّ .

لم يعد ينظر الى الناس بعد ذلك ، اخفض بصره كى لا يرى امامه الضباط ، مما يثير قرفه ، وكذا الالمان ، والمحقق برتنوف ، وستاس ، وبوديلا . فقد كان يشعر بحضورهم من غير ذلك . يبدو انهم انتهوا من تلاوة قرار الحكم ، اذ ترددت الاوامر بالالمانية والروسية ، فاحس بغتة بالحبل يجر حول رقبته بشدة ، كانما اصبح حيا ، وحشرج احدهم فى الجانب الآخر من المشنقة ، مرة واخرى ، وفى الحال اعولت ديمجيكا وكانها فقدت رشدها تماما :

– آ آ آ . . . لا اريد ! لا اريد !

الا ان صرختها انفرطت على حين غرة ، وانبعث صرير من طاق القوس ، بينما اجهشت امرأة من الحشد بصوت مكتوم ، فعصف القنوط بالروح ، ودفعته قوة داخلية لم تنفد بعد تماما الى الاندفاع الى امام والصياح كديمجيكا هذه ، بضراوة وفظاعة . الا انه اجبر نفسه على التمسك برباطة الجاش . وليس الا قلبه راح يخفق بايقاع ممرض فى تشنج احتضار : واشتدت به الرغبة لالقاء التحفظ جانبا والاجهاش فى البكاء . الا انه ابتسم فجأة بدل ذلك ، ابتسامة اخيرة ، مغتصبة ومثيرة للشفقة ربما .

صدر امر من جانب الضباط ، يبدو ان دوره قد حان اذن . تحركت الكتلة الخشبية تحت قدميه ، وتزلزلت . نظر سوتنيكوف الى اسفل يكاد ان يهوى منها ، فلمح وجها مشوها ، نابت الشعر، تطل منه عينان مرتبكتان تنظران الى اعلى ، هما باصرتا صديقه فى حياة الانصار ، وبالكاد استطاع سوتنيكوف ان يسمع :

– اغفر لى ، يا اخى !

– اذهب الى الشيطان ! – نبر سوتنيكوف لريباك باقتضاب .

انتهى كل شيء . بحث بنظرة وداع عن عود الصبى الجامد ، ذى العمرة العسكرية . كان هذا واقفا امام الآخرين بنصف خطوة

كعهده السابق ، فاتحا عينيه فى وجهه الشاحب على وسعهما . كانت نظرته المفعمة بالالم والرعب تتابع احدا ما تحت المشنقة ، ثم حولها اقرب فاقرب اليه . لم يعلم سوتنيكوف من كان سائرا هناك ، الا انه فهم كل شىء ، حتى النهاية ، بتعبير وجه الصبى .

زُلزلت الكتلة الخشبية ثانية بوهن مفاجئ اصاب يدى ريباك ، الذى انحنى فى الاسفل بصورة خرقاء خائفا ، وقد اعوزه العزم ربما فى انجاز آخر وارهب شغلة بالنسبة اليه الآن . بينما اطلق بوديلا بذاءة من مكان ما فى الخلف . ففقد سوتنيكوف فجأة مسنده ، اختنق ، وهوى بتثاقل فى هاوية سوداء خانقة .

١٩

دفع ريباك الكتلة الخشبية ، وارتد مبتعدا ، فيما تارجحت ساقا سوتنيكوف الى جانبه ، اللتان طوحتا بقبعته ، وقد ارتطمتا بها ، الى الثلج . استقام ريباك ، ولكنه انحنى فى الحال واختطفها من تحت المشنوق ، الذى تدلى من الحبل بهدوء الآن ، راسما دائرة ، تارة فى هذا الجانب ، وتارة فى ذاك . لم يجرؤ ريباك ان ينظر الى وجهه ، كان يرى قدمى المشنوق حسب معلقتين فى الهواء ، كانت احداهما فى جزمة مدعوكة ، والى جانبها عقب قدمه الظاهرة الى الخارج ، متسخة ، مزرقة ، جمدت خيوط من الدم على رسغها .

الا ان ما حدث استولى بهوله على ريباك برهة عابرة ، اذ استطاع بفضل قوة ارادته التغلب على بلبلته ، ونظر الى ما حوله ؛ تارجح الحبل الخالى الخامس بين سوتنيكوف وديمجيكا ، ماذا ؟ اينتظر هذا الحبل رقبته ؟

لم يكن هناك ما يؤكد مخاوفه . جر بوديلا الصندوق الاصفر من تحت ديمجيكا . وازالوا المسطبة من تحت القوس . صاح ستاس بشىء ما على مبعدة ، موجها كلامه اليه . ولكن ريباك الذى كان ما يزال مأخوذا بما حدث لم يلتقط ما صدر منه ، فظل واقفا لا يدرى الى اين يمضى . بينما راحت مجموعة الضباط الالمان

والمدنيين بالقرب من المبنى تقل عددا ، كانوا يتفرقون هناك ، متحدثين الى بعض ، مدخنين السيجار ، والجميع فى مزاج نشط عال ، وكانهم فرغوا من مهمة انتهت على ما يرام ، دون ان تبعث الضجر فى النفوس على العموم ، بل وكان فيها شىء من المتعة ايضا . فازداد ريباك آنذاك ثقة بامره مترددا : لقد حالفه الحظ وانقذ كما يبدو !

نعم ، يبدو ان الحظ قد حالفه ، لن يشنق ، وسيبقى حيا . التصفية انتهت . رفعوا حراس الشرطة . أُمر الناس بالتفرق . وجرجر الكهول والصغار والنساء ، الصامتون ، المأخوذون ، انفسهم على جانبى الشارع ، فيما توقف بعضهم برهة متلفتين الى المشنوقين الاربعة ، فيما مسحت النساء اعينهن ، وتعجلن المضى بعيدا عن ذلك المشهد . قام افراد الشرطة بآخر ترتيبات قرب المشنقة الجماعية . ورفع ستاس ، ببندقيته العتيدة وراء كتفه ، الكتلة الخشبية الواقعة تحت الانشوطة الخامسة الزائدة بقدمه ، وهتف بشىء ما مجددا لريباك . لم يفهم هذا ما طلب منه بالضبط ، ولكنه خمن ذلك ، فازال الركيزة الخشبية تحت سوتنيكوف ، ورمى بها الى مقربة من السياج . وعندما استدار وجد ستاس يقف مقابله وعلى وجهه المقنع ابتسامته الناصعة المعتادة ، بينما ظلت عيناه باردتين مستوفزتين .

– ها – ها ! عفارم عليك ! نذل قدير ! – امتدحه الشرطى ساخرا ثم ضربه على كتفه بقوة كادت تطيح بريباك ، ففكر هذا فى دخيلته : «ليتخرمك خازوق ايها الوغد !» الا انه ابتسم بدوره بشفة واحدة الى جانب ، اذ نظر الى وجهه الممتلىء ، الممطوط بابتسامته المتخشبة .

– ايه ، وانت الذى ظننت بى الظنون !

– مضبوط ! وهل يمكن الرافة بقاطع طريق !

«ما هذا ؟ – لم يفهم ريباك – من يقصد بكلامه ؟ سوتنيكوف ام غيره ؟» غير انه راح يفهم مبتغاه بوضوح متزايد ، فيما مس وعيه من جديد برد شعور بالذنب مزعج . الا انه لم يكن يريد ان يصدق بمساهمته فى هذه التصفية ، فما دعواه هو فى هذا ؟ وهل هو الذى فعل ذلك ؟ ان ريباك لم يفعل شيئا

سوى ان دفع الكتلة الخشبيـــة ، وحتى هذا انما حدث بامر من الشرطة .

تارجح المشنوقون الاربعة فى الحبال الطويلة ثقالا ، لاوين اعناقهم على اكتافهم ، وقد انغرزت فيها الحبال عميقا . علق احد الشرطة على صدر كل منهم لوحة خشبية خطت كلماتها بالروسية والالمانية . لم يحاول ريباك قراءتها ، بل تجنب النظر الى هناك على العموم ، فقد كانت الانشوطة الخامسة الخالية تخيفه ، وفكر انهم قد يحلونها ويزيلونها من هذه المشنقـــة ، ولكن احدا من افراد الشرطة لم يقترب حتى منها .



يبدو ان كل شيء قـــد انتهى ، وقف حـــارس بالقرب من المشنوقين ، شرطى شاب طويل الرقبة فى بدلة جوخ رماديـــة ، يحمل بندقية المانية على كتفه . اما الآخرون فقد راحوا ينتظمون طوابير ، ولكى لا يعيق احدا تنحى ريباك الى رصيف ضيق مغمور بالثلج ، ووقف هكذا ، متسربلا بانتظار ما سيأتى بعد . كان عقله قد اصيب بخبطة ، وكذا الامر مع مشاعره ، لقد تكدر فرحه بالخلاص بشيء ما ، الا انه لم يستطـــع بعد ان يفهم كنه ذلك الشيء . احس فى داخله من جديد بتلك الرغبة الملحاحة ، التى هفتت قبل حين ، لان يولى الادبار عائدا الى الغاب . لكن ذلك يتطلب اختيار لحظة مناسبة . لم يعد ثمـــة ما يربطه الآن بهذا المكان .

انتظم افراد الشرطة فى طابور كعادتهم ، كانوا خمس عشرة نفرا ، اوباش مختلفون فى معاطف رسميـــة جديدة ، وعمرات ، وكذلك فى معاطف قصيرة الى الركب ، وصديريات واردية بالية لجنود الجيش الاحمر . بل ان احدهم كان يرتدى معطفا جلديـــا قطع احد ذيليه حتى الخصر . لم يبق احد من الناس فى الشارع تقريبا ، سوى بضع مراهقين وقفوا على مبعدة فى الساحة ، بينهم صبى نحيف العود ، مريض الهيئة ، يعتمر طاقية عسكرية ، ينشق من انفه باستمرار ، متمعنا فى المشنقة ، وفمـــه نصف مفتوح ، لكان شيئا ما كان يبهظ وعيه هناك . اشار الصبى باصبعـــه ، بعد دقيقة ، من كمه الطويل ، عبر الشارع . فهز ريباك كتفـــه مضطربا ، وخطا الى جانب ، مختفيا وراء الشرطة . كانت مجموعتهم قد وقفت مستعدة فى طابور واحد ، تنفذ بفرح وخضوع ايعازات الآمر الصادحة ، الذى تلذذ نفسه باصدارها وبشعوره بامتلاك السلطة ، بينما جمد ميرزا مرفقيه على الطريقة الالمانية ، وارعد :

– استَ. . . . . . ـعِدْ !

انتفض افراد الشرطة فى الطابور ثم جمدوا ثانية . اجال الآمر بين الصفوف نظرة متفحصة متفقدة ، حتى ارساهـــا على نفر متوحـــد على الرصيف :

– وانت ، ماذا دهاك ؟ هيا الى الصف !

ارتبك ريباك دقيقة ، فقد انعشه وغمّه هذا الامر فى آن . الا انه لم يكن ثمة وقت للتفكير ، فقفز من الرصيف وانضم الى ذنب الطابور ، الى جانب شرطى طويل ، على راسه قبعـــة سوداء ذات طرفين طويلين يغطيان الاذنين ، القى اليه نظرة نفور .

– الى الاما ... م ، سر !

وكان ذلك معتادا ومالوفا . سار ريباك خالى البال توافقا مع الآخرين ، ولولا ساعداه الخاليـــان من السلاح ، اللذان لم يكن يعرف اين يمضى بهما ، لربما امكن التفكير انه قد عاد مجددا الى فصيله وجماعته ، وكذلك لولا لمعان تلك الاكمام الفاتحـــة والربطات الملوثة ، الزرقاء المائلة للبيـــاض ، على الاردان ، المتخاطفة امام العينين .

ساروا نزلا فى الشارع الذى جاؤا منه الى هنا ، الا ان الطريق الآن كان مختلفا تماما عن سابقه . لم يكن ثمة الآن ذلك القنوط والانحطاط ، فقد سار جنب ذوى الحيوية والغبطـــة مما لم يعد يدهشه : فهو الآن وسط المنتصرين . لقد شعروا بأتم النشاط فى انفسهم ، لنصف عام ، ليوم ، لساعـــة ، هذا لا يهم ، كان وعيهم ملتهبا بما اخذوا من ثار او بمـــا انجزوا من واجب حتى النهاية ! تحادث بعضهم بصـــوت غير عال ، وسمعت ضحكات ، وملح ، ولم يلتفت احد منهـــم مرة الى الوراء ، حيث خلفـــوا المشنقة . غير ان الجميع كانوا ، مقابل هذا ، ينظرون اليهـــم الآن ، اولئك الذين عادوا ادبارا بعد انتهاء العمليـــة ، بمحاذاة الجدران والاسيجة المتهرئة ، وفى عيونهم تلك النظرات اللائمة ، الخائفة ، بل ولاحت احيانا من عيون النساء المحمرة بفعل البكاء كراهية لم يفلحن باخفائها ، صببنها على اولئك الخونة . الا ان افراد الشرطة هؤلاء لم يعبأوا ابدا بهذا ، ولعل ديدنهـــم الذى درجوا عليه قد جعلهم يغضـــون البصر عن الخائفين ، العزل من الناس . اما ريباك فقد فكر وقد بدأ قلقـــه يتصاعد ان الواجب يدعوه للهرب من هنا . ولعله قد يقفز هناك عبر السياج ، عند المنعطف ، ويمضى بعيدا عن هذه البلدة . وحسنـــا ، لو كانت

هناك وهدة او اجمة ما ، وافضل لو كانت ثمة غابة . او لو وقع جواد ما بين يديه فى احدى الباحات .

كان الثلج يرسل من الطريق صريرا تحت الاقدام . وافراد الشرطة يسيرون بانتظام ، والى جانبـــه سار الآمر على الرصيف الضيق ، رجل ممتلئ الوجه ، محزم بقوة على معطفـــه الرسمى الطويل ، وقد تدلى الى جانبه مسدس ناغان ، مما كان رجـــال الميليشيا يحملونه ، فى جراب جلدى قديم . ابطات مقدمة الطابور فى سيرها بعد الجسر وانحرفت الى جانب ، فقد التقت هناك باحد ما ، فصاح الآمر عليه متوعدا . ثم تقارب الآخرون بعد ذلك فى صفوفهم ، منحرفين جانبا . بينما قَطَر عجوز ما فى عربة خالية دون عجلة ، تماما تحت نافذة البيت الواطئ الغارق بنصفه فى الارض . ففكر ريباك بكل ما فى الموقف من واقعية ، ان يرتمى على العربة ، يختطف الاعنة ، ينخس الجواد ، فلعله قد يفلح بالافلات اخيرا . ولكن ، آه اى عجوز كان ! القى عليهم وعلى آمرهم ممسكا باعنة جواد فتى نزق ، نظرة مشبعة بالكراهية جعلت ريباك يفهم انه لن يستطيع تدبير امره معـــه . مع من اذن يستطيع تدبير امره ؟ وهنا اصمتّه فكرة مفاجئة بالنسبة لهذا الوقت ، وكأنه تلقى صفعة ماحقة على اذنه : لن يستطيع الهرب ، ليس له مفر بعد عملية التصفية ! ليست هناك طريق بعد للهرب مـــن هذا الطابور .

استغرقه هذا الاكتشاف حتى اعشى بصره بوضوحه ، فزلت قدمه الا انه قفز مرعوبا ، فوّت خطوة ، ورغم ذلك لم يستطـــع الانتظام فى السير . فاستفسر جاره بصوت اجش هازئ :

– ماذا دهاك ؟

– لا شىء !

– لم تعتد على السير بعد ؟ لا باس ، ستتعلم !

صمت ريباك ، وفهم تماما ان مسألـــة الهرب لم تعد واردة ابدا ، وان عملية الاعدام هذه قد قيدته اكثر مما تفعله اى سيور جلدية . ورغم انهم ابقوه حيا فقد استطاعوا مع ذلك تصفيتـــه بمعنى معين .

لم يعد هنالك مجال للعودة الى سابق عهد ، لقد هلك بجد ،

والى الابد ، وبطريقة مباغتة تماما . فهو الآن عدو للجميع اينما كان ، بل وعدو نفسه كما يبدو .

الا انه وهو يتخبط فى حيرته وهمه لم يستطع ان يفهم امرا واحدا : كيف حدث ذلك ، ومن المذنب فى هذا ؟ الالمـــان ؟ الحرب ؟ الشرطة ؟ بينما لم يكن يرغب برؤية نفســـه مذنبا . ولكن ، ما ذنبه هو حقا فى كل هذا ؟ وهل هو الذى اختـــار هذا المصير لنفسه ؟ ام انه لم يكافح هذا القدر حتى النهاية ؟ وهو الذى فعل ذلك حقا ، واكثر واشد عنادا من سوتنيكوف المتمسك بعزته ذاك . وبالمناسبة ، فانه هو سوتنيكوف بالذات من كان سببا فى فاجعته اكثر من غيره ، فلو لم يكن هذا مريضا ، ولو لم يحشر نفسه فى مرمى الرصاص ، لم يضطر ريباك ربما للانشغال به بذلك القدر ، ولكان الآن فى الغابة منذ زمن بعيد . اما الآن فها هو ذاك فى المشنقة لا يعبأ بشىء ، واى دعوى له بمخلـــوق حى ! . .

سار ريباك مع الطابور ، غارقا فى البلبلـــة غائم الوعى ، متوجها الى بوابة مركز الشرطة المعروفة لناظريه . اوقفوهم فى الباحة الواسعة ، استداروا جميعا الى عتبة المبنى بايعاز واحد . وقف رئيس الشرطة ثمة ، المحقق برتنوف ، واثنان فى بدلتى جندرمة المانية رسميتين . اعلن آمر الطابور بصوت صادح عن وصولهم ، فالقى رئيس الشرطة نظرة متعنتة عليهم :

– استــَ . . .رح ! عشرون دقيقة راحـــة – قال ذلك ، ثم اعقب ريباك بعينيه – اما انت فتعال الى فيما بعد .

فنبر ريباك منكمشا لامر محتم ما يشعر به يلتف حواليه :

– حاضر !

وخزه جاره بمرفقـــه على جنبه مصححـــا : «قل : يافول بالالمانية ، لا : حاضر ! عليك التعود !»

«اذهب الى الشيطان !» – لعنه ريباك فى داخله – «وليذهب كل شىء على العموم الى جهنم ، الى الابد !»

تفرق الطابور . بينما جال ريباك حواليه نظرات قلقة ، غير عازم على امر . فيما تحرك افراد الشرطة ، وطنطنوا ، وتشاتموا بترو ، وطفقوا يدخنون ، تصاعدت فى الهواء رائحة التبغ الفاغمة .

توجه بعضهم الى المبنى ، وذهب احدهم الى زاوية الباحـــة حيث المرحاض الخشبى الضيـــق ذو البابتين المغلقتين بقطعتين من الخشب . اقترب ريباك ايضا منها .

– هـَىْ ، الى اين انت ذاهب ؟

وقف ستاس فى الخلف ، القلق باد فى عينيه بوضوح .

– دقيقة ، لاقضى حاجتى .

لفظ ريباك ذلك كما بدا باكثر ما امكنه من هدوء ، مخفيا فى دخيلته نيته وما ظنه المخرج الممكن الوحيد له الآن من وضعه ، فاستدار ستاس بلامبالاة . الى الشيطان ! الجميع وكل شىء ! دفع ريباك الباب فارسل صريرا ، واغلق خلفـــه بالمزلاج ، نظر الى اعلى . لم يكن السقف عاليا ، الا ان ارتفاعه كاف لغرضه كمـــا يبدو . اسودت شرائط الورق القطرانى بين الالواح غير المثبتة جيدا ، كان من السهل حشر الحزام وراء العارضة . فتح معطفـــه النصف بعزم غاضب ، واذا به يجمد مذهولا : لم يكن ثمة حزام فى بنطلونه . فكيف نسى انهم اخذوه منه امس قبل حبسهم فى القبو . قلـّب يديه بين ملابسه بحثا عن شىء مناسب ، الا انه لم يعثر على ذلك فى اى مكان من ملابسه .

طبطبت قدمان وراء الحاجز ، وصر الباب صريرا ثقيلا ، لقد مرت آخر فرصة لتصفية حسابه مع القدر . آه ، لو استطاع رمى نفسه الى اسفل على الراس ! استولى عليه يأس غامر ، فاطلق انينا ، واستطاع بصعوبة ان يكتم فى نفسه رغبة مفاجئة لأن يعوى مثل كلب .

الا ان صوتا مالوفا من الخارج اعاده الى رشده ، اذ صـــاح ستاس :

– اتنوى البقاء هناك طويلا ؟

– لحظة ، لحظة . . .

– الرئيس يطلبك !

الرئيس لا يصطبر على الابطاء بالطبع ، يجب الامتثال امامه بسرعة البرق ، فضلا انه تقرر جعلك شرطيا . وليس الا امس حلم ذلك كامل فى الخلاص . اما اليوم فقد اصبح تحقيق هذا الحلم كارثة بالنسبة اليه .

تمخط ريباك ، بحث عن ازرار معطفه النصف مرتبكا ، زرره حوله . لم يعد هنالك ما يمكن عملــــه بعد ، ربما . ذلك هو مصيره وقدره ، مصير مخاتل يفسد الانســـــان ويضلله زمن الحرب . سحب المزلاج بحال لا يستطيع معها التفكير بأمر ، ثم غادر المرحاض محاولا السيطرة على تلبكه .

كان رئيس الشرطة يقف عند العتبة ، فارغ الصبر ، ينظر نحوه .

محتويات